الإحياء والإماتة في القرآن الكريم

(دراسة معجمية موضوعية)

[أحيا، أمات، توفى، رجع، أخرج، أنشر، بعث]

عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي

١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م

موقع رحى الحرف

الإحياء والإماتة
في القرآن الكريم
(دراسة معجمية موضوعية)

عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي

١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م

موقع رحى الحرف

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

(ترقيم الكتاب موافق لنسخة المؤلف)

للاقتباس:

الإحياء والإماتة في القرآن الكريم (دراسة معجمية موضوعية)، عبد المجيد بن محمد الغيلي، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، منشور على موقع المؤلف: رحى الحرف، ص ...

الفهرس:

الفهرس: ٣
مقدمة: ١٢
خلاصة الدلالات: ١٣
الجزء الأول: الإحياء والإماتة دراسة معجمية ١٥
المبحث الأول: أمات وأحيا (دراسة معجمية) ١٥
المطلب الأول: (الحياة) و(الموت) لغة واصطلاحا ١٥
أولاً: المعنى اللغوي والاصطلاحي للحياة والإحياء: . ١٥
ثانياً: المعنى اللغوي والاصطلاحي للموت والإماتة: . ١٧
ثالثاً: اللفظان في كتب مفردات القرآن: ١٩
المطلب الثاني: استخدام لفظي الحياة والموت في القرآن الكريم ٢٤
أولاً: الصيغ الواردة من اللفظ ٢٤
ثانياً: إسناد الألفاظ ٢٦
(أ) المسند إلى الله سبحانه وتعالى: ٢٦
(ب) إسناد الموت والحياة إلى الإنسان ٢٩
(ج) إسناد (حيّ) و(ميت) وجمعهما: ٣٢
(د) أوجه إسناد الموت: ٣٦
(هـ) أوجه إسناد الحياة: ٣٨
(هـ) أوجه مجيء الحياة الدنيا: ٣٩
ثالثاً: تسميات الإحياء والإماتة والإعادة في القرآن: . ٤٤
المطلب الثالث: (توفي)، (أخرج)، (أنشر)، (بعث)، (رجع)، (أعاد) ٤٥
(١) خلق وأعاد: ٤٥

(٢) أمات وأحيا: ٤٥
(٣) توفي ٤٦
لغة واصطلاحا: ٤٦
التحقيق في دلالة اللفظ: ٤٧
(٤) أخرج: ٤٨
(٥) أنشر: ٤٨
(٦) بعث: ٤٩
(٧) رجع: ٥٠
المبحث الثاني: الألفاظ ذات الصلة ٥١
المطلب الأول: الألفاظ ذات الصلة بالموت والهلاك ٥١
(١) هلك: ٥١
(٢) أذهب: ٥٥
(٣) زهق: ٥٦
(٤) القتل: ٥٧
(٥) الذبح: ٥٩
(٦) الغرق: ٦١
(٧) الحرق: ٦١
(٨) الصعق: ٦٢
(٩) الأجل: ٦٣
(١٠) بدّل وغيّر: ٦٣
(١١) زوال: ٦٥
(١٢) دمّر/ قصم: ٦٦
المطلب الثاني: الألفاظ ذات الصلة بالحياة ٦٨
(١) الخلد: ٦٨

أ. الدلالة اللغوية والمصطلحية: ٦٨
ب. استخدام القرآن الكريم للفظ: ٦٩
ج. (دلالة الخلد): ٧٢
(٢) لبث ومكث:.................................... ٧٦
أ. الدلالة اللغوية: ٧٦
ب. استخدام القرآن الكريم للفظين: ٧٦
ج. التحقيق في دلالتهما: ٧٧
(٣) البقاء: ٨٠
(٤) الدوام: ٨٤
(٥) سرمد: ٨٨
(٦) العيش: ٨٩
أ. الدلالة اللغوية والمصطلحية: ٨٩
ب. التحقيق في دلالة اللفظ:...................... ٨٩
ج. الفرق بين العيشة والمعيشة: ٩١
(٧) الحيوان: ٩٣
أ. التفسيرات السابقة: ٩٣
ب. التحقيق في اللفظ: ٩٤
المطلب الثالث: وصف الله سبحانه وتعالى ١٠٠
(١) الحيّ: ١٠٠
(٢) الأول الآخر:................................... ١٠١
(٣) الوارث: ١٠٢
(٤) الإحياء والإماتة والتوفي: ١٠٥
(٥) التبديل والإذهاب:................................١٠٥
(٦) الإهلاك والتدمير: ١٠٦

(٧) الإبداء والإعادة والإخراج والبعث والإنشار: ١٠٦
الجزء الثاني: الإحياء والإماتة (دراسة موضوعية) ١٠٨
المبحث الأول: النفس والروح وعلاقتهما بالموت والحياة ١٠٩
المطلب الأول: مفهوم النفس ١٠٩
المطلب الثاني: مفهوم الروح ١١٢
المطلب الثالث: النفس والروح وعلاقتهما بالحياة والموت ١١٦
أولاً: الخلق والإماتة والإحياء: ١١٦
ثانياً: النفخ في المخلوق والنفخ فيه من الروح: ١٢٢
ثالثاً: النفس والنفس المكلفة: ١٢٩
رابعاً: عيسى كمثل آدم: ١٣١
خامساً: الوفاة والنوم والموت: ١٣٧
المبحث الثاني: حقيقة الموت والحياة ١٣٩
المطلب الأول: مفاهيم الموت والنوم والحياة...............١٤٠
أولاً: الموت:...١٤٠
ثانياً: النوم: ١٤٢
ثالثاً: الحياة:...١٤٢
المطلب الثاني: الموت شيء مخلوق ١٤٥
أولاً: خلق الموت والحياة: ١٤٥
ثانياً: الموت شيء يغشَى الجسم: ١٤٦
ثالثاً: (غمرات الموت): ١٤٨
رابعاً: (سكرة الموت): ١٥٠
خامسا: نحن قدرنا بينكم الموت: ١٥١
سادسا: يحييكم ثم يميتكم: ١٥١
سابعاً: يخرج الحي من الميت: ١٥٣

ثامناً: ملك الحياة والموت والنشور: ١٥٣
المطلب الثالث: النوم والموت والحياة ١٥٥
المطلب الرابع: العلاقة بين الماء والحياة: ١٦٩
أولاً: وجعلنا من الماء كل شيء حي: ١٦٩
ثانياً: الأرض الميتة: ١٧١
ثالثاً: موت الجسم: ١٧٢
رابعاً: موت النفس: ١٧٣
خامساً: أجسام أهل جهنم: ١٧٤
المطلب الخامس: الكائنات الحية صنفان: ١٧٦
أولاً: الصنف الأول: حي لغيره: ١٧٦
ثانياً: الصنف الثاني: حي لذاته: ١٧٧
المطلب السادس: السمع والنفخ والحياة والموت: ١٨٠
المطلب السابع: الأجل ١٨٨
أولاً: مذاهب العلماء في المسألة: ١٨٨
ثانيا: التحقيق في المسألة: ١٩١
(١): الأجل في القرآن: ١٩١
(٢): حالات التوفي: ١٩٣
(٣): التفريق في القرآن بين الموت والقتل: ١٩٦
(٤): مصيبة الموت: ١٩٩
المبحث الثالث: الإماتة والإحياء ٢٠٢
المطلب الأول: إسناد الإحياء والإماتة إلى غير الله: ٢٠٢
أولاً: الإماتة: ٢٠٢
ثانياً: الإحياء: ٢٠٣
(١): عيسى وإحياء الموتى: ٢٠٤

(٢): ومن أحياها: ٢٠٤
(٣): ولكم في القصاص حياة:................. ٢٠٦
(٤): إذا دعاكم لما يحييكم: ٢٠٧
(٥): أو من كان ميتا فأحييناه:................. ٢١٠
(٦): لينذر من كان حيا/ حي عن بينة ٢١٢
المطلب الثاني: المحيا والممات: ٢١٥
(١): سواء محياهم ومماتهم:...................... ٢١٥
(٢): محياي ومماتي لله ٢١٨
(٣): ما دمت حيا:.............................. ٢٢١
(٤): أذقناك ضعف الحياة وضعف الممات: ٢٢٢
المطلب الثالث: من معجزات الإحياء والإماتة ٢٢٨
أولاً: الحياة بعد الموت في الدنيا ٢٢٨
ثانياً: موت سليمان:.................................. ٢٣٠
المطلب الرابع: حياة أهل الآخرة ٢٣٧
أولاً: أهل الجنة: حياة طيبة ٢٣٧
ثانياً: ساكن جهنم: لا يموت ولا يحيا ٢٤١
المطلب الخامس: الأموات والموتى والميتون ٢٤٢
أولاً: أموات: ٢٤٢
(١): وكنتم أمواتا فأحياكم: ٢٤٣
(٢): أموات غير أحياء: ٢٤٣
(٣): وما يستوي الأحياء ولا الأموات: ٢٤٥
(٤): ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا:... ٢٤٥
(٥): لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل
أحياء: ٢٤٧

ثانياً: الموتى: ٢٥٣
ثالثاً: ميتون: ٢٥٥
رابعاً: مَيْت وميّت: ٢٥٦
المطلب السادس: (عدد الموتات والحيوات) ٢٥٧
أولاً: (وكنتم أمواتا): ٢٥٧
ثانياً: (أمتنا اثنتين) ٢٦١
المطلب السابع: الحياة الدنيا والآخرة ٢٦٤
أولاً: ورود (الدنيا) و(الآخرة) في القرآن ٢٦٤
ثانياً: خلاصة الاستخدام: ٢٦٦
(١): الحياة والحيوان: ٢٦٧
(٢): حقيقة الحياة الدنيا والآخرة: ٢٦٧
(٣): الآخرة والدار الآخرة: ٢٦٩
المبحث الرابع: التوفي ٢٧٢
أولاً: الحالة الأولى: إمساك النفس دون أن يقضي عليها الموت ٢٧٣
(١): المثال الأول: النوم ٢٧٣
(٢): المثال الثاني: أصحاب الكهف ٢٧٣
(٣): المثال الثالث: وفاة عيسى ٢٧٤
ثانياً: الحالة الثانية: إمساك النفوس فيقضي عليها الموت ٢٧٥
(١): الله يتوفاكم: ٢٧٦
(٢): ملك الموت يتوفاكم: ٢٧٧
(٣): تتوفاهم الملائكة: ٢٧٧
(٤): (يتوفاهن الموت): ٢٧٨

المبحث الخامس: مراحل إعادة الخلق ٢٨١
المطلب الأول: البرزخ ٢٨٢
أولاً: ما البرزخ: ٢٨٢
ثانياً: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم: ٢٨٧
ثالثاً: إعادة الخلق ليس خلقا جديدا: ٢٩٠
المطلب الثاني: الرَّجْع ٢٩٤
أولا: (رجع) اللازم. (رَجع يَرْجِع رُجوعا) ٢٩٤
ثانيا: (رجع) الفعل المتعدي ٢٩٥
(١): الاستخدام الأول: الرَّجْع (إنه على رجعه لقادر) ٢٩٦
(٢): الاستخدام الثاني: رُجِع إلى (رجعت إلى ربي) ٢٩٧
(٣): الاستخدام الثالث: المرْجِع، والرُّجْعَى ٢٩٨
المطلب الثالث: الإخراج ٣٠٠
المطلب الرابع: الإنشار ٣٠٢
المطلب الخامس: البعث ٣٠٦
أولا: البعث بعد النوم: ٣٠٦
ثانيا: البعث بعد الموت في الدنيا ٣٠٧
ثالثا: البعث بعد الموت في الآخرة ٣٠٨
١/ (وإذا النفوس زوجت) ٣٠٨
٢/ البعث بعد الصيحة ٣٠٩
٣/ القيام عقب البعث ٣١٠
المطلب السادس: الخروج ٣١١
أولاً: الخروج بعد البعث: ٣١١

ثانياً: هيئة خروجهم (كأنهم جراد منتشر) ٣١٣
(١): (هيئة خروج الجراد):......................٣١٤
(٢): (هيئة تكاثر الجراد): ٣١٥
(٣): (هيئة حركة الجراد): ٣١٧

مقدمة:

هذا البحث (الإحياء والإماتة في القرآن الكريم – دراسة معجمية موضوعية). وقد جاء في جزءين، معجمي وموضوعي. أما المعجمي فدرست فيه لفظي (الإحياء والإماتة)، وما تعلق بهما من ألفاظ: الموت والحياة، والألفاظ ذات الصلة بالموت أو الحياة (تقريبا عشرون لفظاً)، وألفاظ إعادة الخلق، وبينت ما يليق أن يوصف به الله سبحانه وتعالى من هذه الألفاظ.

وفي الجزء الموضوعي درست حقيقة الموت والحياة، والإحياء والإماتة، ومفهوم النفس والروح، وإعادة الخلق، وتناولت كثيرا من القضايا المتعلقة بهذه الموضوعات.

اللهم أنتَ الوارثُ، الحيُّ الذي لا ينام ولا يموت، تمسكُ الأنفسَ وترسلُها، وتُخرج الموتى من الأجداث وتُنشرُها، اللهم آمنتُ أنّ لقاءَك حق، وأن البعثَ حق، وأن الجنةَ حق، وأن النارَ حق، فأسألك خيرَ المحيا وخيرَ الممات، وأسألك نوراً في حياتي ونوراً في قبري، ربِّ لا تخزني يومَ تبعثُني، ولا تحرمْني من الحياة في آخرتي، ولا تُذقني الموتَ بعد موتتي الأولى، وقِني عذابَ الجحيم، وأسكني دارَ النعيم.

عبد المجيد محمد علي الغيلي

الرياض

ربيع الثاني – ١٤٣٦هـ / فبراير ٢٠١٥م

abdmmys81@hotmail.com

خلاصة الدلالات:

الموت: شيء يغشَى الجسم؛ فيخليه إخلاء تاما من النفس.

النوم: شيء يغشَى الجسم؛ فيخليه إخلاء مؤقتاً من النفس.

الحياة: إقامة النفس في الجسم.

الإماتة: إمساك النفس إمساكاً تاما عن الجسم الحي.

الإحياء: إرسال النفس إلى الجسم الميت.

التوفي: إمساك النفوس.

الرجع: إعادة خلق الشيء مما خلق منه أول مرة.

الإخراج، هو بدء خروج الموتى من الأرض (قبل إحيائهم)، أما (الخروج) فهو خروجهم من أجداثهم بعد البعث.

الإنشار: إعادة خلق الموتى، بإنباتهم بالماء.

البعث: إرسال النفوس إلى أجسادها بعد الصيحة.

الخلق: الإنشاء الأول للشيء، في طَورٍ ما. والإعادة: الإنشاء الثاني لأول خلق.

الهلاك: فناء الشيء المخلوق أو استئصاله.

زهوق النفس: خروجها من محلها (الجسد)، بشدة.

القتل هو: إزهاق النفس بفعل الإنسان، بآلة تسيل الدم.

الذبح هو: إزهاق نفس الحيوان بقطع بلعومه.

النحر، وهو إزهاق نفس الحيوان بنحر بلعومه، لا قطعه.

الغرق: زهوق النفس، بسبب الماء.

الحرق: زهوق النفس بسبب النار.

الصعق: زهوق النفس بسبب قوة مدمرة مفاجئة لا تحتملها النفس. كقوة الصوت، أو النور، أو غيرها من القوى المبثوثة في السماوات والأرض.

الخلد: إقامة النفس في البدن، دون تغير.

اللبث: إقامة مقصودة مؤقتة.

المكث: تمهل الشيء في مكانه.

البقاء: ثبات شيء قد انقضى بعضه.

الدوام: استمرار الشيء على حالته التي استقر عليها.

السرمد: اتصال الزمن بلا انقطاع.

العيش: كسب أسباب الحياة.

الحي [من أوصاف الله]: هو الذي لم تعرض له حالة الموت أبداً، فحياته لا قبل لها ولا بعد (حياة لم يسبقها موت، ولم يتخللها نوم، ولا يلحقها موت).

الوارث [من أوصاف الله]: الحي الذي لا يموت، وليس بعده شيء.

□

الجزء الأول: الإحياء والإماتة دراسة معجمية

المبحث الأول: أمات وأحيا (دراسة معجمية)

المطلب الأول: (الحياة) و(الموت) لغة واصطلاحا

أولاً: المعنى اللغوي والاصطلاحي للحياة والإحياء:

في الصحاح: (الحَياة: ضد الموت، والحَيُّ: ضدُّ الميّت. وأَحْياهُ الله فَحَيِيَ وحَيَّ أيضاً)، وقال: (الموتُ: ضدُّ الحياة).

وفي مقاييس اللغة: (الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة. فأما الأول فالحياة والحيوان، وهو ضد الموت والمَوْتَان. والأصل الآخر: قولهم استحييت منه استحياء).

وقال العسكري في الوجوه والنظائر: (الحياة: أصلها من الطراوة والجدة، ومن ثم قيل: والشمس بيضاء حية، أي: باقية على حالها غير حائلة اللون، وسمي الحياء حياء؛ لأن اللون يحمر معه، والحمرة لون الحياة؛ وسمي الحيّ من القرب؛ لأن بعضهم يجيء مع بعض، وسميت الحية حية؛ لأنها لا تموت حتى تقتل وإلا فهي حية أبداً تكبر إلى أن تنتهي ثم تبتدئ فتصغر حتى تنتهي ثم تكبر وكذلك أبدا إلى أن يصاب هكذا قالوا، وأنشدوا: داهِية قد صَغُرَت مِنَ البكرِ).

الحي، والحياة:

قال أبو القاسم الزجاجي في اشتقاق أسماء الله: (الحي في كلام العرب: خلاف الميت، والحيوان خلاف الموات، فالله عز وجل الحي الباقي الذي لا يجوز عليه الموت ولا الفناء عزوجل وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا. ولا تعرف العرب عن الحي والحياة غير هذا).

وقال الجرجاني في التعريفات: (الحياة: هي صفة توجب للموصوف بها أن يعلم ويقدر) وقال: (الحيوان: الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة).

وفي معجم اللغة العربية المعاصرة: (الحي: الدّائم الوجود، الباقي حيًّا بذاته أزلاً وأبدًا الذي تندرج جميع المُدركات تحت إدراكه، وجميع الموجودات تحت فعله).

□

ثانياً: المعنى اللغوي والاصطلاحي للموت والإماتة:

في مقاييس اللغة: (الميم والواو والتاء أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء، منه الموت: خلاف الحياة. والميتة: ما مات مما يؤكل لحمه إذا ذكي).

الموت:

في الفروق اللغوية: (الموت ينفي الحياة مع سلامة البنية، بخلاف القتل فهو نقض البنية الحيوانية).

وقال الجرجاني في التعريفات: (الموت: صفة وجودية خلقت ضداً للحياة).

وقال الكفوي في الكليات: (الموت: عدم الحياة عما وجد فيه الحياة.. وأما المعنى القائم بالبدن عند مفارقة الروح فإنما هو أثره، فتسميته بالموت من باب المجاز [فخلق الموت مجاز عن تعلقه بمصحح الموت)... وقال: (الإماتة: جعل الشيء عادم الحياة ابتداء، أو التصيير كالتصغير والتكبير).

ونقل الكفوي: (وفي " شرح المقاصد ": المراد بخلق الموت إحداث أسبابه، وقال بعضهم: لا ضرر لو أريد إحداث نفس الموت، لأن الأمور العدمية قد تحدث بعد أن لم تكن كالعمى).

وقال القاضي الأحمد في دستور العلماء: (الموت: صفة وجودية كما يدل عليه قوله تعالى: {خلق الموت والحياة} وهو ضد الحياة. وقيل صفة عدمية وهي عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حيا

فبينهما تقابل العدم والملكة فمعنى قوله تعالى: {خلق الموت} قدره).

وقال التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون: (عدم الحياة عمّا من شأنه أن يكون حيا والأظهر أن يقال عدم الحياة عما اتصف بها، وعلى التفسيرين فالتقابل بين الموت والحياة تقابل العدم والملكة. وقيل الموت كيفية وجودية يخلقها الله تعالى في الحي وهو ضد الحياة، لقوله تعالى {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ} والعاجل لا يتصوّر إلّا فيما له وجود. والجواب أن الخلق هاهنا بمعنى التقدير دون الإيجاد، وتقدير العدم جائز كتقدير الوجود وقيل هو تعطّل القوى عن أفعاله لبطلان آلتها وهي الحرارة الغريزية بالانطفاء. وقيل هو ترك النفس استعمال الجسد).

فالخلاصة أن بعضهم ذهب إلى أن الموت أمر وجودي، أي هو شيء موجود، وبعضهم ذهب إلى أنه شيء عدمي (عدم الحياة عن الحي). ومن ناحية ثانية بعضهم عرف الموت بأنه مفارقة (الروح) للبدن، وبعضهم عرفه بأنه زوال الحياة، وبعضهم عرفه بأنه زوال قوة الإحساس.

□

ثالثاً: اللفظان في كتب مفردات القرآن:

قال أبو هلال العسكري في الوجوه والنظائر:

والحياة في القرآن على ستة أوجه:

1. **الأول: تمييز الصورة ونفخ الرُّوح قال: (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ) أي: كنتم نطفا فميز صورتكم،** ونفخ فيكم الروح.
2. **الثاني: محي الحي بمعنى العاقل العارف، قال الله: (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا).**
3. **الحي بمعنى المهتدي، قال الله: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) أي: كافرا فهديناه.**
4. **الرابع: الحياة بمعنى البقاء، قال: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) يعني: أن من يعرف أنه إذا قتل اقتُصَّ منه كفَّ عن القتل فبقى.**
5. **الخامس: مثل قال الله: (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا). أي: من استنقذها من الضلال أو أغاثها من المكروه فإنه أحيا الناس جميعا.**
6. **السادس: الحياة بعد الموت، قال: (وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ).**

أ.هـ.

❖ ❖

وقال الراغب في المفردات في غريب القرآن:

الحياة تستعمل على أوجه:

١. الأوّل: للقوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حَيٌّ، قال عزّ وجلّ: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها} .

٢. الثانية: للقوّة الحسّاسة، وبه سمّي الحيوان حيوانا، قال عزّ وجلّ: وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ} .

٣. الثالثة: للقوّة العاملة العاقلة، كقوله تعالى: {أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ} .

٤. والرابعة: عبارة عن ارتفاع الغمّ، وبهذا النظر قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميّت الأحياء

وعلى هذا قوله عزّ وجلّ: {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} ، أي: هم متلذذون.

٥. والخامسة: الحياة الأخرويّة الأبديّة، وذلك يتوصّل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال الله تعالى: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ}، وقوله: {يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي} .

٦. والسادسة: الحياة التي يوصف بها الباري، فإنه إذا قيل فيه تعالى: هو حيّ، فمعناه: لا يصحّ عليه الموت، وليس ذلك إلّا لله عزّ وجلّ.

والحَيَوَانُ: مقرّ الحياة، ويقال على ضربين: أحدهما: ما له الحاسّة، والثاني: ما له البقاء الأبديّ، وهو المذكور في قوله عزّ وجلّ: {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ}، وقد نبّه بقوله: {لَهِيَ الْحَيَوانُ} أنّ الحيوان الحقيقيّ السّرمديّ الذي لا يفنى، لا ما يبقى مدّة ثم يفنى.

وقوله تعالى: {إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى}، فقد نبّه أنه سمّاه بذلك من حيث إنه لم تمته الذّنوب، كما أماتت كثيرا من ولد آدم صلّى الله عليه وسلم، لا أنه كان يعرف بذلك فقط فإنّ هذا قليل الفائدة.

وقوله: {تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، فَالتَّحِيَّة أن يقال: حيّاك الله، أي: جعل لك حياة، وذلك إخبار، ثم يجعل دعاء. ويقال: حَيَّا فلان فلانا تَحِيَّة إذا قال له ذلك، وأصل التّحيّة من الحياة، ثمّ جعل ذلك دعاء تحيّة، لكون جميعه غير خارج عن حصول الحياة، أو سبب حياة إمّا في الدّنيا، وأمّا في الآخرة، ومنه «التّحيّات لله».

أ.هـ.

❖ ❖

وقد جعل الراغب الموت أنواعا، بحسب أنواع الحياة: زوال القوة النامية (يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها)، وزوال القوة الحاسة (يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا)، وزوال القوّة العاقلة وهي الجهالة (إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى)، الرابع: الحزن المكدّر للحياة (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ). والخامس: المنام (وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها).

❖ ❖

وفي المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته:

أولا: ح ي ي:

- الثلاثي: (حَيّ يحيا حياة فهو حيٌّ، وهم أحياء):

حيّ: سرت فيه الروح فصار حيا. والحي ضد الميت. والحياة: وجود وبقاء. وحيوان: حياة باقية دائمة.

والحي: دائم الوجود باقٍ لا يموت، وهو الله.

- الرباعي: (أحيا يحيى، فهو محيي):

ثلاثة معاني: (١) أوجد الحياة، سواء في الدنيا أو الآخرة. (٢) استنقذ من الموت أو الهلاك (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)، (٣) هدى إلى الطريق الصواب (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ). (٤) أصلح (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ).

محيي: باعث الحياة في جميع الكائنات الحية.

- الرباعي: حيّا يحيي تحية:

حيّا: سلم أو قال: حياك الله، أي أطال عمرك.

❖ ❖

ثانياً: م و ت:

- الثلاثي: مات (يموت موتا، فهو ميت): فارق الحياة.

والموت: (١) النوم، (٢) فقدان الحياة وذهابها، (٣) يبس الأرض

وجدبها. (٤) الشهادة في سبيل الله.

والموتة: اسم مرة من الموت.

والميت (ج: أموات، وموتى، وميتون): (١) الكافر الضال. (٢) فاقد الحياة. (٣) يابس مجدب.

والميتة: جثة فاقدة الحياة بلا ذبح أو تذكية.

- الرباعي: أمات يميت إماتة، فهو مميت:

أمات: أفقد الحياة.

❖ ❖

وسأحقق دلالة الموت والحياة، والإماتة والإحياء بعد أن أبين أوجه استخدام اللفظين في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: استخدام لفظي الحياة والموت في القرآن الكريم

أولاً: الصيغ الواردة من اللفظ

أ. (ح ي):

١. الثلاثي: حيّ، يحيا حياة، فهو حي.

جاء الفعل: حيّ، يحيا: (وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ).

واسم الفاعل، مفرداً: حي، وجمعاً: أحياء. (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا)، (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)، (أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا).

والحي: الله سبحانه وتعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

والاسم من الثلاثي: حياة، حيوان، محيا (أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ)، (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)، (سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ).

٢. الرباعي: أحيا، يحيي، فهو محيي.

الفعل: (فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ).

اسم الفاعل: محيي، وهو الله (إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى).

كما جاء الرباعي: حيّا يحيي تحية.

❖ ❖

□

ب. (م و ت):

١. الثلاثي: مات، يموت موتا، فهو ميت

جاء الفعل: مات يموت مت: (أَفَإِنْ مَاتَ)، (يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ)، (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا).

واسم الفاعل: مفرداً (ميْت، ميّت): (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)، (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ). وجمعاً: أموات، وموتى، وميتون: (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا)، (يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى)، (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ).

واسم الفاعل المؤنث، وغلبت عليه الاسمية (ميْتة): (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ).

والاسم من الثلاثي: (الموت)، و(الممات)، و(الموْتة): (حَذَرَ الْمَوْتِ)، (وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ)، (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى).

٢. الرباعي: أمات، يميت، فهو مميت

جاء الفعل: أمات يميت: (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)، (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ).

❖ ❖

ثانياً: إسناد الألفاظ

تعددت أوجه إسناد الموت والحياة ومشتقاتهما، وسأبين ذلك فيما يلي:

(أ) المسند إلى الله سبحانه وتعالى:

جاء على سبعة أوجه:

الوجه الأول: وصف ذاته سبحانه وتعالى بأنه (الحي)، وورد أربع مرات: (الْحَيُّ الْقَيُّومُ) مرتين، و(هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)، و(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ).

الوجه الثاني: نفي الموت عنه سبحانه وتعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ).

الوجه الثالث: وصف فعله سبحانه وتعالى: (محيي)، قوله: (لَمُحْيِي الْمَوْتَى)، وورد مرتين مضافا إلى مفعوله (الموتى). ولم يرد الوصف: (مميت).

الوجه الرابع: إسناد الفعل مباشرة إلى الله: (أحيا، يحيي، أمات، يميت)، وجاء على ضربين:

- الضرب الأول: مجيئ الفعل مطلقا، دون مفعول: (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)، (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ).
- الضرب الثاني: وقوعه على مفعول، والمفاعيل هي:
  - البشر: (أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ)، وقوله: (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ).

- الموتى (كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى).
- العظام: (قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ).
- الأرض: (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)، وبلدة (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا).
- الميْت: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ).
- المؤمن: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

الوجه الخامس: مجيء الذات الحية أو الميتة مفعولا، ويقع عليها الفعل (أخرج)، والفاعل هو الله. في المفرد، كقوله تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)، وقال: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ).

الوجه السادس: مجيء (الموتى) جمعاً مفعولا، ووقع عليه الأفعال التالية:

- أخرج: كقوله: (كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى).
- بعث: كقوله: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ)، وقوله: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ)، أي: لا يبعث الموتى.
- أحيا: كقوله: (كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى).

وجاءت الذات (الحية) حالاً في قوله: (وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)، (لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا).

الوجه السابع: مجيء (الموت) مفعولاً، وتسند الأفعال الآتية إلى

الله:

- (خلق): (خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ).
- (قدّر)، قوله: (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ).
- (قضى)، كقوله: (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)، (فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ).
- ملك، وقد جاء الفعل منفيا عن الآلهة، وهذا يبين أنه مملوك لله: (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا).

وكذلك (الحياة) وقع عليها فعل:

- (خلق): (خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ).
- (أحيا)، وجاء مصدرا موصوفاً: (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً).

كما وقع فعل الإذاقة على (ضعف الحياة) و(ضعف الممات): (إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ).

كما وقع فعل القول قبل الأمر بالموت، في قوله: (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ)، ولم يرد الأمر بالموت غيره.

❖ ❖

(ب) إسناد الموت والحياة إلى الإنسان

وجاء ذلك على أحد عشر وجهاً:

الوجه الأول: أسند إلى عيسى فعل إحياء/إخراج الموتى (وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)، (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ). ولم يسند إلى غير عيسى عليه السلام. ولم يسند فعل الإماتة إليه.

الوجه الثاني: إسناد الإحياء إلى الإنسان، في مقابل فعل القتل، في قوله: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا). فالإحياء يعني: عدم القتل.

الوجه الثالث: إسناد فعل الإحياء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ).

الوجه الرابع: ادعاء الكافر أنه قادر على الإحياء والإماتة: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ).

الوجه الخامس: إسناد الحياة والموت إلى الإنسان. جاء الإحياء في قوله: (وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) فقط. وأسند الموت في مواضع كثيرة، كقوله: (وَفِيهَا تَمُوتُونَ). ومنه الإسناد بالإخبار للمستقبل، كقوله: (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ)، وقوله: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)، أو الإنباء للماضي: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ).

الوجه السادس: إسناد الموت إلى النفس، فتكون فاعلاً: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ)، (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)، (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ).

الوجه السابع: وصف الإنسان بالحياة أو الموت: (حي، وأحياء)، و(ميت، وأموات، وموتى، وميتون). وسأفصل القول فيها في الفقرة التالية.

الوجه الثامن: مجيء أفعال تبين موقف الإنسان من الموت، وهي:

- (فر): (فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ).
- (تمنى): (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ)، (فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ).
- (يذوق): (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى)، ومنه إضافة اسم الفاعل (ذائق)، كقوله: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ).
- (درأ): (قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ).
- (حذر): (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ).
- (يساق): (كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ).
- (الغشيان): (تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ)، (يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ).

الوجه التاسع: نفي الحياة والموت عن الإنسان الكافر، وهذه حالة أهل جهنم: (لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)، ونفى قضاء الموت عليهم: (لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا)، وقال: (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ

بِمَيِّتٍ).

الوجه العاشر: نفي الموت عن أهل الجنة: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ).

الوجه الحادي عشر: ادعاء الكافرين أنهم لا يموتون إلا موتة واحدة (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)، (إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ)، (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ).

▱

(ج) إسناد (حيّ) و(ميت) وجمعهما:

(حيّ)، جاء مسندا كالتالي:

- مفعولا به، أو في مقامه، والفاعل: الله، والفعل: أخرج: (وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ).
- صفة لـ(شيء)، في قوله: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ).
- حالا من الفعل (بعث): (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)، والفعل: (لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا).
- خبرا لـ(دام): (وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا).
- خبرا لـ(كان): (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ).

❖ ❖

(أحياء/أموات)، وجاء مسندا كالتالي:

- الإخبار عن حال القتلى في سبيل الله: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ)، (بَلْ أَحْيَاءٌ). ونفى عنهم أن يكونوا (أمواتا).
- وصف أصنام المشركين أنهم أموات غير أحياء: (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ).
- نفي المساواة بين الأحياء والأموات: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ).
- وقوعها مفعولا لـ(كفاتا): (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥)

أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا).

وكل هذه المواضع اقترن فيها (أحياء) و(أموات). وجاء لفظ (أموات) منفردا في قوله: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ). وهو يبين الحالة السابقة للمخاطبين.

❖ ❖

(ميْت / مَيْتة) مخففاً: جاء مسندا كالتالي:

- خبرا عن المؤمن: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا).
- حالاً، من (أخيه) على الراجح، في قوله: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا).
- وصفاً لـ(بلدة) في قوله: (بَلْدَةً مَيْتًا) ثلاث مرات. والأرض: (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ).
- وجاء لفظ (الْمَيْتة) وصفا للأنعام التي أباحها الله إذا ماتت دون تذكية شرعية، (حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ)، وقوله: (وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ).

❖ ❖

(ميّت) مشددا: جاء مسنداً كالتالي:

- وصفاً لـ(بلد): (سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ)، (فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ).

- الإخبار عن مصير الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ).
- الإخبار عن حالة الكافر في جهنم أنه ليس بميت: (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ).
- مفعولا به، أو في مقامه، والفاعل: الله، والفعل: أخرج: (وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ). (وقد سبق في: الحي).

❖ ❖

(أموات) سبق مع أحياء.

(الموتى)

- مفعولاً، للأفعال: أحيا، أخرج، بعث، المسندة إلى الله. (وقد سبق بيانه)، كقوله: (كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى)، (كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى)، (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ).
- مفعولاً، لفعل: (أخرج)، (أحيا)، والفاعل عيسى عليه السلام: (وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)، (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ).
- مفعولاً، للفعل: (تسمع) المسند إلى البشر، والخطاب لرسوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى).
- فاعلا، للفعل (كلم): (وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى)،
- نائب فاعل: (أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى).

❖ ❖

(ميتون):

جاء ثلاث مرات، كلها في الإخبار عن مصير الناس:

- الإخبار عن مصير الناس: (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ)، (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ).
- إخبار الكافرين عن موتتهم التي يصيرون إليها: (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ).

❖ ❖

(د) أوجه إسناد الموت:

(مجيؤه: فاعلاً):

وقد جاء (الموت) فاعلا، وأسندت إليه الأفعال التالية:

- حضر: (إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ).
- جاء: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ).
- يدرك: (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ).
- يأتي: (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ).
- ملاقي: (إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ).
- يتوفى: (فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ).

(الموت) مضافاً إليه:

(الموت) مضافاً إليه: أضيف إلى الموت الألفاظ التالية:

- مصيبة: (فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ).
- غمرات: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ).
- سكرة: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ).
- بعد: (وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ).
- ملك: (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ).

(الممات) مضافاً إليه: أضيف إلى الممات الألفاظ التالية:

- ضعف: (إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ).

(الموت) مضافاً إليه:

(الموت) مضافاً: وأضيف الموت إلى:

- عيسى (إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ).
- سليمان: (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ).
- أصحاب موسى (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ).
- الأنفس: (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا).
- الكافرين: (مَوْتَتُنَا الْأُولَى).
- الأرض: (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

(ممات) مضافاً: أضيف إلى:

- المؤمن: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).
- المؤمنين والمسيئين: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ).

(الموت) موصوفاً:

ووصف الموت بـ(الأولى): (الْمَوْتَةَ الْأُولَى)، (مَوْتَتُنَا الْأُولَى).

□

(هـ) أوجه إسناد الحياة:

(موصوفا):

الحياة وصفت بـ(الدنيا): (الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، وسأبين وجوه مجيء (الحياة الدنيا) في الفقرة التالية. وهنا أتناول المواضع التي لم توصف الحياة بـ(الدنيا)، وهي كالتالي:

(مفعولا):

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ).

(مجروراً بحرف: في)،

وجاءت في قوله: (قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ).

(مضاف إليه):

أضيف إليه لفظ (ضعف): (إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ).

(مضاف):

أضيف إلى ياء المتكلم في قوله: (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي).

(مجيؤها نكرة):

وجاءت نكرة:

- مخبراً عنها، في قوله: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ).

- مفعولا به، في قوله: (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا).

- في مقام المفعول، في قوله: (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ).
- مصدرا موصوفاً: (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً).

(هـ) أوجه مجيء الحياة الدنيا:

جاءت (الحياة الدنيا) على الوجوه التالية:

١. مبتدأ:

وخبرها ما يلي:

- متاع: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)، (إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ). وأخبر عن متاعها بقلته (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)، وأخبر بمتاعه عما أوتي الناس: (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، وقال: (وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).
- متاع الغرور: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)،
- لعب ولهو: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)،
- لهو ولعب: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ).
- لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ).

٢. فاعل:

ولم تأت إلا للفعل (غرّ). (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) ثلاث مرات،

والنهي: (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا).

٣. نائب فاعل:

ولم تأت إلا للفعل: (زين). (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا).

٤. مفعولا به،

والفاعل الإنسان، للأفعال التالية:

- اشترى: (اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ)،
- شرى، وهو عكس اشترى: (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ)، أي يبيعونها.
- يريد (يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)، (وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا).
- استحب: (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ). (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)
- يقضي: (إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا).
- آثر: (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)، (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا).

٥. في مقام المفعول به،

حيث يتعدى الفعل إليها بالحرف، ولم يأت من ذلك إلا حرف الباء، مع الأفعال:

- رضي: (أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ)، (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا)،
- فرح: (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا)،

- استمتع: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا).

٦. مجرورة بـ(في):

وما قبلها الألفاظ التالية:

- الخزي: (خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، (فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ)
- ذلة: (سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)،
- العذاب: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ).
- عذاب الخزي: (كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، (لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)
- السعي: (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا).
- توفية أعمال أهل الدنيا فيها: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ).
- البشرى: (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)،
- القول الثابت: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).
- نصرة الرسل والمؤمنين: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ).

- ولاية الله لهم: (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ).
- قسمة المعيشة: (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ).
- النعم: (رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)،
- الترف: (وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)
- قوله: (يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)،
- الإنفاق: (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)،
- الجدال عنهم: (جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)،
- زينة الله: (قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)،
- مداهنة المشركين: (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

٧. مجرورة بـ(من):

في قوله: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

٨. مضافاً إليه،

وأضيف إليه الألفاظ التالية:

- متاع (مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)،

- عَرَض (تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)،
- مَثَل: (مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)،
- زينة: (زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)،
- زهرة: (زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

٩. مضافاً،

وجاءت في قول الكافرين، يتحدثون عن أنفسهم: (حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) ثلاث مرات، ولذلك لم يضفها القرآن الكريم إلا إليهم، فالله يخاطبهم يوم القيامة: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا).

ووجه الإضافة أن الكافرين ليس لهم إلا حياتهم الدنيا، وليس لهم حياة أخرى، فهم في جهنم لا يموتون ولا يحيون. أما أهل الجنة فإن الله يوفي لهم الحياة الكاملة في الجنة. فلم تضف إليهم أبداً.

كما أضيفت الحياة دون وصفها بالدنيا في قوله: (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)، والقول قول الكافر حين يدركه الندم، ولأنه تعوّد في الدنيا أن يضيف الحياة إليه (حياتنا الدنيا)، فكذلك يوم القيامة سيضيفها إليه.

□

ثالثاً: تسميات الإحياء والإماتة والإعادة في القرآن:

القرآن الكريم يطلق على خلق الحياة في الشيء المخلوق أول مرة: الإحياء، كقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ).

أما خلق الحياة في الشيء المخلوق بعد موته، فيطلق عليه: الإحياء، كقوله (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى)، والبعث: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ)، والإخراج: (كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، ولذلك سمي يوم القيامة: الآخرة، ويوم البعث، ويوم الخروج. أما الإنشار: (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ)، وقال: (فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا)، ويوم النشور، فهو إعادة خلق الموتى. وسأبين الفروق بينها لاحقا.

وأما خلق الموت في الحي (إماتة الحي)، فيسميه: إماتة (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ)، ويصح نسبة الفعل إلى الميت، فتقول: مات، قال تعالى: (أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ)، وقال (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا). كما يستخدم القرآن التركيب: قضى اللهُ (عليه) الموتَ، كما في قوله: (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ)، و(فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ)، وقال عن أهل جهنم: (لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا)، أي: لا يقضي عليهم الموتَ. كذلك التركيب: قال الله له مت، كما في قوله: (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا)، وهذا يفسر قوله تعالى: (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، فإذا قضى الموتَ على أحد قال له: كن ميتا فيكون.

المطلب الثالث: (توفى)، (أخرج)، (أنشر)، (بعث)، (رجع)، (أعاد)

هذا المطلب دراسة معجمية لهذه الألفاظ، أما الدراسة الموضوعية فستكون في الجزء الثاني.

(١) خلق وأعاد:

تحدثت عن الخلق والإعادة في بحث: أفعال الخلق في القرآن الكريم. وخلاصة ما ذكرته أن:

الخلق: الإنشاء الأول للشيء، في طَورٍ ما.

والإعادة: الإنشاء الثاني لأول خلق.

وأول خلق: هو خلق الأصل لا النسل، والإعادة تكون مثل خلق الأصل، لا النسل.

ومن ثم فـ(أعاد) يقابل: (خلق)، وإعادة الخلق تعني إنشاؤه نشأة أخرى، أما الخلق فهي نشأته الأولى.

(٢) أمات وأحيا:

خلاصة دلالة الإماتة والإحياء:

الإماتة: ***إمساك النفس إمساكاً تاما عن الجسم الحي.***

الإحياء: **إرسال النفس إلى الجسم الميت.** (وهو يشمل الموت الأول أو الموت الثاني). والإحياء لا يكون إلا بعد خلق الشيء.

يتبين لنا بتدبر القرآن الكريم أن ترتيب الخلق كما يلي:

أولا: يخلق الله الشيء.

ثانياً: يخلق الموتَ في الشيء المخلوق.

ثالثاً: يخلق الحياة في الشيء الميت. فالإحياء لا يكون إلا بعد خلق الشيء ثم خلق الموت فيه.

وتعريف الإماتة: (خلق الموت في شيء مخلوق غيرِ حي، أو حي)، يبين أن الإماتة تخلق أولا في الشيء المخلوق غير الحي. كما يخلقها الله بعد ذلك في الشيء الحي. فالأصل في المخلوقات الموت، والحياة عارضة فيها. أما الله سبحانه وتعالى فهو الحي الذي لا يموت.

❖ ❖

(٣) توفي

لغة واصطلاحا:

قال ابن فارس: (وفى: الواو والفاء والحرف المعتل: كلمة تدل على إكمال وإتمام. منه الوفاء: إتمام العهد وإكمال الشرط. ووفى: أوفى، فهو وفي. ويقولون: أوفيتك الشيء، إذا قضيته إياه وافيا. وتوفيت الشيء واستوفيته ؛ [إذا أخذته كله] حتى لم تترك منه شيئا. ومنه يقال للميت: توفاه الله.).

وقال الراغب: (الوَافِي: الذي بلغ التّمام. يقال: درهم وَافٍ... وقد عبّر عن الموت والنوم بالتَّوَفِّي).

وفي لسان العرب: (وتَوَفَّاه هُوَ مِنْهُ واسْتَوْفاه: لَمْ يَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا. وَيُقَالُ أَوْفَيْته حَقَّه ووَفَّيته أَجْره. ووفَّى الكيلَ وأَوفاه: أَتَمَّه... والوَفاةُ: المَنِيَّةُ. والوفاةُ: الْمَوْتُ. وتُوُفِّيَ فُلَانٌ وتَوَفَّاه اللَّهُ إِذَا قَبَضَ نَفْسَه، وَفِي الصِّحَاحِ: إِذَا قَبَضَ رُوحَه، وَقَالَ غَيْرُهُ: تَوَفِّي الميتِ اسْتِيفاء مُدَّتِه الَّتِي وُفِيتْ لَهُ وعَدَد أَيامِه وشُهوره وأَعْوامه فِي الدُّنْيَا. وتَوَفَّيْتُ المالَ مِنْهُ واسْتَوْفَيته إِذَا أَخذته كُلَّهُ).

❖ ❖

التحقيق في دلالة اللفظ:

التُّوُفِّي: إمساك النفوس.

يدل (التوفي) على إمساك النفوس، بصريح آية الزمر: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، فالتوفي هو إمساك النفوس، والبعث هو إرسال النفوس.

ودلالة (و ف ى)، كما في مقاييس اللغة: الإكمال والإتمام، ومنه الوفاء: إتمام العهد وإكمال الشرط، فهو وفيٌّ، وأوفيتك الشيءَ: إذا قضيته إياه وافيا (تاما كاملا)، واستوفيت الشيء: إذا أخذته كله تاما كاملا، حتى لم تترك منه شيئا، ومنه قوله: (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)، أي: يأخذون حقهم من الناس كاملا، وينقصون الناسَ حقوقهم. وقال تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)، أي: تأخذ حقها كاملا تاما.

وهي الدلالة نفسها بالنسبة للتوفي: إمساك النفوس، حيث إن حالة إمساك النفوس، كحالة أخذ الشيء كاملا تاما، وفي هذا دلالة على أن النفوس هي ملك الله، فالله أودعها في المخلوق الحي، فهي وديعة، وحين يمسكها فإنه يستوفي حقه كاملا تاما. إذن فالتوفي لا يدل على الموت، ولكنه يدل على إمساك النفوس.

وسأبين في الدراسة الموضوعية انطباق هذه الدلالة على كل استخدامات اللفظ.

❖ ❖

(٤) أخرج:

وهذا اللفظ حققت دلالاته في بحث: أفعال الخلق في القرآن الكريم، وفي بحث: الظلمات والنور.

وسأبين في الدراسة الموضوعية من بحث الإحياء والإماتة، دلالته على الإعادة، وهو يدل على:

إخراج الموتى من الأرض، ثم إنشارهم وذلك بإنباتهم بالماء.

❖ ❖

(٥) أنشر:

دلالة النشر في اللغة [كما في اللسان وتاج العروس]: البسط بعد الطي (ومنه: نشرت الصحيفة)، والظهور بعد الخفاء (ومنه: نشرت الخبر، أو نشرت فضيلتك)، والتفرق (تقول العرب: جاءَ الجيشُ نَشَراً، أَي مُتَفَرِّقِين، ومنه الانتشار: التفرق)، وبدء النبات في الأرض بعد أن يصيبه مطر.

وبالنظر في هذه المعاني نجد أنها كلها مقصودة بالإنشار، فهي تبين: كيفية بدء خروجهم من الأرض، وهيئتهم عند خروجهم. وهي تتعلق بإعادة الخلق لا بالإحياء، فمرحلة الخلق أولاً.

فالإنشار: إعادة خلق الموتى، بإنباتهم بالماء. وذلك بعد أن يُخرجون من الأرض، فالإنشار يبين طريقة إخراجهم.

(٦) بعث:

قال ابن فارس: (الباء والعين والثاء أصل واحد، وهو الإثارة. ويقال: بعثت الناقة: إذا أثرتها).

قال الراغب: (أصل البَعْث: إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بَعَثْتُهُ فَانْبَعَثَ، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علّق به، فَبَعَثْتُ البعير: أثرته وسيّرته، وقوله عزّ وجل: {وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ}، أي: يخرجهم ويسيرهم إلى القيامة).

وفي لسان العرب: (بعث: بعثه يبعثه بعثا: أرسله وحده، وبعث به: أرسله مع غيره. وابتعثه أيضا أي أرسله فانبعث... والبعْث: الرسول، والبعْث: بعث الجند إلى الغزو... والبعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما الإرسال، كقوله تعالى: { ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى} ؛ معناه أرسلنا. والبعث: إثارة بارك أو قاعد، تقول: بعثت البعير فانبعث أي أثرته فثار).

❖ ❖

والتحقيق في دلالته – كما أشرت:

البعث هو المقابل للتوفي، فالتوفي هو إمساك النفوس من أجسادها، والبعث هو إرسال النفوس إلى أجسادها. فالبعث في اللغة هو الإرسال، وهذا المعنى ينطبق على كافة استخدامات اللفظ.

وإرسال الشيء: هو التوجيه المقصود للشيء، فالمرسل يوجه رسالته إلى المرسَل إليه، فهو يقصد الرسالة ويقصد المرسل إليه.

(٧) رجع:

التحقيق أن مطلق دلالة الرَّجْع، فهي: إعادة الشيء إلى ما كان منه البدء.

والرّجْع الدال على البعث: هو إعادة خلق الشيء مما خلق منه أول مرة.

وقد جاء الفعل (رجع) لازما ومتعديا:

(رجع) اللازم. (رَجع يَرْجِع رُجوعا) يكون بمعنى: العود مما كان منه البَدْء [كما في مفردات غريب القرآن]، وليس من الدقيق إطلاق دلالة الانصراف عليه، إنما هو العودة إلى نقطة البدء، وهذا ما يدل عليه استخدام اللفظ في اللغة العربية. وهو فعل لازم، تقول: رجع محمد إلى داره، فداره انطلق منها ثم عاد إليها، وكونه لازما يعني أنه فاعل الرجوع. قال تعالى: (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ)،

(رجع) المتعدي. (رجَع يَرْجِع رَجْعاً ومَرْجِعاً) متعديا، بمعنى: أرجعتُه إلى حيث كان البدء، فهو يدل على الإعادة، والإعادة أن ترد الشيء إلى حيث كان البدء. قال تعالى: (فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ).

□

المبحث الثاني: الألفاظ ذات الصلة

المطلب الأول: الألفاظ ذات الصلة بالموت والهلاك

هناك مجموعة من الألفاظ ذات الصلة بـ(الموت) و(الحياة)، ويساعد فهمها على إدراك مفهوم الموت والحياة. سأتناول كلا منهما في مطلب. هذا المطلب أخصصه للألفاظ ذات الصلة بالموت.

(١) هلك:

الهلاك: فناء الشيء المخلوق أو استئصاله.

فناء واستئصال:

الدلالة المميزة في تعريف (الهلاك) أنه فناء، فهو يستخدم حيث يكون المراد: أن الشيء فني فناء تاما، أو استأصله غيره فلم يبق له أثر. فالشيء الهالك: هو الشيء الفاني. وأهلكهم الله: استأصلهم.

قال تعالى: (إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ)، فقد فني المرء؛ إذ لا ولد له، فلم يقل: (مات) بل: (هلك). وقال: (وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ)، أي يستأصله، ولذلك استخدم لفظ: (النسل)، للدلالة على أن الإهلاك استئصال. وقال: (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ)، أي: يستأصلهم ويبقيكم من بعدهم.

ولدلالته على الاستئصال فقد جاء في قوله: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)، أي:

يفنيهم جميعا، ولا يبقى لهم أثر. فكيف يقولون أن أحد البشر إلها، ولو شاء الله لأهلكهم جميعاً.

ويقابل الهلاك: البقاء. ويدل على أن الهلاك فناء قوله تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)، مع قوله: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ)، والفناء يغلب إطلاقه على الأشياء ذوات النفوس الحية، أما الهلاك فيعم كل شيء مخلوق.

وبعد أن قال: (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)، فذكر إهلاكهم، أي استئصالهم وإذهاب كل أثر لهم، قال: (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)، أي: لم يعد لهم من بقاء ولا أثر.

وقوله عن يوسف: (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا). ففيه دليل على امّحاء آثار يوسف واندثارها، وأن أحدا لم يكن يعرف شيئا عن يوسف إلا قليل[1]، ولذلك أخرج الحاكم وابن حبان وأبو يعل، وصححه الألباني، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(إن موسى عليه السلام لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلوا

[1] انظر في ذلك: من أسماء الموت في القرآن الكريم – دراسة دلالية، د. فخري سليمان. وقال البقاعي: (وكأنه عبر بالهلاك إيهاماً لهم أنه غير معظم له، وأنه إنما يقول ما يشعر بالتعظيم لأجل محض النصيحة والنظر في العاقبة)، فاللفظ استخدمه مؤمن آل فرعون.

الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا، قال: فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا: عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها فأتته، فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه أن أعطها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ماء، فقالت: أنضبوا هذا الماء، فأنضبوه، فقالت: احتفروا، فاحتفروا فاستخرجوا عظام يوسف، فلما أقلوها إلى الأرض، وإذا الطريق مثل ضوء النهار).

والشيء المخلوق:

الهلاك هو فناء الشيء المخلوق، أيا كان الشيء نفساً أم غيرها. قال تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)، أي: كل شيء خلقه الله.

ومن هلاك غير النفس: الحرث: (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ)، والسلطان: (هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ)، المال: (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا)، والنسل: (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ).

ومن هلاك الأقوام عقوبة من الله: (فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ)، (فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ)، (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ).

الفاعل:

وفعل (الإهلاك) لم يسند غالباً إلا إلى الله فاعلاً له. وهو يأتي في سياق العقوبة والانتقام الإلهي، ولذلك يقابل رحمة الله: (أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا).

وقد أسند إلى غير الله، في وصف فعل الإنسان الفاسد، سواء فعله بنفسه: (وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ)، أو بغيره: (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ)، (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا).

وأسند إلى الريح (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ)، فالريح نفذت عقوبة ربها، فأهلكت حرث قوم ظلموا.

وأسنده الكافرون إلى الدهر: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ).

والخلاصة أن المسند إلى الله يفيد إيقاع الهلاك على وجه العقوبة، والمسند إلى البشر يفيد إيقاع الهلاك على وجه الفساد. وكل ذلك بمعنى: استئصال الشيء.

❖ ❖

إذن الهلاك: فناء الشيء المخلوق من أصله، أيا كان الشيء، وأيا كان السبب. (والإهلاك) هو القيام بإفناء الشيء من أصله، ويسمى ذلك: الاستئصال.

❖ ❖

(٢) أذهب:

أما (أذهب) فالقرآن الكريم يستخدمها للدلالة على قدرة الله الممكنة في إفناء الشيء. بخلاف (الإهلاك) فيستخدم للدلالة على قدرة المتحققة في إهلاك الشيء. (كإهلاك قوم نوح، أو عاد...).

قال تعالى: (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ)، وقال: (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)، وقال: (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ). فكل هذا لم يتحقق، ولكن الله سبحانه وتعالى يخبرنا بقدرته الممكنة، أن لو شاء لفعل ذلك، فيفني الناس ويأتي بخلق جديد، أي خلق مختلف عن الناس.

وفي قوله: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)، فهو يبين قدرته الممكنة، فلو شاء لأذهب الماء من الأرض، فلا يبقى للماء أثر في الأرض، وتكون الأرض كوكبا خاليا من الماء، ومن ثم تخلو من الحياة.

وقوله عن محمد صلى الله عليه وسلم: (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ)[٢]، كقوله عيسى عليه السلام: (إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا). فمعنى الآية: لو ذهبنا بك، وأفنيناك يا محمد، أفيظن الكافرون أنهم سيسلمون من انتقامنا؟! فذهابك لن يغنيهم شيئاً، ولن يحميهم من العقوبة. كما قال: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ

---

[٢] والمفسرون فسروا الذهاب به هنا ، أنه الموت. والتحقيق ما ذكرته. والله أعلم.

عَذَابٍ أَلِيمٍ). وهو يفسر قوله: (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً)، فقوله: (أراد بكم سوءا)، أي: أراد أن يهلككم، فيأخذكم بعقوبة.

وكذلك قوله: (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)، أي نذهب بما آتيناك من الوحي، فلا يبقى منه في صدور الناس شيء، وهو كقوله: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ). قال البيضاوي: (إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من المصاحف والصدور)، وأورد ابن كثير في تفسيره قول ابن مسعود، رضي الله عنه: يطرق الناس ريح حمراء -يعني في آخر الزمان- من قبل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية، ثم قرأ الآية.

❖ ❖

(٣) زهق:

قال تعالى: (وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ). قال ابن عاشور: (الزهوق: الخروج بشدة وضيق). فزهوق النفس: هو خروج النفس من الجسد، والزهوق في اللغة: خروج الشيء من محله الذي ضاق عنه بشدة، نحو: زهَق السهمُ، أي: خرج من الرمية، وزهَق الفرسُ، إذا خرج من بين الخيول وسبقها.

فزهوق النفس، خروجها من محلها (الجسد)، بشدة، وهو يبين أن النفس حين تزهق تصبح شيئا لا يطيقه الجسد ولا يتحمله، فيضيق عنها، ولذلك يعاني الميت من سكرات الموت، وهو الشدة التي

تخرج بها النفس من الجسد. كما لو أخرجت شيئا كبيرا من داخل علبة ضيقة العنق، فستنزعها بشدة.

❖ ❖

(٤) القتل:

والقتل هو: إزهاق النفس بفعل الإنسان، بآلة تسيل الدم.

سواء أزهق الإنسان نفسه (فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)، أو أزهق نفس غيره: (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ). وسواء كان المقتول إنسانا أو حيوانا (لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ).

وسواء فعل ذلك عمداً أم خطأ: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً)، (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ).

ويقع القتل على النفس: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)، (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا)، (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ).

ويفرق القرآن الكريم بين الموت والقتل: (أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ)، (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ)، (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ)، (إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ).

(بآلة تسيل الدم):

وذكرت (بآلة تسيل الدم)؛ لأن القرآن الكريم يفرق بين إزهاق النفس بآلة تسيل الدم وبين إزهاق النفس بغيرها، كالصلب، والحرق، والغرق، والخنق، والتردي. قال تعالى: (وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ). وفرق بين القتل والصلب: (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا

صَلَبُوهُ). وفرق بين القتل والإحراق: (قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ).

وإذا كان إزهاق النفس عن طريق قطع البلعوم، فإن هذا يسمى ذبحا، كما سيأتي، ويسمى قتلاً أيضاً، قال تعالى عن قوم فرعون: (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ)، وقال: (يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ)، فسماه قتلا وذبحا، فهما وإن اشتركا في الطريقة (إسالة الدم بقطع البلعوم)، إلا أن التسمية تختلف فهو يسمى ذبحاً؛ لأن فاعله يقصد به التقرب، وهو يسمى قتلاً؛ لأنه أزهق النفس بإسالة الدم.

وقوله: (فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ)، يبين موضع القتل وأداته، فأداته: السيف، وموضعه: الضرب فوق العنق، بحيث يقطعه قطعا، فهو خلاف الذبح الذي يكون بقطع البلعوم، لا الضرب فوق العنق.

❖ ❖

وقابل بين القتل والإحياء (بمعنى: عدم القتل): (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا).

والقرآن الكريم يسمي القتيل في سبيل الله: قتيلاً، لا شهيدا: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ).

وقد جعل الله القصاص في القتل (بغير الحق): (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى). (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ).

والقتال والمقاتلة: نية كل طرف إزهاق نفس الطرف الآخر. (وَلَا

تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ).

❖ ❖

الفاعل:

وكل أفعال القتل في القرآن الكريم أسندت إلى الإنسان بوصفه فاعلاً لها، إلا قوله: (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى)، فأسند القتل إلى الله.

وكذلك المقاتلة، كلها مسندة إلى الإنسان فاعلا، وأسندت إلى الله في قوله: (قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ).

وجاء القتل مبنيا للمجهول بمعنى اللعن: (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)، (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ)...

وذكرت أن فاعل القتل هو الإنسان، أما لو أزهق النفسَ حيوانٌ، فلا يقال للحيوان: قاتل، بل يقال له: مفترس، أو آكل: (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ)، (وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ)، وقد يزهق الحيوان نفسا بالنطح (وَالنَّطِيحَةُ).

❖ ❖

(٥) الذبح:

وأما الذبح فهو: إزهاق نفس الحيوان بقطع بلعومه.

قال تعالى: (تَذْبَحُوا بَقَرَةً)،

وغالباً ما يقترن الذبح بتقرب الإنسان، سواء لله، أو لغيره: (وَمَا

ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ). وذبح الإنسان للأنعام بغية أكلها، إذا كان بالطريقة الشرعية (قطع البلعوم) فهو تقرب إلى الله إذا ذكر اسم الله عليه. وإن كان بغير قطع البلعوم فلا يسمى ذبحا.

ولا يأتي في قتل الإنسان إلا إذا أفاد معنى التقرب، كقول إبراهيم: (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)، فهو رأى رؤيا وفسرها أنه أمر بالتقرب إلى ربه بذبح ولده. وفي قوله: (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ)، فهم كانوا يتقربون إلى فرعون الذي ادعى أنه إلههم، بتنفيذ أوامره في ذبح بني إسرائيل. وهكذا فلا يستخدم لفظ (الذبح) في الإنسان، إلا إذا كان الذابح يبتغي بذلك التقرب.

❖ ❖

وقريب منه: النحر، وهو إزهاق نفس الحيوان بنحر بلعومه، لا قطعه. قال تعالى: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ).

❖ ❖

وقوله: (وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ).

قال البيضاوي: ({الْمَيْتَةُ}: ما فارقه الروح من غير تذكية. {وَالْمُنْخَنِقَةُ}: أي التي ماتت بالخنق. {وَالْمَوْقُوذَةُ}: المضروبة بنحو خشب، أو حجر حتى تموت من وقذته إذا ضربته. {وَالْمُتَرَدِّيَةُ}: التي تردت من علو أو في بئر فماتت. {وَالنَّطِيحَةُ}: التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح).

❖ ❖

(٦) الغرق:

الغرق لغة: كما قال في المفردات: (الرّسوب في الماء وفي البلاء، تقول: غرق في الدّين، وأغرقته النعمة من باب المجاز). وفي مقاييس اللغة: (يدل على انتهاء في شيء يبلغ أقصاه. من ذلك الغرق في الماء).

واصطلاحا: هو زهوق النفس، بسبب الماء.

وقد أسند إلى الله فاعلاً، كقوله: (وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ)، وهو الغالب، وأسند إلى البشر إذا تسبب فيه، (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا).

ولم يستخدم القرآن الكريم إلا الفعل الرباعي: (أغرق)، فثمة فاعل أغرق غيره، سواء كان الفاعل الله، أم الإنسان.

واستخدم بدلاً من (غرق) لفظ: أدركه الغرق: (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ).

❖ ❖

(٧) الحرق:

وأما الحرق، فهو زهوق النفس بسبب النار، قال تعالى: (اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ)، وقال: (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ).

❖ ❖

(٨) الصعق:

وأما الصعْق فهو: زهوق النفس بسبب قوة مدمرة مفاجئة لا تحتملها النفس. كقوة الصوت، أو النور، أو غيرها من القوى المبثوثة في السماوات والأرض.

ومن ذلك قوة الصوت: قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)، ومنه قوة النور: قال تعالى: (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا).

ولشدة الصعقة، فإنها تزهق النفس سريعا، ومن يراها يظن أنها لا زالت حية، (فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ).

وقال تعالى: (فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)، فأما ثمود مثلما بين القرآن أنهم أهلكوا بالصيحة، فالصاعقة هنا قوة الصوت الشديد. وأما عاد فأهلكوا بالريح: (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ). وهذا يبين أن الريح التي أهلكت عاداً، كانت ريحا شديدة، مصحوبة بقوة طاغية، ولذلك سماها صاعقة.

فالصاعقة إذن ليست قوة الصوت، بل أي قوة مدمرة مفاجئة تنتج عن القوى المبثوثة في السماوات والأرض، كقوة الصوت، أو قوة النور، أو قوة الكهرباء...إلخ.

❖ ❖

ويأتي لفظ (أخذ) عادة مع (الصاعقة) أو (الصيحة) أو

(الرجفة). كقوله: (فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)، فهو لم يقل: فصعقوا، بل قال: أخذتهم الصاعقة. ولفظ (الأخذ) يدل على الشدة والمباغتة للمأخوذ.

❖ ❖

(٩) الأجل:

قال الراغب: (الأجل: المدة المضروبة للشيء)،

فكل شيء خلقه الله جعل له أجلاً، سواء إنسانا، أم غيره. قال تعالى: (كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، وقال: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا).

وبلوغ الأجل: أن يستوفي الإنسان أجله المقدر له، فهو يمضي حتى يصل إلى الأجل المؤجل له، فيقضي الله أجلَه: (وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا)، وقال: (وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى)، (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا).

❖ ❖

(١٠) بدّل وغيّر:

قال الراغب: (التبديل والاستبدال: جعل شيء مكان شيء آخر)، والتحقيق أن يقال: التبديل إحلال شيء مكان آخر.

فالشيء الأول يذهب، والشيء الثاني يحل محله.

قال تعالى: (إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ)، أي: نفنيهم ونجعل غيرهم مكانهم. وهو كقوله: (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ).

وقوله: (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا)، هذا يتحقق يوم القيامة، والمعنى: بعد أن تفنى أجسادهم في الدنيا، سنأتيهم بأمثالها.

وقوله: (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)، أي يذهب سيئاتهم ويجعل مكانها حسنات، فالله بدل سيئاتنا حسنات.

وقال: (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)، أي: لا أحد يمكنه أن يفني كلمات الله وأمره، ويأتي ببدل منها.

وقال: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ)، فالأرض والسماوات الحالية ستفنى، ويأتي الله بأمثالها، كما تفنى أجساد الأحياء ويأتي الله بأمثالها.

❖ ❖

أما التغيير، فقال الراغب: (والتَّغْيِيرُ يقال على وجهين: أحدهما: لتغيير صورة الشيء دون ذاته. يقال: غَيَّرْتُ داري: إذا بنيتها بناء غير الذي كان. والثاني: لتبديله بغيره. نحو: غَيَّرْتُ غلامي ودابّتي: إذا أبدلتهما بغيرهما).

والتحقيق أن التغيير يقال للوجه الأول الذي ذكره. فالتبديل إحلال شيء مكان آخر. أما التغيير فليس إحلال شيء مكان آخر،

ولكن تغيير في صورة الشيء نفسه.

ولذلك قال الشيطان: (وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ)، أي: آمر الناس فيغيرون خلق الله، فهم يغيرون صورة الخلق، ولكنهم لا يستطيعون تبديل الخلق، فالله يقول: (لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ)، (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ). فالناس يمكنهم أن يغيروا خلق الله، ولا يمكنهم أن يبدلوه.

❖ ❖

(١١) زوال:

زوال الشيء تغير حالته.

فالتغير لصورة الشيء مع بقاء ذاته، قد يتغير مكانه أو زمانه أو صفته... كما في قوله: (إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ). وقال: (وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)، ومنه زوال الشمس، أي تغير مكانها من الشرق إلى الغرب.

وقال تعالى: (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)، قال ابن عاشور: (والزوال: الانتقال من المكان. وأريد به هنا الزوال من القبور إلى الحساب)، وهو كقوله: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ).

❖ ❖

(١٢) دمّر/ قصم:

وفي مقاييس اللغة: ((دمر) الدال والميم والراء أصل واحد يدل على الدخول في البيت وغيره. يقال دَمَر الرجلُ بيتَه، إذا دخله. وخصه بعضهم بالدخول بغير إذن). قال الراغب: (التدمير: إدخال الهلاك على الشيء).

ووقع فعل الدمار في القرآن على الأقوام: (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا)، وعلى الأشياء التي يصنعها الناس: (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ). فالدمار بمعنى الإهلاك. ولكن الدمار لا يفيد معنى الإفناء والاستئصال، بل هو يشترك مع الإهلاك في كونه يقع عقوبة وانتقاما.

❖ ❖

ولفظ (الإهلاك) المسند إلى الله، لم يأت مفعوله إلا مبهما: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ)، (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا)، (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)، (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)...

ولم يقع على قوم معرفين إلا : عاد وثمود: (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى)، وقال: (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ). وفي الموضعين ذكر أنه أهلكهم فلم يبق منهم شيئاً.

❖ ❖

(قصم):

قال ابن فارس: ((قصم) القاف والصاد والميم أصل صحيح يدل على الكسر. يقال: قَصَمْتُ الشَّيْءَ قَصْمًا. وَالْقُصَمُ: الرجل يَحْطِمُ ما لقي. وقال الله تعالى: { وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً} أراد - والله أعلم - إهلاكه إياهم، فعبر عنه بالكسر).

قال الراغب: ({وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً} أي: حطمناها وهشمناها، وذلك عبارة عن الهلاك، ويسمّى الهلاك قَاصِمَةَ الظّهر).

□

المطلب الثاني: الألفاظ ذات الصلة بالحياة

هذا المطلب أخصصه للألفاظ ذات الصلة بالحياة.

(١) الخلد:

أ. الدلالة اللغوية والمصطلحية:

في مقاييس اللغة: (خلد) الخاء واللام والدال أصل واحد يدل على الثبات والملازمة، فيقال: خلد: أقام، وأخلد أيضا. ومنه جنة الخلد).

وقال الراغب: (الخُلُود: هو تبرّي الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكلّ ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود، كقولهم للأثافي: خوالد، وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها... والخُلُودُ في الجنّة: بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها).

وقال العسكري في الفروق اللغوية مبينا الفرق بين الدوام والخلود: (الدوام هو استمرار البقاء في جميع الأوقات، ولا يقتضي أن يكون في وقت دون وقت، ألا ترى أنه يقال إن الله لم يزل دائما، والخلود هو استمرار البقاء من وقت مبتدإ، ولهذا لا يقال: إن الله خالد كما إنه دائم).

وسأبين التحقيق في دلالته بعد بيان استخدام القرآن الكريم للفظ.

❖ ❖

ب. استخدام القرآن الكريم للفظ:

وبالنظر في استخدام القرآن الكريم للفظ، فيتبين لنا استخدامه على النحو التالي:

(خلود أهل الجنة وأهل النار):

وصف أهل الجنة بأنهم خالدون (٣٨ مرة)، ووصف أهل النار بأنهم خالدون (٣٣ مرة).

وجمع بين لفظي (الخلود) و(أبدا)، سواء لأهل الجنة كقوله: (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ)، أو لأهل النار: (إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا).

كما جمع بين لفظي (الخلود) واستثناء المشيئة، لأهل الجنة مرة، ولأهل النار مرتين: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)، وقال: (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ).

كما جاء الفعل (يخلد) في قوله: (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا). وأيضاً وصف ولدان الجنة بأنهم مخلدون (وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ).

(الإضافة إلى الخلد):

أضيف إلى الخلد الألفاظ التالية: **عذاب** (ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ)،

وشجرة (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ)، **وجنة** (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ)، **ودار** مقصودا بها جهنم (ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ)، **ويوم** مقصودا به يوم أهل الجنة، وأضافه إلى: الخلود (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ).

وكل هذه الألفاظ يقصد بها الخلد في الدار الآخرة، باستثناء (شجرة الخلد)، فقد كانت في الدنيا.

(الخلد في الدنيا):

جاء الحديث عنه بأن الله لم يجعل الخلد لبشر، بل كل نفس ستذوق الموت، ومن ثم فالموت ينافي الخلود (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ).

كما نفى صفة الخلود عن المرسلين: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ).

قال البيضاوي في تفسير الآية: ({وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ} تأكيد وتقرير له فإن التعيش بالطعام من توابع التحليل المؤدي إلى الفناء).

وقال أبو السعود: (والمعنى جعلناهم أجسادا متغذية صائرة إلى الموت بالآخرة على حسب آجالهم، لا ملائكة، ولا أجسادا مستغنية عن الأغذية مصونة عن التحلل كالملائكة، فلم يكن لها خلود كخلودهم).

وقال ابن عاشور: (الجسد: الجسم الذي لا حياة فيه، وهو يرادف

الجثة... أي ما جعلناهم أجراما غير منبثة فيها الأرواح بحيث تنتفي عنهم صفات البشر التي خاصتها أكل الطعام... وذكر الجسد يفيد التهكم بالمشركين لأنهم لما قالوا {مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ}، وسألوا أن يأتي بما أرسل به الأولون كان مقتضى أقوالهم أن الرسل الأولين كانوا في صور الآدميين لكنهم لا يأكلون الطعام وأكل الطعام من لوازم الحياة، فلزمهم لما قالوا {مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ} أن يكونوا قائلين بأن شأن الرسل أن يكونوا أجسادا بلا أرواح، وهذا من السخافة بمكانة).

(الرغبة في الخلد في الدنيا):

وبين القرآن الكريم أن الكافرين يرغبون في الخلد في الدنيا، ويتوهمون ذلك، كما قال عن عاد: (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)، وقال عن من جمع المال: (الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ).

وعليه يفسر قوله تعالى: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)، فهذا الرجل فعل فِعْل من يرغب في الخلود، أو يحسب أنه خالد. فهو رجل آتاه الله من آياته، ورفعه بها، وكان مقتضى ذلك أن ينتفع بها وتكون طريقه إلى جنة الخلد حيث يكون خالدا فيها. ولكنه رغب عن هذا الخلود، فأعرض عن آيات ربه، وبدلا من أن يرتفع إلى جنة الخلد إذا به ينتكس فيخلد في الأرض. ولكن الأرض لا خلود فيها، ومن ثم فقد أخطأ طلب الخلود.

فمثل ذلك كمثل ظامئ يطلب الماء ليروى، فيذهب إلى

(محطة وقود)، فكأنه ذهب ليرتوي بالوقود، ولأن الوقود لا يُشرب، فإنه قد أضل الطريق.

وكذلك قوله (أخلد إلى الأرض)، أي طلب الخلود في الأرض، ولكن لأن الأرض ليست بدار الخلود، فإنه أخلد في المكان الخاطئ، فخسر جنة الخلد، وهوى إلى دار الخلد (جهنم).

وهذا المثل كقوله: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ).

ج. *(دلالة الخلد):*

يتبين مما سبق أن (الخلد) وصف لم يصف الله به شيئا من خلقه في الدنيا، بل هو وصف خصه بالآخرة، وبين أن كل نفس ذائقة الموت ومن ثم فلا خلد لها. وقد بين أيضا أن كل شيء له أجله، وكل شيء هالك إلا وجهه، ومن ثم فلا خلد لشيء في الدنيا.

كما أن الخلد لا يعني استمرار البقاء مطلقاً، بدليل أن القرآن استخدم معه لفظ (أبدا)، وأيضاً جاء بالاستثناء، وأيضا قيده بدوام شيء آخر (ما دامت السماوات والأرض).

ثم إن الخلد لا يوصف به إلا المخلوق، فلم يوصف الخالق بأنه خالد (كما قال العسكري).

إذا نظرنا في هذه المعطيات، فيمكن القول أن الخلد هو:

إقامة النفس في البدن، دون تغير.

وبيان هذا التعريف ما يلي:

(الخلد) وصف تختص به النفوس، فالقرآن الكريم لم يصف شيئا غير النفس بأنها خالدة، سواء أهل الجنة أو أهل النار، أو نفيه عن أهل الدنيا صفة الخلد.

(إقامة النفس في البدن)، الموت هو خروج النفس من البدن، والقرآن الكريم يبين أنه ما جعل لبشر الخلد، بل قضى على كل نفس أن تموت. وهذا يعني أن الخلد عدم الموت، بل إقامة النفس في البدن.

ويدل على هذا أن القرآن الكريم خاطب أهل الجنة بأنهم لا يموتون (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى)، وخاطب أهل النار بأنهم لا يموتون أيضاً: (الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا). فالصفة المشتركة بين أهل الجنة وأهل النار أنهم جميعا لا يموتون، وهذا هو الخلد. ثم إن أهل الجنة في حياة، وأهل النار لا حياة لهم.

ومن ثم فالنفس تقيم في البدن، ولا تخرج منها.

وعليه فدلالة الخلود تختلف عن دلالة الأبدية، فالأبدية دلالتها زمنية، تقتضي استمرار بقاء الشيء في المستقبل بلا انقطاع. أما الخلود فدلالته وصفية تبين إقامة النفس في البدن. وهذا ما يسوغ الجمع بين اللفظين.

وقد جاء بـ(أبدا) مع (ماكثين)، في قوله: (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا)، فالمكث طول البقاء، والأبدية استمرار البقاء.

❖ ❖

وقولي في التعريف (دون تغير)، هذا يبين أن النفس تقيم على حالة واحدة في البدن، فلا يعرض لها أي تغير. فقد تقيم النفس في البدن فتتغير حالتها من قوة إلى ضعف، أو من صحة إلى مرض، أو من خوف إلى أمن، أو من فرح إلى حزن... إلخ، أو العكس، وهو التغير من الضعف إلى القوة، أو من المرض إلى الصحة....

فالله سبحانه وتعالى يجعل لساكن الجنة نفساً خالدة، أي متصفة بصفات القوة والصحة والرضا والأمن ... إلخ، وهذه النفس تقيم في بدن صاحبها فلا تتغير حالتها. وهذا ما وصف الله به أهل الجنة في كتابه ألا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، ... إلخ.

كما أن الله سبحانه وتعالى يجعل لساكن النار نفساً خالدة، هذه النفس متصفة بصفات عديدة، منها: الضعف، والخوف، والفزع، وسلب الحياة عنها دون موت... إلخ. فتقيم هذه النفس على حالتها في بدن صاحبها، فلا تتغير، ولذلك لا يعرض لساكن جهنم لحظة فرح أو صحة أو أمن...

قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا). وقال: (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)، فدعاؤهم في ضلال؛ لأن الله قد قضى عليهم بالخلود؛ فلا يخفف عنهم عذاب النفوس، بل تظل في حالتها من العذاب الشديد.

ومن ثم فخلود النفس يتفاوت من نفس إلى أخرى، (سواء أهل الجنة أو أهل النار)، فكل نفس لها صفتها الخاصة بها من الخلود، وهذا يفسر تفاوت نعيم أهل الجنة، وتفاوت عذاب أهل جهنم. والله أعلم.

❖ ❖

وعليه فهذا التعريف يبين أن الخلد لا يكون إلا في الآخرة؛ لأن النفس في الدنيا كتب عليها التغير، وكتب عليها أن تذوق الموت، أي تخرج من بدنها.

❖ ❖

ذكرت أن (الأبدية تعني: استمرار بقاء الشيء في المستقبل بلا انقطاع)، فتقييدها بالمستقبل هو ما تفيده آيات القرآن الكريم، واستخدام العربية، يقولون: ما فعلته قط، ولن أفعله أبدا، قال تعالى: (لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا)، (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا)، (لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا)، (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا)، (وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا)، (وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا)... إلخ. فالأبد لا يعني البقاء المطلق، وإنما استمرار البقاء من اللحظة الزمنية الحالية باتجاه المستقبل. ولذلك لا يصح وصف الله سبحانه وتعالى بأنه أبدي.

□

(٢) لبث ومكث:

أ. الدلالة اللغوية:

المكث:

قال ابن فارس: (مكث: الميم والكاف والثاء كلمة تدل على توقف وانتظار).

لبث:

قال ابن فارس: (لبث: اللام والباء والثاء حرف يدل على تمكث. يقال: لبث بالمكان: أقام). وقال الراغب: (لَبِثَ بالمكان: أقام به ملازما له).

ب. استخدام القرآن الكريم للفظين:

وبتدبر استخدام القرآن الكريم للفظين، يتبين ما يلي:

(لبث):

كل الآيات التي استخدم فيها لفظ (لبث) فعلاً، استخدمت في الدنيا، ولم يرد فعلا مع الآخرة، سواء طالت المدة، أم قصرت، كقوله: (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)، (قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ)، وقوله: (فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)، وأقصر من ذلك قوله: (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ).

وأسئلة أهل جهنم أو تقريرهم عن المدة الزمنية التي أمضوها في

الدنيا: باستخدام لفظ: لبث. (وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)، (يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا)، (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)، (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)...

وقد جاء الوصف الفاعل منه (لابث)، وهو الموضع الوحيد، ووصف به إقامة أهل جهنم، (لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا)، وهي المرة الوحيدة التي ذكرت فيها المدة الزمنية في جهنم (أحقابا)، فاللبث ينتمي إلى الدنيا.

❖ ❖

ج. *التحقيق في دلالتهما:*

(مكث):

لم يستخدم الفعل (مكث) إلا في الدنيا، ويحمل معنى التمهل، وقد أسند إلى البشر (قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا)، وإلى الطير، (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ)، وإلى ما ينفع الناس: (وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ). وجاء بيانا لحال الفعل في قوله: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ)، أي: تقرأه على مهل، مرة بعد مرة، كلما نزل منه شيء قرأته على الناس، فوعوه وتدبروه.

وأما الفاعل (ماكث) فقد ورد مرتين، وكلاهما في الآخرة، مرة لأهل الجنة (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا)، ومرة لأهل جهنم (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ

لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ).

❖ ❖

وعليه فدلالة اللبث: ***إقامة مقصودة مؤقتة***.

سواء طال الوقت آلاف السنين، أو قصر إلى دقائق. وهذا التوقيت هو طبيعة زمنية في الدنيا لا الآخرة.

وقولي (مقصودة)، يعني أن اللبث لا يسند إلا إلى فاعل قصد اللبث، كالإنسان. فلا يقال: لبث الماء في الأرض. بخلاف (مكث)، فنقول: مكث الماء في الأرض، وتقول: مكث الطير، ومكثت البضاعة في المخزن... إلخ.

فالمكث إذن: ***تمهل الشيء في مكانه***.

سواء أكان الشيء إنسانا أو حيوانا أو غير ذلك. فلا يوجد قصد لفاعل، كما في اللبث، فأي شيء بقي مدة من الزمن في مكان فهو ماكث.

❖ ❖

ثم إن استخدام لفظ (لابث) في قوله لأهل جهنم: (لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا)، فاللبث: إقامة مؤقتة، والأحقاب مدة زمنية. فهل يدل هذا على أن إقامة أهل جهنم فيها مؤقتة؟

وقوله لأهل الجنة (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا)، ولأهل جهنم (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ). فاستخدم (أبدا) مع أهل الجنة؛ ليدل على أن إقامتهم أبدية، أما مع أهل جهنم فلم

يستخدم الأبدية، والمكث: تمهل وانتظار. فهل هذا دليل آخر على أن إقامتهم مؤقتة.

ثم قوله: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)، فاستثنى مع أهل جهنم، أما مع أهل الجنة فقال: (عطاء غير مجذوذ) أي: غير منقطع. فهل هذا دليل أيضاً على إقامة أهل جهنم مؤقتة؟

وكيف الجمع بين هذه الآية وبين وصف أهل جهنم بمثل قوله: (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)؟

قدمت أن الخلود دلالته وصفية وليست زمنية، فالخلود يعني: إقامة النفس في البدن بحال لا تتغير.

وعليه فالأبدية هو بيان أن النفس تقيم في البدن على هذه الحالة، أبداً. فقوله (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)، أي: ما داموا في جهنم فهو خالدون أبدا، لا تتغير طبيعة نفوسهم التي تقيم في أبدانهم. ولكن إذا انقضت الأحقاب فإنهم يخرجون من جهنم، وتكون لهم حالة جديدة. لا ندري عنها.

لا زالت المسألة تحتاج إلى تحقيق، والانصراف عنها أولى، والله يفعل ما يريد. غير أني تحدثت عنها لدلالة الألفاظ التي أدريها.

◻

(٣) البقاء:

في مقاييس اللغة: (بقي: الباء والقاف والياء أصل واحد، وهو الدوام. قال الخليل: يقال: بقي الشيء يبقى بقاء، وهو ضد الفناء).

وقال الراغب: (البَقَاء: ثبات الشيء على حاله الأولى، وهو يضادّ الفناء. والباقي ضربان: باق بنفسه لا إلى مدّة وهو الباري تعالى، ولا يصحّ عليه الفناء، وباق بغيره وهو ما عداه ويصح عليه الفناء... ولكون ما في الآخرة دائما، قال الله عز وجل: {وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى}).

❖ ❖

ولكن بالنظر في جذر اللفظ واستخدام القرآن الكريم له، فيتبين أن البقاء ليس ثبات الشيء مطلقاً، ولكنه يعني: ***ثبات شيء قد انقضى بعضه***.

فالشيء الذي انقضى نفد وانتهى، والشيء الذي ثبت بقي. والشيء الباقي قابل للنفاد أيضاً، فهو لا يدل بأصله على الدوام.

وهذا المعنى يسري في جميع استخدام اللفظ، كما يلي:

كل ما بقي من الشيء فهو لم ينفد: (وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا)، أي ما لم ينفد منه، وقال: (وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ)، أي مما تركوه بقي فلم ينفد.

وقد جاء مقابلاً للنفاد في قوله: (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ)، فمهما كان الشيء الذي في الدنيا، فإنه سيظل ينفد حتى لا

يبقى منه شيء، ومن ثم لا يوصف بأنه باق وصفا مطلقاً، أما ما عند الله فإنه يبقى ولا ينفد، فهو الشيء الباقي.

وأعمال الإنسان ستنفد كلها، ولا يبقى منه إلا ما صلح، فهو ما يدخره لنفسه فلا ينفد، وسماها القرآن الكريم: (الباقيات الصالحات)، أما سائر أعماله فإن الله يجعلها هباء منثورا. (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)، فكل عمل لم يدخره صاحبه عند الله فهو إلى نفاد. وكل عمل ادخره صاحبه لنفسه فهو باقية صالحة (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ).

ونصح شعيب قومه فقال: (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)، فأعمالهم التي يعملونها ستنفد ويجعلها الله هباء منثورا، وما يبقى منها إلا ما صلح، والذي يبقى يدخره الله لهم، ولذلك ناسب إضافته إليه: (بقية الله)، أي الشيء الذي يبقى لكم عند الله هو خير لكم. (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

ولما قال فرعون للسحرة الذين آمنوا: (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)، أي: ستعلمون من أشد عذابا وعذابه يبقى لا ينقضي، فهو ليس عذاب ساعة ثم يرتاح المرء، بل يظل في العذاب. قالوا له: (إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)، أي: إن عذابك سينقضي مهما بقي، فالحياة الدنيا كلها منقضية، ثم قالوا له: (وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)، أي فما عند الله هو خير وهو أبقى لا ينقضي. ولذلك جاء وصف عذاب

الآخرة بأنه أبقى (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)، أي: لا ينقضي ولا يفنى. ووصفت الآخرة بأنها أبقى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)، فالوصف قابل بين الدنيا والآخرة فهو يقول لهم: الدنيا تنقضي أما الآخرة فلا تنقضي بل هي أبقى لكم.

❖ ❖

تلحظ أن استخدام لفظ (البقاء) يكون لبيان ما يبقى من الشيء بعد انقضائه، فأعمال الإنسان كلها تنقضي، ولا تبقى منها إلا الصالحات (الباقيات الصالحات)، والدنيا ستنقضي أما الآخرة فهي الباقية.

ولذلك فقد جاء مقابلا للهلاك في قوله: (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى)، وكذلك في سورة الحاقة تحدث عن إهلاكهما وأنه لم يبق منهم باقية. والمعنى: استأصلناهم استئصالا تاما، فلم نترك منهم شيئا باقياً.

وقد جاء البقاء مقابلاً للفناء في قوله: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ). فإسناد البقاء إلى الله من باب المشاكلة، إذ لا يتصور أن الله ينقضي منه شيء ثم يبقى منه شيء آخر. ولكن جاء اللفظ مشاكلة حين بيّن أن كل من على الأرض فانٍ، أي ينقضون فلا يبقى منهم شيء، أما الله سبحانه وتعالى فهو الآخر الذي ليس بعده شيء. وهذا كقوله: (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)، وقوله: (قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ). فلا نقول أن الله مستهزئ أو ماكر. وكذلك لا نقول: الله باقي،

فالباقي يعني أنه قد انقضى منه شيء.

❖ ❖

فالخلاصة أن بقاء الشيء: هو ثباته بعد انقضاء بعضه.

والشيء ينقضي انقضاء جزئيا بالنفاد، فالنفاد هو انقضاء تدريجي للشيء حتى ينتهي.

وقد ينقضي الشيء انقضاء تاما، وذلك بالفناء أو الهلاك أو الموت.

فالفناء انقضاء الشيء مرة واحدة، والنفاد انقضاؤه شيئا فشيئا حتى ينتهي.

❖ ❖

▱

(٤) الدوام:

قال ابن فارس: (دوم: الدال والواو والميم أصل واحد يدل على السكون واللزوم. والماء الدائم: الساكن. «ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبال في الماء الدائم، ثم يتوضأ منه»). وأضاف الراغب: (ودَامَ الشيءُ: إذا امتدّ عليه الزمان، قال تعالى: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ}). وقال العسكري: (الدوام: استمرار البقاء في جميع الأوقات ولا يقتضي أن يكون في وقت دون وقت).

❖❖

والتحقيق أن الدوام: ***استمرار الشيء على حالته التي استقر عليها***.

ويبين ذلك استخدام اللفظ في العربية وفي القرآن الكريم.

قال تعالى: (وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)، أي: ما استمررت في الحياة، فإن انقطعت الحياة زال الحكم. فهو قد استقر على الحياة، وسيبقى دائما بالحياة حتى ينقطع عنها، فإذا انقطع عن الحياة بالموت لم يدم حيا، وسيدوم ميتا.

وقال: (وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا)، أي: إلا ما استمررت في القيام عليه، فإن انقطعت زال الحكم. وقال: (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ)، أي: ما استمرت. وقال: (إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا)، أي ما استمر بقاؤهم فيها، فإن خرجوا أو هلكوا دخلناها.

ووصفت الجنة: (أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا)، أي أن أكلها مستمر في الإثمار غير منقطع بموسم، أما الأُكُل في الدنيا فهو منقطع بالمواسم وبمراحل النمو... إلخ. وكذلك الظل فهو في الدنيا منقطع بحركة الشمس، وبتعاقب الليل والنهار. أما في الجنة فظلها دائم؛ إذ لا يرون فيها شمسا.

وقال: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)، أي: إن المصلي المستمر على صلاته غير المنقطع عنها لا يجزع إن مسه الشر ولا يمنع إن مسه الخير. والدوام على الصلاة لا يعني المحافظة عليها، بدليل قوله بعد ذلك: (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)، ولكنه يعني: دائم على إعطاء الصلاة حقها مما ينبغي أن يوصف به المصلي. فالصلاة عبادة يتقرب بها المر لربه، وقد أمره الله بالخشوع فيها، وتوجه القلب لربه فلا ينصرف عنه وهو بين يديه، ولا يلهو. فالدوام على الصلاة هو: الاستمرار على الاتصاف بهذا الوصف من خشوع وإحسان.

ويؤيد هذا التفسير قوله في سورة المؤمنون: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)، ثم قال في الآية التاسعة: (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ). فالخشوع هنا يقابل الدوام في سورة المعارج. فدوام المصلي على صلاته، إذن: استمرار أداء الصلاة بما ينبغي أن تؤدى به من الخشوع والإحسان.

و(الماء الدائم)، أي المستمر على حالته الساكنة، فإن تغيرت

حالته من السكون إلى الانقطاع لم يعد دائما. و(المطر الدائم)، أي: المستمر على تتابعه ونزوله دون انقطاع، فإن انقطع لم يعد دائما.

وبهذا يتبين أن الدوام استمرار الشيء على حالته التي استقر عليها، سواء أكان ساكنا أو غير ساكن، وعدم انقطاعه عن تلك الحالة إلى غيرها.

❖❖

ودوام الشيء يقابله: انقطاع الشيء.

فالشيء إذا دام على حالة ثم انقطع عنها ثم عاد إليها وهكذا، فلا نقول إنه دائم، بل: متقطع أو منقطع. فمثلاً: أُكُل الدنيا منقطع، حيث يأتي في موسم ثم ينقطع في موسم آخر ثم يعود في موسم آخر... إلخ، بخلاف: أُكُل الجنة فهو دائم، لا ينقطع. قال تعالى: (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)، أي: لا تنقطع بمواسم أو مراحل نمو، ولا أحد يمنعهم من الحصول عليها.

ولكن الشيء إذا دام على حالة ثم انقطع عنها إلى حالة أخرى، ولم يعد إلى حالته الأولى، فيمكن أن يوصف في كل حالة يستقر فيها بأنه: دائم. مثلا: نزول المطر إذا نزل متتابعا، فنقول: دائم طالما استمر على حالته من التتابع، ثم إن توقفه عن التتابع لا يسمى انقطاعا، بل يسمى: انتهاء أو انقضاء. بخلاف الثمار، فإذا انتهى الموسم فإن ثمرة الموسم تنقطع، ثم تعود في موسم آخر.

❖❖

وبما سبق يتبين لك عدم جواز إطلاق هذا الوصف على الله

سبحانه وتعالى، فالدوام: استمرار حالة الشيء التي استقر عليها، وهذه الحالة قابلة للانقضاء.

وأما ما ورد في الحديث: (لاَ تَسُبُّوا الدَّهرَ فإنَّ الله هُوَ الدَّائِمُ، والله هُوَ الدَّهرُ)، فالمعروف (لاَ تَسُبُّوا الدَّهرَ فإنَّ الله هُوَ الدّهر)، ولفظ (الله هو الدائم) زيادة منكرة انفرد بها ابن منده، وقد جاء في البخاري: (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار)، قال العلماء: أي المدبر لأحداث الدهر وما يقع في الزمان، فمن سب الدهر فكأنه سب من يدبر الأمر.

❖ ❖

(٥) سرمد:

قال ابن فارس: السرمد: الدائم، والميم فيه زائدة، وهو من سرد، إذا وصل، فكأنه زمان متصل بعضه ببعض).

قال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ).

والتحقيق أن السرمد: اتصال الزمن بلا انقطاع.

وبهذا فلا يوصف به إلا الزمن القابل للانقطاع، فإذا لم ينقطع فهو سرمد، وإذا انقطع فهو غير سرمد. وبذلك يتبين أن السرمد يختص بوصف الزمن لا بوصف الذوات. لأن الزمن هو الذي يتصل، أو ينقطع، كالليل والنهار. فلا أقول: جعل الله هذا الجبل سرمداً؛ لأن الجبل ليس له حالة انقطاع، مرة يكون جبلا ومرة يكون شيئا آخر.

والسرمد لا يطلق على ذوات النفس، بل يطلق عليها وصف: الخلد، أو البقاء، أو الدوام. ولا يصح أن يوصف بها الله، فلا نقول: الله سرمدي. فالسرمد وصف لزمن قابل للانقطاع.

▱

(٦) العيش:

أ. الدلالة اللغوية والمصطلحية:

قال ابن فارس: (عيش: العين والياء والشين أصل صحيح يدل على حياة وبقاء، قال الخليل: العيش: الحياة. والمعيشة: الذي يعيش بها الإنسان: من مطعم ومشرب وما تكون به الحياة. والمعيشة: اسم لما يعاش به. وهو في عيشة ومعيشة صالحة. والمعاش يجري مجرى العيش. تقول عاش يعيش عيشا ومعاشا. وكل شيء يعاش به أو فيه فهو معاش. قال تعالى: { وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا}).

وقال الراغب: (العَيْشُ: الحياة المختصّة بالحيوان، وهو أخصّ من الحياة، لأنّ الحياة تقال في الحيوان، وفي الباري تعالى).

وقال العسكري في الفروق: (العيش اسم لما هو سبب الحياة من الأكل والشرب ونحوه، والشاهد قولهم: معيشة فلان من كذا يعنون مأكله ومشربه مما هو سبب لبقاء حياته، فليس العيش من الحياة في شيء).

❖ ❖

ب. التحقيق في دلالة اللفظ:

وبتدبر استخدام القرآن الكريم للفظ، وتتبع استخداماته في كلام العرب، يتبين أن العيش:

كسب أسباب الحياة.

فالعيش ليس مطلق الحياة، وليس مطلق أسباب الحياة. ولكنه

يختص بالأسباب التي تكسب بها النفوس حياتها، كالأكل والشرب، فالنفس تسعى للأكل والشرب لتحيا، وهناك أسباب أخرى لحياتها لا دخل لها فيها، كالهواء مثلاً، فهي أسباب غير كسبية، ومن ثم لا يتعيش الإنسان بتنفسه، بل يتعيش بمأكله ومشربه وغير ذلك من أسباب تتيح له الحياة الضرورية والكمالية.

ولفظ (الكائنات ذوات النفوس) هو أفضل من مصطلح: الحيوان)، وأفضل من مصطلح: الكائن الحي، فنحن لا ندري بطبيعة الحياة التي في النباتات أو في الجبال أو في السماوات وفي الأرض. فالأفضل أن نقول: (الكائنات ذوات النفوس)، فهي الكائنات التي تحيا وهي التي تموت.

وعليه فحياة النبات لا نطلق عليها معيشة؛ إذ هو لا يسعى لكسب أسباب الحياة، كالإنسان والحيوانات.

❖ ❖

ويدل على ما ذكرت قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)، فهو الزمن الذي يبحث فيه الإنسان أو غيره من الكائنات ذوات النفوس، يبحث عما يتعيش به من مأكل ومشرب ونحوه، ليوفر ضرورة الحياة أو كمالها. بخلاف الليل فإنه زمن سكون تسكن فيه الكائنات التي سعت في النهار لمعيشتها. ولذلك فقد جعل الله النهار مبصراً، فتبصر به النفوس أسباب حياتها فتتعيش بها: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا).

وقد امتن الله على خلقه بأنه جعل لهم في الأرض معايش

يتعيشون بها، من مأكل ومشرب ونحوه، ومكنهم من الحصول عليها: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ). وهي الأقوات التي قدرها الله في الأرض: (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا).

وسمى القرآن الكريم البحث عن أسباب الحياة، والتعيش بها، وكسبها: ابتغاء فضل الله: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ). وقال: (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ). وقال: (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)، أي: جعل لهم فضلا يبتغونه في نهارهم، وعليهم أن يشكروا ربهم، الذي جعل لهم الفضل، وجعل النهار مبصراً، فيستطيعون السعي والكسب.

ووصف النهار بأنه نشور، حيث تنشر النفوس بعد موتها في الليل، فتنتشر لكسب رزقها، وابتغاء فضل ربها: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا). ولذلك قال: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)، أي: كما ينشركم الله كل نهار، بعد أن يتوفاكم بالليل فيبعثكم، ثم تذهبون فتمشون في مناكب الأرض وتأكلون من رزق ربكم. فكذلك يوم القيامة سينشركم بعد موتكم.

❖ ❖

ج. *الفرق بين العيشة والمعيشة:*

ذكرت أن العيش: هو كسب أسباب الحياة، ومن ثم فمن طبيعة الدنيا أن يتعيش الناس فيها؛ إذ يسعون لكسب أسباب الحياة، سواء الحياة الضرورية أو الكمالية.

وقد فرق القرآن الكريم بين (المعيشة)، و(العِيشة). فالمعيشة هي سعي الإنسان ليحصل على قُوْتِه. وهذه طبيعة الحياة الدنيا، فالله جعل الدنيا معيشة، وجعل للناس فيها (معايش)، ومعايش جمع معيشة، ومنح الإنسان إمكانات الحصول على العيش، كما قال: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)، وقال: (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)، (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)، (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).. فلفظ (معيشة) لم يستخدم إلا في الدنيا.

أما العِيشة، فهي أسباب الحياة من أكل وشرب التي أعدها الله للنفوس، فتحصل عليها دون سعي منها. وهذه لا تكون إلا في الدار الآخرة، وجاءت مرتين في القرآن الكريم في سورتي الحاقة والقارعة. قال تعالى: (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) فبين أن العيشة التي هم فيها أنْ جعل الله لهم قطوف الجنة دانية، أي ينالونها دون سعي أو بحث أو تعيش للكسب، كما في الدنيا. ولذلك قال لهم: (كلوا واشربوا هنيئا)، فهذه هي العيشة الراضية.

□

(٧) الحيوان:

قال تعالى: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ). فما الحيوان؟

أ. التفسيرات السابقة:

اختلفت تفسيرات العلماء لها، واختلافهم في تفسير دلالتها يعود إلى اختلافهم في نوع تصريفها، وذلك على النحو التالي: (انظر تفسير البسيط للواحدي)

(مصدر):

قال بعضهم أنها مصدر، والفعل: حَيي حياة وحيواناً. والمعنى: وإن حياة الدار الآخرة هي الحياة؛ لأنه لا نقص فيها ولا نفاد لها[٣].

وقدر بعضهم أنه على تقدير الإضافة إلى المصدر، أي: هي ذات الحيوان، أي: دار الآخرة هي دار الحياة، كأنه لم يعتد بحياة هذه

---

[٣] ووفقاً لتقدير الزمخشري، أن المصدر يفيد المبالغة، فقال: (وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء فَعَلان من معنى الحركة والاضطراب، كالنَّزَوَان والنّغَصَان واللَّهَبَان، وما أشبه ذلك. والحياة: حركة، كما أن الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة، مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة).

وقال ابن عاشور: (ولما أشير في هذه الآية إلى الحياة الآخرة في قوله: {فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها} زاده تصريحا بأن الحياة الآخرة هي الحياة الحق، فصيغ لها وزن الفَعَلان الذي هو صيغة تنبئ عن معنى التحرك توضيحا لمعنى كمال الحياة بقدر المتعارف، فإن التحرك والاضطراب أمارة على قوة الحيوية في الشيء، مثل الغليان واللهبان. وهم قد جهلوا الحياة الآخرة من أصلها فلذلك قال: { لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ})..

الدار حياة. (تفسير الواحدي).

(اسم):

وقال بعضهم أن الحيوان اسم وهو خلاف (المَوَتَان)، فالحَيَوَان: ما فيه الحياة، والموَتان ما ليس فيه الحياة.

وقال بعضهم أن الحيوان اسم بمعنى الحيّ، وجعلت الدار الآخرة حيا على المبالغة بالوصف بالحياة. (تفسير البحر المحيط). وقال في تاج العروس: (وسمى الله دار الآخرة حيوانا لأن كل من صار إلى الآخرة لم يمت ودام حيا فيها إما في الجنة وإما في النار).

❖ ❖

ب. التحقيق في اللفظ:

النوع الصرفي:

وقد تبين لي في اللفظ وجه آخر، والله أعلم بمراده، وهو أن (حيوان) تثنية (حَيَا)، و(حَيَا) يمكن تخريجه على وجهين:

الوجه الأول: أنه جمع: (حياة)، كما جمعوا: حصاة على: حَصَى. ثم ثني (حيا) فقيل (حيوان). وفي الهامش إيضاح لهذا الوجه[٤].

---

[٤] قد ورد عن العرب، في جمع: حصاة، وأَضَاة (غدير)، وقناة، ومَنَاة، ونواة، جمعت بزنة: فَعَل، فقالوا في جمعها: حَصَى، وأضَا، وقَناً، ومَنَا، ونوى (انظر لسان العرب مادة: أ ض ى).

وعليه فقد ثني لفظ الجمع (حيا)، تثنية المقصور، فقيل: حيوان، كما نقول: عَصَا

الوجه الثاني: أن (حَيَا) أصل لفظ (حياة) فوقعت التثنية على أصل اللفظ، ولم يثن (حياة). فقوله: لهي الحيوان، أي: لهي الحياتان. وفي الهامش مزيد إيضاح لهذا الوجه [٥].

معنى الآية:

قال تعالى: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ

وعَصَوَان، وقطا وقَطَوَان، وقفا وقَفَوَان، وشذا وشَذَوَان.

والعرب تثني الجمع، قال الزمخشري في المفصل: (وقد يثنى الجمع على تأويل الجماعتين والفرقتين، ثم ذكر أمثلة عديدة، منها، قول العرب: "إبلان" تثنية: إبل، و"جِمالان" تثنية: جِمال، و"رماحان" تثنية: رماح، و"لقاحان" تثنية: لقاح، و"غنمان" تثنية: غنم. قال ابن يعيش في المفصل: وقالوا: "جِمالان" يريدون قطيعَيْن منها.

[٥] تعامل العرب الألفاظ المنتهية بتاء تأنيث مربوطة بعد ألف، كأن التاء غير موجودة، فـ(حياة) مثلاً، جمعت على: حيوات، ولم يقولوا: حيواتات، بل عاملوها معاملة: عصا: عصوات، وقطا: قطوات. وكذلك (قناة) تجمع على: قنوات، و(فتاة): فتيات، و(أداة): أدوات، و(غزاة): غزوات.. إلخ. ففي كل هذه الألفاظ عومل المقصور المنتهي بتاء التأنيث معاملة المقصور غير المنتهي بها.

كما أن العرب تطرد هذه القاعدة في الألفاظ الصحيحة، فيعاملون الأوصاف المنتهية بتاء التأنيث معاملة غير المنتهية بها، وذلك في الجموع، فـ(مسلم) يجمع على: مسلمون، و(مسلمة) تجمع على (مسلمات)، فتحذف تاء التأنيث، ولا نقول: مسلمتات. وقد فعلوا ذلك في الجمع لاختلاف علامة المذكر الجمع عن المؤنث، وأما في التثنية فأبقوها لئلا يلتبسان، فقالوا: مسلمتان؛ إذ علامة التثنية واحدة.

وهناك وجه آخر، فقد نقل في تاج العروس عن قطرب: أن أهل اليمن يقولون لـ(الحياة): "الحَيَوْة"، بسكونِ الواوِ قبلَها فَتْحة، وهي ترسم في القرآن واواً: ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾. وعند تثنيته حذفت التاء تخفيفا، فصار: (حَيُوْ)، فقيس على المقصور: (حيَا)؛ لأنه لا يوجد في العربية اسم ينتهي بواو المد، فوقعت التثنية على (حيا)، فقيل: حيوان، نحو: عصا وعصوان.

لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).

تبين الآية للناس أن الحياة الدنيا لا قيمة لها، بل هي لهو ولعب، ومن ثم فهي ليست حياة حقيقية، ولكن الدار الآخرة هي (الحيوان: مثنى حياة)، أي من عمل للآخرة فقد كسب حياة الدنيا، وكسب حياة الآخرة. أما من خسر الحياة الآخرة فقد خسر الحياتين؛ إذ الدنيا لعب ولهو، ويحرم من حياة الآخرة. فقوله (لهي الحيوان)، أي: لهي الحياتان.

ولو قدرنا أنها تثنية الجمع، فالمعنى: لو أن الدنيا حيوات عديدة، والدار الآخرة حيوات عديدة، فإن حيوات الدنيا لا قيمة لها، والآخرة هي كل الحيوات، فجمعها بتقدير الدارين، أي: حيوات الدار الأولى، وحيوات الدار الأخرى. فالحيوان تثنية للحيا، والحيا جمع الحياة.

فالخلاصة أن المعنى: أن من أراد حياة الآخرة فقد نال الحياتين: حياة الدنيا وحياة الآخرة. فالآخرة إذن هي (الحيوان: تثنية حياة). وأما من أراد الحياة الدنيا فإنه يخسر الحياتين، كما قال تعالى: (خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ).

وهذا كقوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ). أي: من أراد حرث الآخرة حصد حرث الدنيا وحرث الآخرة، وزاد الله له في حرثه. أما من أراد حرث الدنيا فسيحصدها في حياته الدنيا، وفي الآخرة لا نصيب له، والآخرة هي الباقية، والدنيا هي الفانية، فكأنه في الحقيقة احتفظ بالشيء الفاني، فيأتي إلى ما

ادخره فلا يجده شيئا.

وهو كقوله: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)، وختمها بما ختم به آية العنكبوت (لو كانوا يعلمون).

وقد دلت آيات كثيرة على هذا المعنى، وهذا يؤكد الدلالة التي ذهبت إليها في الآية، ومنها:

قوله: (فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا).

وقوله: (فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ)، وقوله: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)، وقوله: (وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)،

وقوله: (يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ)،

وقوله: (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى)، وقال: (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)، وقال: (إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

وقوله: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا

(١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا).

... إلخ.

❖ ❖

وقوله (الدار الآخرة) يراد بها الجنة، وليس كما قال بعضهم أن الحيوان هو أن الحياة في الآخرة أبدية سواء لأهل الجنة أو لأهل النار، فالقرآن الكريم لا يستخدم لفظ (الدار الآخرة) إلا ويريد به الجنة لا غير، وقد جاء تسع مرات في القرآن الكريم، وكلها بمعنى (الدار التي أعدت للمتقين، وهي الجنة)، كقوله: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) وهي كآية العنكبوت، وقوله: (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا)، وقوله: (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا)، وقوله: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا)، وقوله: (وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا).

وإذا قصد دار المتقين ودار الكافرين فإنه يستخدم لفظ (الآخرة) دون الدار، كقوله: (لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)، وقوله: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً)، وقوله: (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ).

وأما (اليوم الآخر) فلم يستخدم في القرآن الكريم إلا في سياق

حديثه عن إيمان الناس أو عدم إيمانهم بـ(اليوم الآخر)، كقوله: (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)، وقوله: (وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)، وقوله: (وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)، واقترن في ثلاث مواضع مع الرجاء: (وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ)، (لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ).

فـ(الآخرة) إذن: الحياة الآخرة، سواء لأهل الجنة أم لأهل النار. (مكان).

و(الدار الآخرة): هي الجنة. (مكان).

و(اليوم الآخر): هو يوم الحساب والجزاء. (زمان).

□

المطلب الثالث: وصف الله سبحانه وتعالى

مما سبق يتقرر ما يلي، بالنسبة إلى وصف الله سبحانه وتعالى.
أسند إلى الله الألفاظ التالية:

(١) الحيّ:

وقد جاء من ذلك وصفه بأنه: الحي، قال تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ).

ونفى عنه الموت: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ).

كما نفى عنه السنة والنوم: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ).

فالنوم ينافي كمال الحياة، والموت ينافي أصل الحياة، فنفى الله عن نفسه عدم الحياة ونقصانها.

ف (الحي)، هو الذي لم تعرض له حالة الموت أبداً، فحياته لا قبل لها ولا بعد (حياة لم يسبقها موت، ولم يتخللها نوم، ولا يلحقها موت)، وهذا يدل على أن أي مخلوق حيٍّ لا يكون حيا إلا بعد أن يكون ميتا، ثم يحييه الله ثم يميته، وهذا ما نفاه الله عن نفسه سبحانه. وسأتحدث عن هذه الصفة في الدراسة الموضوعية.

□

(٢) الأول الآخر:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)

في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء).

فوصف الله نفسه بأنه الأول والآخر، فالأول الذي ليس قبله شيء، والآخر هو الذي ليس بعده شيء. فهو أول بلا قبل، وهو آخر بلا بعد. وكل شيء سوى الأول حادث بعد أن لم يكن، وكل شيء سوى الآخر هالك بعد أن كان.

ومن ثم فهذا الوصفان الشرعيان في الحديث عن الله سبحانه وتعالى. ولا يصح وصفه بالأوصاف الأخرى، نحو: الدائم، والباقي، والأبدي، والسرمدي، والقديم. وقد بينت أسباب امتناع هذه الأوصاف في المطلب السابق. فالأول والآخر يغني عن وصفه بغيرها من الصفات.

وقد جاء في القرآن الكريم إسناد الفعل (يبقى) إلى وجهه، في قوله: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ)، وقد بينت أن وروده على المشاكلة. وإلا فالشيء الباقي يطلق على ما يقبل أن ينقضي، فما لم ينقض منه فقد بقي.

كما جاء نفي صفة الهلاك عن وجهه سبحانه وتعالى، فقال: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)، فوجهه هو الذي يبقى، والله هو الآخر سبحانه وتعالى.

(٣) الوارث:

جاء في ثلاثة مواضع جمعا،

قال تعالى: (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)،

وقال: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)،

وقال: (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ).

وجاء فعلاً في قوله: (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)، وقوله: (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا).

وأسند إليه الاسم في قوله: (لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)، مرتين.

وجاء الفعل: (أورث يورث) تسع مرات، كقوله: (إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ)، وقوله: (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا).

قال ابن فارس: الوِرْث: (أن يكون الشيء لقوم ثم يصير إلى آخرين بنسب أو سبب). وقال الراغب: (ووصف الله تعالى نفسه بأنه الوَارِثُ من حيث إنّ الأشياء كلّها صائرة إلى الله تعالى)، وفي لسان العرب: (الوارث: صفة من صفات الله عز وجل، وهو الباقي الدائم الذي يرث الخلائق، ويبقى بعد فنائهم، والله عز وجل، يرث الأرض

ومن عليها، وهو خير الوارثين أي يبقى بعد فناء الكل، ويفنى من سواه فيرجع ما كان ملك العباد إليه وحده لا شريك له). وفي معجم اللغة العربية المعاصرة: (الوارث: الباقي بعد موت عباده وذهاب غيره، الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء المُلاَّك).

❖ ❖

حقيقة الوارث في اللغة أنه من يحصل على شيء كان لغيره. كورثة الميت، فهم يحصلون على ما كان للميت بعد أن يذهب.

التحقيق أن لفظ (ورث) له عدة عناصر دلالية:

أولها: الوارث – لغة – هو الذي يحصل على شيء كان لغيره، فهو قبل وراثته لم يكن مالكاً له.

وثانيها: الشيء الموروث، هو شيء كان للغير ثم انتقلت ملكيته إلى الوارث.

وثالثها: أن الشخص الموروث هو من يفقد ما يملكه بسبب موته، وليس بسبب آخر، فلا يقال لمن فقد ملكيته بسبب البيع: إن المشتري ورث. فالوارث هو من يرث ملك الميت، وليس من يشتري أو يحصل بأي طريقة على ملك حي من الأحياء.

ورابعها: أن الوارث هو حي، في حين أن الشخص الموروث هو ميت.

وإذا نظرنا في دلالة وصف الله بأنه (الوارث)، فإن الدلالة الأولى والثانية، لا تصح في حقه سبحانه وتعالى، فالله مالك الملك، وله ملك السماوات والأرض وما بينهما، وهو ملك الناس، ورب العالمين،

وكل شيء هو مملوك لله سبحانه وتعالى.

أما الدلالة الثالثة والرابعة، فإنها الدلالة المناسبة للمقام.

وعليه فالوارث هو: (الحيّ، الآخِر)، وبعبارة أبسط: الحي الذي لا يموت، وليس بعده شيء.

فالحي يشير إلى الدلالة الثالثة والرابعة، فالوارث حيّ، والله هو الحي حقيقة، والموروث ميت، وكل نفس ذائقة الموت، وكل شيء هالك إلا وجهه. وكل حي يموت وتنتهي ملكيته للأشياء. ولذلك جاء قوله: (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)، أي: هو الحي، وهو الذي يميت كل نفس، فكل نفس ذائقة الموت، والله هو الحي الذي لا يموت.

و(الآخر) يحقق الدلالة الرابعة، فإن الله هو الذي ليس بعده شيء، وكل شيء غير الله فله بعد، وعليه فالورثة من الناس هم ورثة مؤقتون، يرث أحدهم مدة من الزمن، ثم يموت، فيرثه غيره، وهكذا، حتى ترث الأرضُ جميعَ من عليها. والأرض نفسها يبدلها الله، فلا يبقى شيء إلا وهلك، ويبقى وجه ربك (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا).

وبهذا يتبين أن ميراث الله لكل شيء، لا يعني أنه انتقل إليه بعد أن كان لغيره، أو أنه لم يكن مالكا له. بل يعني أنه الحي الذي لا يموت، وكل نفس تموت، وكل شيء يهلك، فليس بعد الله شيء.

(٤) الإحياء والإماتة والتوفي:

وقد بينت أوجه استخدامهما في المطلب الثاني. فأكتفي به.

وخلاصتها:

أسندت إليه الأفعال: أحيا، وأمات.

وأفعال أخرى: يخرج الموتى، يبعث الموتى. ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي.

وأسند إليه المشتق: محيي الموتى مرتين: (لَمُحْيِي الْمَوْتَى)، ولم يرد الوصف: (مميت).

وفي المبحث القادم، أبين أن فعل التوفي أسند إلى الله، وكذلك إمساك النفوس. قال تعالى: (اللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى).

ومن ثم فنحن نسند إلى الله هذه الأفعال للدلالة على الإماتة، فنقول: أماته الله، توفاه الله، ونقول: الله يميت كل نفس. وكل شيء هالك، وكل شيء فانٍ. والله يرث كل شيء.

❖ ❖

(٥) التبديل والإذهاب:

أما التبديل والإذهاب فقد أسندت أفعالهما إلى الله سبحانه وتعالى، للدلالة على قدرته الممكنة، أي: لو شاء الله لأذهب الناس، أو أذهب الماء من الأرض... إلخ. وكذلك التبديل: لو شاء الله لبدل

الخلق وأتى بخلق جديد...

كما أسند التبديل إلى اللّه سبحانه وتعالى حين الحديث عن تبديل نظام الخلق: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ).

ومن ثم فاللفظ الشرعي أن نقول: سيبدل الله السماوات والأرض، ولا نقول: سيفنيهما. فالتبديل هو إحلال شيء مكان آخر. وهو متضمن معنى الإفناء، إلا أننا نستغني باللفظ الذي يستخدمه القرآن عن غيره من الألفاظ. ففيه الكفاية والغُنْيَة.

(٦) الإهلاك والتدمير:

أما الإهلاك، فأسند منه إلى الله: الفعل (أهلك)، والمشتق: (مهلك)، ومن ذلك قوله: (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ)، وقال: (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا). والتدمير أسند الفعل منه فقط: (ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ).

(٧) الإبداء والإعادة والإخراج والبعث والإنشار:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)، يبدئ: أي يجعل لكل شيء بداية. ويعيد، أي يعيد الشيء من جديد بعد أن يهلك. وقد فسرتها في بحثي: أفعال الخلق في القرآن الكريم.

وسأتناول بقية الألفاظ في المباحث القادمة.

□

الجزء الثاني: الإحياء والإماتة (دراسة موضوعية)

سأتناول في هذا الجزء خمسة مباحث، هي:

المبحث الأول: النفس والروح، ودلالتهما، وعلاقتهما بالحياة والموت.

المبحث الثاني: حقيقة الموت والحياة.

المبحث الثالث: الإماتة والإحياء.

المبحث الرابع: التوفي.

المبحث الخامس: مراحل إعادة الخلق، وأدرس فيه: البرزخ، والرجع، والإخراج، والإنشار، والبعث، والخروج.

□

المبحث الأول: النفس والروح وعلاقتهما بالموت والحياة

المطلب الأول: مفهوم النفس

سأتوسع في دراسة النفس والروح في القرآن الكريم في دراسة خاصة. وهنا أقتصر على إبراز الملمح العام لهذا الموضوع في ضوء القرآن الكريم، مما يتصل ببحث الإحياء والإماتة.

النفس كما يبينها القرآن الكريم -هي:

مخلوقة، أودع الله فيها أمره، وكلفها بتنفيذه، وجعلها ذات اختيار، وأرسلها إلى الجسم لتحل فيه، فيحيا، فيبلوها الله بالعمل، ثم يحاسبها عليه. وجعل الله النفس محل الحياة، والشعور، والنوايا، والعلم، والأخلاق، والشهوة، والإرادة، والتغيير، والمكابدة. فهي هوية المرء.

(للتوسع: راجع بحث النفس والروح في القرآن الكريم). سأتحدث هنا عن علاقة النفس بالموت والحياة.

١. المنام والتوفي والموت للنفس:

أخبرنا القرآن الكريم أن الله يتوفى الأنفس، وذلك بإمساكها، وكذلك يبعثها بإرسالها. وأخبرنا أن كل نفس تموت، حين يقضي الله عليها الموت، وأن لكل نفس أجلاً، والله لن يؤخر أجلها. قال تعالى:

(اللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، فأضاف المنام والموت إلى النفس. وقال: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا)، (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا)، (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ). والنفوس تخرج من أجسادها حين التوفي: (وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ).

والموت حين يأتي فإنه يستهدف النفس، ولذلك قال الله تعالى: (قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، أي: ادفعوه وحولوا بينه والوصول إلى أنفسكم لو كنتم تستطيعون. وإذا أخذ الموت النفس فلو كنتم غير مدينين فارجعوا النفس إلى الجسم لو تستطيعون: (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، فالضمير للنفس. وكلا الآيتين ختمتا بقوله: (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). وتقول الملائكة للكافرين حين غمرات الموت: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ)، أي: أخرجوا أنفسكم من أجسادكم وأريحوها من غمرات الموت، لو كنتم تستطيعون!

فهاتان الآيتان، فيهما تحدٍ للناس من وجهين،

الوجه الأول: إرجاع النفس إلى الجسد، إذا حضر الموت، وهو قوله: (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، وقوله: (قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

والوجه الثاني: إخراج النفس من الجسد، إذا عانى المحتضر غمرات الموت، وهو قوله: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ

وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ).

فهو يقول لهم: إنكم تعجزون عن إرجاع الأنفس، كما تعجزون عن إخراجها، فليس لكم من الأمر شيء.

❖ ❖

كما سمى الموت نقصا للأنفس، فقال: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ).

إذن فالنفس هي التي يتوفاها الله، وهي التي تنام، وهي التي تموت، وكل نفس لها أجل.

كما أن قتل الإنسان لغيره إنما يقع على النفس، فهو الذي يسبب إزهاقها: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا).

❖ ❖

٢. البعث للنفوس:

بينت أن البعث للنفوس، وذلك بإرسالها إلى أجسادها، كما في آية الزمر: (وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، ويوم القيامة سيرسل الله كل نفس إلى بدنها، فتقترن به، كما قال: (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ).

□

المطلب الثاني: مفهوم الروح

- لم يرد في القرآن الكريم أن الروح بمعنى (النفس)، ولم تضف الروح إلا إلى الله.
- الروح من أمر الله، وليست من خلقه.
- سمى الله عيسى روحا، وسمى جبريل؛ لأن خلقهما يختلف عن خلق جنسهما.

وخلاصة بحثي في الروح (للتوسع: انظر النفس والروح في القرآن):

الروح هي من أمر الله (لا من خلقه)، وهو الجزء المتعلّق بالتكليف.

هذه الدلالة تنطبق على كافة المواضع التي ذكر فيها لفظ (الروح) في القرآن الكريم، ويمكن إجمالها في ثلاثة موضوعات:

الأول: نفخ فيه من روحه/روحنا

فالنفخ في آدم من روحه، يعني أنه أرسل إليه (النفس المكلفة)، والنفس المكلفة هي النفس التي سواها الله فأودع فيها أمرَه، وكلفها أن تقوم به. فنفخ في آدم من روحه، أي: أرسل إليه هذه النفس التي تحمل أمر الله.

وكذلك نفخه في مريم، إذ أرسل إليها نفسا واحدة، وهي نفس عيسى عليه السلام، وهي نفس مكلفة تحمل أمر الله.

وهذه هي الأمانة التي حملها الإنسان، فبعد أن حملها نفخ الله

فيه من روحه، أي أرسل إليه النفس المكلفة. فأصبح حيا مكلفا، وهي مرتبة زائدة على حياة الكائنات الحية (انظر بحث الإحياء والإماتة).

الثاني: الروح من أمره الذي ينزل

والآيات التي يتحدث فيها أن الروح من أمره، ينزله على من شاء من عباده. كقوله: (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)، وقوله: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا).

فالروح من أمره هو التكليف الذي كلف الله به تلك النفس. فهذا جزء من الأمر خص به (النفسَ المكلفة).

وقوله: (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ)، أي: أيدهم بالوحي وهو الروح من أمره، فمن اتبع الوحي فقد أخذ تأييد الله، الذي أيد بها عباده المؤمنين. ولذلك قرن بين الإيمان وتأييدهم بروح منه، فهو أيدهم بالروح من أمره، وهي الروح التي أوحاها إلى رسوله، لتكون تأييدا وذكرى وهدى وبشرى للمؤمنين، كما قال: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ).

الثالث: الروح (جبريل)

الموطن الثالث ورد فيه الروح متحدثا عن أحد الملائكة، وهو الذي ينزل بالوحي (الروح) على الرسل. فجبريل هو الروح، وسمي الروح؛

لأنه يحمل الروح من أمر الله. فهذه أعظم مهمة أسندت إلى أحد الملائكة، وقد خلقه الله خلقة خاصة تناسب هذه المهمة، فقال عنه: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ)، وقال عنه: (ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ).

وكذلك سمى الملك الذي جاء إلى مريم روحا: (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا).. (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا). فلأنه جاء يحمل روحاً من أمر الله، وهو (النفس المكلفة)، نفس عيسى عليه السلام، فسماه روحاً لذلك. وقد يكون هو جبريل وقد يكون غيره، فلا ندري، إنما الذي يهمنا معرفته أنه رسول من الله جاء حاملا روحا من أمر الله، فسماه الله روحه.

❖ ❖

الروح لا تعني النفس:

لم يرد في القرآن الكريم أن الروح بمعنى (النفس).

ولذلك فأنا لا أقصد بـ(الروح) النفس، ولا أقول أن في المخلوق الحي روحا، بل المخلوق مركب من جسم ونفس، فقط. وعلى هذا يفهم حديثي عن الروح أنه من أمر الله لا من (خلقه)، ولا علاقة لهذا القول باختلافهم حول (خلق الروح)، فهم يتحدثون عن النفس (ولكنهم يسمونها الروح)، والنفس مخلوقة كما قرر القرآن الكريم.

وأما الأحاديث النبوية، فبعضها ورد فيها لفظ النفس، كقوله صلى الله عليه وسلم في دعاء النوم، والحديث متفق عليه: (باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها

فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين). وبعضها ورد فيه لفظ (الروح)، والأرجح أن هذه الأحاديث مروية بالمعنى، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أوردها بلفظ (النفس)، والرواة؛ إذ يجيزون الرواية بالمعنى، جعلوا الروح مكان النفس؛ باعتبار أنهما بمعنى واحد. والقرآن الكريم يسمي الشيء الذي يتوفاه الله عند النوم والموت: نفساً، لا روحا: (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى).

□

المطلب الثالث: النفس والروح وعلاقتهما بالحياة والموت

السؤال الذي أعنى بالإجابة عنه هنا: ما علاقة الروح والنفس بالإحياء والإماتة؟

أولاً: الخلق والإماتة والإحياء:

سأتحدث عن خلق البشر الأول (خلق الأصل).

مرّ خلق البشر الأول بمرحلتين، هما:

المرحلة الأولى: مرحلة الخلق والتسوية والتصوير

الخلق:

الخلق هو الإنشاء الأول للشيء.

ولا ندري عن أصل كثير من المخلوقات، وكيف نشأت، ولكن علمنا القرآن الكريم عن بعضها، كنشأة النباتات والكائنات الحية. (راجع بحثي: أفعال الخلق في القرآن الكريم).

فالبشر مثلاً، أنبتهم الله من الأرض، فنما الأصل الأول كما كما ينمو النبات، قال تعالى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا). وهذه المرحلة بينتها آيات كثيرة، وقد درستها في كتابي: أفعال الخلق في القرآن. قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ)، (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ).

وهذه المرحلة (خلق الأصل)، تقابل مرحلة الإنشار (إعادة الخلق)، حيث سيعيد الله خلق البشر جميعا يوم القيامة حين

يخرجون من قبورهم، (راجع هذا البحث).

❖ ❖

التسوية:

تسوية الخلق: إتمام الخلق وفقا لما قُدّر له أن يكون، بحيث يأخذ خصائصه التي تميزه عن غيره.

وهذه التسوية لكل مخلوق يخلقه الله، فإنه يخلقه ثم يسويه، قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)، وخلق النفس فسواها: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)، وخلق الإنسان فسواه: (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ)، وخلق السماء فسواها: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا).

❖ ❖

التصوير:

التصوير: تركيب المخلوق في صورة خاصة، بحيث يتهيأ لاستقبال النفس.

فالتصوير مرحلة لاحقة للخلق، وهي تختص بالكائنات ذوات النفوس، فهي تركيب المخلوق بحيث يكون مناسبا لاستقبال النفس: (هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ)

ومما يدل على اختصاص التصوير بالمخلوق الحي، قوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)، وقوله: (اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ). فذكر التصوير في الموضعين للبشر، بعد أن ذكر الخلق

والتسوية للسماوات والأرض. فبين أن التصوير يخص بعض الخلق. ولم يذكر التصوير في شيء من القرآن للسماوات والأرض أو المخلوقات الأخرى، بل يذكر لها: التسوية.

ومما يدل على أن التصوير تهيئة الجسم للنفس قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)، فذكر الخلق ثم التصوير، ثم أمر الملائكة بالسجود، وفي آيات أخرى وقع الأمر بالسجود عقب بيان النفخ فيه من روحه: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ). ففي الآية الأولى استخدم حرف العطف (ثم)، فدل على أن التصوير كان مرحلة سابقة للنفخ (أي: إرسال النفس إلى الجسم المصور)، وفي الآية الثانية استخدم حرف التعقيب الفاء بعد بيان النفخ فيه من روحه، فدل على أنه عقبه مباشرة.

وعليه يكون ترتيب المراحل: الخلق، فالتسوية، فالتصوير. ثم بعد ذلك النفخ فيه.

وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)، فبين أن تصوير الكائن يكون وهو في رحم أمه. حيث يتم ذلك بعد خلقه مضغة، فيصوره الله، ثم يكون النفخ بعد ذلك.

وقال تعالى: (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)، فبين المراحل الثلاث: الخلق، فالتسوية، فالتصوير. فقوله (فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك)، يبين ثلاث دلالات:

الأولى: أن التصوير بعد التسوية.

الثانية: أن التصوير عدل، والعدل هو تمام تسوية الشيء، فعدل المخلوق أن أتم تسويته بتصويره.

الثالثة: أن التصوير تركيب، فالله يركب الكائن في الصورة التي يشاؤها سبحانه وتعالى. وهذا التركيب ليهيئ الجسم لاستقبال النفس.

ومرحلة الخلق والتسوية عامة لكل المخلوقات، فالله يخلق الشيء ثم يسويه. أما التصوير فهو خاص للكائنات ذوات النفوس، فالنفس ترسل إلى الجسم بعد تصويره. (أي: الجسم المصور).

❖ ❖

الجسم المصور جسم ميت:

والجسم المُصَوَّر (قبل إرسال النفس إليه)، هو جسم بلا نفس، ومن ثم فهو في حالة الموت، فبعد أن يخلق الله الجسم ويصوره، يصبح جسما ميتا، لا حياة فيه.

ولا نطلق على المخلوق بأنه ميت، إلا إذا كان قابلا للحياة، أي مخلوقا مصورا، وبعبارة أخرى: أن يكون قابلاً لاستقبال النفس. وليس أي مخلوق يقبل النفس إلا المخلوق المصور. فالمخلوقات الميتة إذن هي المخلوقات ذوات النفوس. كالإنسان وعامة الكائنات الحية.

فبعد تصوير المخلوق يصبح مخلوقاً لم ترسل إليه نفسه، فالنفس ممسوكة عنه، فهو ميت؛ فكل مخلوق مصور أمسكت نفسه فإنه مخلوق ميت. فالمخلوق المصور لا بد أن يكون إما حيا وإما ميتا؛

لأنه مخلوق ذو نفس، فإن كانت النفس فيه فهو مخلوق حي، وإن لم تكن فيه فهو مخلوق ميت. قال تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ)، أي: كنتم قبل إرسال النفوس إليكم أجسادا مصورة ليس بها أنفس، فهذا هو الموت.

ويدل على ما ذهبت إليه قوله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ).

فالآيات تتحدث أولاً عن الخلق (أأنتم تخلقونه) ثم تحدثت عن تقدير الموت، ذلك أن الموت يلي الخلق، فالجسم المخلوق بعد أن يصوره الله يكون ميتا، ففي هذه المرحلة يقدر الله فيه الموت بين الأجسام المصورة، والخطاب للبشر. ثم يقول لهم: كنا قادرين على أن نبدل أمثالكم، أي نصور أجسامكم تصويرا آخر، غير ما أنتم عليه، فيكون قدر الموت فيها مختلفا عن قدره في أجسامكم، ولكن شئنا أن نصوركم هكذا: (فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ).

المرحلة الثانية: مرحلة الإحياء (النفخ):

وهذه المرحلة هي مرحلة النفخ، حيث ينفخ الله في المخلوق، والنفخ يعني: إرسال النفس إليه. وبذلك تتزوج النفس جسمها، فيصبح كائنا حيا بإذن الله. (وسأتحدث عن النفخ في الفقرة التالية).

والنفس تمثل هوية الكائن الحي، وهي مستودع الإحساس

والحركة والفعل، ومحل الشعور والخواطر... وهذا لعامة الكائنات الحية، مع تفاوت في (إمكانات النفس) التي أودعها الله إياها، فالله زود كل نفس بالإمكانات التي تناسبها، وتمكنها من الحياة والعيش وفقاً لما خلقت له.

والله حين يمسك النفس، فإن المخلوق يكون ميتا، وحين يرسل النفس إليه فإنه يكون حيا بإذن الله.

وكل مخلوق مصور كان ميتا، فأحياه الله (أي: أرسل إليه نفسه)، ثم يميته: (أي: يمسك نفسه)، ثم يحييه يوم القيامة (أي يرسل إليه نفسه مرة أخرى)، فيرجع إلى ربه.

❖ ❖

ولو ضربنا مثلاً، فإن صانع الكمبيوتر يصنع القطع المادية ويسويها، ويركبها، بحيث تكون مهيأة لاستقبال البرامج المشغلة. ثم يقوم بـ(تنزيل برنامج التشغيل) على الجهاز.

ثم إن برنامج التشغيل يشغل الجهاز المناسب له، فبرنامج تشغيل جهاز التلفاز يختلف عن برنامج تشغيل جهاز الكمبيوتر، ويختلف عن برنامج تشغيل جهاز الهاتف النقال... وكما تختلف البرامج فكذلك تختلف الأجهزة المصنوعة، فكل جهاز يصنع بطريقة تتناسب مع برامجه المشغلة. ولذلك فبعد مرحلة زمنية تقوم الشركة المصنعة بصنع أجهزة أخرى لتتناسب مع برامج تشغيلية أكثر تطورا، وهكذا. فجهاز الكمبيوتر الذي صنعه البشر قبل خمسين عاما، لا يمكن أن تشغله برامج التشغيل الحديثة....

ولله المثل الأعلى،

فالله خلق الجسم، وصوره، فالجسم المصور بمثابة الجهاز (القطع المادية)، فهيأ كل جسم لبرامج تشغيل خاصة به، و(النفس) هي برنامج التشغيل، فلكل جسد مصور النفس التي تتناسب معه، وهي مزودة بإمكانات تناسب جسدها المصور. وإرسال النفس إلى الجسم، (نمثله بتحميل برنامج التشغيل على الجهاز).

والله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة، فقد صور الجسم من أول مرة تصويرا يناسب النفس، فلا يحتاج إلى تحديث أو تطوير. فلا تبديل لخلق الله: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

❖ ❖

ثانياً: النفخ في المخلوق والنفخ فيه من الروح:

بعد أن خلق الله الجسم وأحسن خلقه، وسواه، نفخ الله فيه من روحه، فأودع فيه (النفسَ)، فأصبح حيا بإذن ربه.

ويبين القرآن الكريم أن ثمة نوعين من النفخ:

النوع الأول: النفخ في المخلوق

النفخ لغة: نفخ الريح في الشيء أي أدخلها فيه، مما يؤدي إلى انتفاخ الشيء (أي: تكبيره وتعظيمه).

فالنفخ هو إرسال النفس إلى المخلوق. وكل مخلوق يرسل الله

إليه نفسه، فيصبح حيا بإذن ربه.

فنفخ الله في الشيء: أي أرسل في ذلك الجسم شيئا، وهذا الشيء هو النفس، وبدخولها إلى الجسم، يأخذ الجسم هويته وبصمته، ويكبر الجسم كبرا محسوسا وغير محسوس، ويكتسب حياة لم تكن فيه.

ويدل على هذا ما ورد في قوله: (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ)، (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي).

فالآية تبين لنا أن عيسى عليه السلام أعطاه الله قدرة خلق الطير.

ويتبين من الآية أن لخلق الطير مرحلتين، الأولى: مرحلة الخلق (أخلق من الطين كهيئة الطير). والمرحلة الثانية: النفخ، فهو ينفخ في الطير فيكون طيرا سويا بإذن الله. والنفخ أنه يرسل فيه النفس بإذن ربه، فالله أعطى عيسى (نفسَ الطير)، وأمكنه أن يرسلها إلى جسمه، فيصبح طيراً. فعيسى لم يخلق (نفسَ) الطير، ولكنه أرسلها إلى جسمه، فأصبح طيرا بإذن الله، أي بأمر الله، لا بأمر أحد من الخلق.

فالنفخ في المخلوق: إرسال النفس إليه، فيحيا بإذن الله. وليس نفخا فيه من روح الله.

والنوع الثاني: النفخ في المخلوق من روحه

وهذه خاصة اختص بها الإنسان، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)، وقال: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).

فالله نفخ في جسد (آدم) من روحه، فأرسل إليه (نفساً مكلفة)، فهي نفس قد أودع الله فيها أمره، والروح من أمر ربي.

وبذلك ندرك أن النفخ في المخلوق من روح الله لم يكن إلا لآدم، أما غير من المخلوقات، فإن الله ينفخ فيها، فيرسل إليها نفوسا غير مكلفة، ومن ثم لا يكون النفخ فيها من روحه؛ لأن الروح هو التكليف، والله بين أنه كلف بني آدم، وحملهم الأمانة. فهذه (النفس المكلفة) هي الأمانة التي حملها بنو آدم.

ومن المحقق أن تكليف الله للإنسان يختلف عن تكليفه للجانّ، فالله خلق الإنسان ونفخ فيه من روحه، وهذا لم يكن لغيره من الخلق، وحين ميزه بهذا الشيء أمر ملائكته وإبليس بالسجود لآدم:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ).

فإبليس أبى أن يسجد لميزة ميز الله آدم بها، وشعر إبليس أن الله فضل آدم عليه، وهذه الميزة ليست الخلق من الطين، إنما هي النفخ فيه من روحه، غير أن إبليس حين قال: (لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ)، أراد أن يغض من قدر آدم، فهو يقول: لم يستحق أن أسجد له وهو مخلوق من طين؟! وهذا من تحايله على أمر ربه، فالله أمره لأنه نفخ في آدم من روحه، ولم ينفخ في مخلوق غيره من روحه.

ولذلك فقد مكن الله الناس، أي: آتاهم الإمكانات التي يستطيعون أن يقيموا أمر الله، ويصلحوا في الأرض، ويكونوا خلفاء فيها. ولم يؤت أحدا غيرهم هذا التمكين.

❖ ❖

وإذا النفوس زوجت:

وقوله تعالى: (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)، يبين هذه الحقيقة، فالآية تتحدث عن يوم القيامة، فبعد أن ينشر الله أجساد الموتى كما ينشر نبات الأرض، يرسل النفوس إلى أجسادها، فكل نفس تقترن بجسمها. وهذا يبين لنا أيضاً طريقة نفخ الروح في جسد آدم، فالله نفخ فيه من روحه، وفي هذه النفخة أرسل إليه النفس فتزوجت بالجسد.

كما يبين لنا القرآن الكريم أن إحياء الموتى يوم القيامة سيكون بعد النفخ في الصور النفخة الثانية، قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)، وقال: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)، وقال: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ

الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا)، فاستيقاظهم جاء بعد النفخة الثانية.

ففي النفخ ترسل النفوس إلى أجسادها، فتستيقظ.

وهذه الآية يراها الإنسان كل يوم، فالجسم يستيقظ بعد أن يرسل الله إليه النفس التي توفاها (أي: أمسكها) عند منامه، فإذا أرسلها الله استيقظ (وهذا تزويج النفوس). قال تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى).

وكذلك شأن الخلق الأول من كل حي، نفخ الله فيه، فأرسل إليه نفسا، فإذا هو حي بإذن الله.

أما آدم فقد نفخ الله فيه من روحه، فأرسل إليه نفسا مكلفة، فأصبح حيا مكلفاً بإذن ربه.

وبذلك أصبح آدم إنساناً، مركبا من: جسد مصور ونفس مكلفة. ومن الخطأ القول إنه مركب من: جسد ونفس وروح. لا وجود لشيء ثالث في الإنسان، إنما هو: جسد ونفس.

❖ ❖

إذن الإنسان مركب من جسد ونفس مكلفة، فالنفس مزوجة بالجسد. فحين يرسل الله النفس إلى الجسم فتكون حياة الشيء بإذن الله، وحين يمسك الله النفس، وذلك بقبضها من الجسم، فإنها تفارق الحياة.

وقد قضى الله أن ينشئ النسل من الأصل، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ)، وقال: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً).

فبعد أن خلق آدم، ونفخ فيه من روحه، فأرسل إليه النفس (الأصل)، وهي النفس الواحدة، فخلق منها نفسا أخرى، وهي أنثاه، لتكون الأنثى زوجا للذكر، ثم بث منهما نسله، وقضى أن يكون النسل بطريق الزوجية (فمستقر، أي نطفة تستقر في الأرحام)، (ومستودع: ثم يستودعون في بطون الأمهات)، ثم يخرجون طفلاً.

قال تعالى: (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)، أي: بدأ خلق الإنسان من طين، وقضى بأن يكون نسله من ماء مهين، وليس من طين، فالأصل من الطين، والنسل من الماء المهين.

وقوله (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) الضمير يعود إلى الإنسان (المقصود به: آدم) وليس إلى النسل، أي: ثم سوى ذلك الأصل ونفخ فيه من روحه. وقوله (ثم جعل نسله..) يبين سنة مجيء النسل، فهي جملة معترضة. فمعنى الآية: بدأ خلق الإنسان من طين، وسواه ونفخ فيه من روحه، كما في آيات ص، وجعل نسله من ماء.

❖ ❖

والله سبحانه وتعالى بين أن أعطى عيسى إمكان إحياء الموتى (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ)، فالله آتى عيسى (نفسَ الميت)، فيرسلها عيسى إلى جسد الميت بإذن ربه، فيعود حياً. فالنفوس ممسوكة عند

الله، وحين يحيي أحدا يرسل إليه نفسه فيحيا.

وهذه القدرة هي التي أعطاها الله لملك الأرحام، كما جاء في الحديث: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما: نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك، فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد). فالملك يأتي ومعه (النفس)، فينفخ في جسد الإنسان من روح الله، أي: يرسل النفس المكلفة إلى الجسد، فتدخل النفس في الجسد، وفي النفس القدر المكتوب للإنسان: الرزق والعمل والأجل والشقاء أو السعادة. فهذه الأقدار مكتوبة في النفس (فالنفس تأتي إلى الجسد وهي تحمل شفرة الحياة، فهي البصمة الخاصة به التي تميزه عن غيره).

❖ ❖

فالخلاصة أن:

إرسال النفس إلى الجسم يكون بالنفخ، وهكذا في كل كائن حي. وأما الإنسان فقد نفخ الله فيه من روحه، أي: أرسل إليه النفس المكلفة، فأصبح بإذن الله بعد النفخ إنسانا مكلفا.

وقد بين أن إحياء الموتى يوم القيامة يكون بعد النفخة الثانية.

وكذلك بين لنا أن عيسى عليه السلام أعطاه الله قدرة خلق الطير، بالنفخ فيها.

❖ ❖

ثالثاً: النفس والنفس المكلفة:

قسمت (النفس) قسمين: النفس المكلفة والنفس غير المكلفة.

النفس المكلفة:

أما النفس المكلفة، فهي النفس التي سواها الله فألهمها فجورها وتقواها، وأودع فيها أمره، وكلفها بتنفيذه، وزودها بالإمكانات التي تمكنها من القيام بما أمرت به. وهذه تسوية الله للنفس.

قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)، أي: أن الله سوى النفس قبل أن يرسلها إلى الجسد، فكتب فيها كل أقدارها، وألهمها كيف تتعامل مع تلك الأقدار، من فجور وتقوى، وبر وإثم، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، وخير وشر، وما جبلت عليه من أخلاق، وما أضمرته من نوايا... إلخ.

وتبين آيات القرآن الكريم أن تكليف الله وقع على النفس: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)، وقد ذكر لفظ (كلّف) في القرآن الكريم سبع مرات، وكلها وقعت على النفس: (لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا)، (لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ)، (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) ثلاث مرات، (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا). فالنفس هي المكلفة.

والله سوى هذه النفس تسوية خاصة بها، فأودع فيها أمر التكليف، ثم نفخ في الإنسان من روحه، فأرسل إليه هذه النفس حاملة تكليف ربها. وقد زودها بما يؤهلها للقيام بهذا التكليف.

النفس غير المكلفة:

وهي نفس عامة الكائنات الحية، فهي نفس غير مكلفة، فلم يودع الله فيها من روحه، أي لم يودع فيها أمر التكليف (فالروح هو أمر التكليف)، بل أودع فيها الإمكانات التي تجعل الجسم يحيا بإذن ربه حين تسكنه النفس، فيمتلك إمكانات الحس والحركة والفعل والشعور الذي يناسب حياته.

ومن العبث أن يحاول بعض الناس البحث عن أصل الإنسان في حيوانات أخرى، أو يحاولون تربية بعض الحيوانات ليمكنوها من إمكانات الإنسان. فمثلهم كمثل من يريد تشغيل جهاز الكمبيوتر بالطريقة التي يشغل بها السيارة، فالسيارة تُشغَّل بالطاقة، أما الكمبيوتر فيُشغَّل ببرامج التشغيل المعروفة (والمثل للكمبيوتر والسيارة في الوقت الراهن، ففي المستقبل يمكن للإنسان أن يفعل ذلك).

فالنفس المكلفة لها خواصها التي سواها الله عليها، فهي نفس مختلفة عن عامة النفوس، في أصلها، وليس في تطورها، أو ما تكتسبه. لا بل أصلها التركيبي مختلف اختلافا تاما عن النفس غير المكلفة. وكل نفس مزودة بإمكانات تناسبها.

❖ ❖

خلاصة الحقائق التي نتعلمها من القرآن الكريم ما يلي:

الكائن الحي يتركب من جسم مصور، وأودع فيه: النفس، فأصبح حياً بإذن الله.

أما الإنسان فهو: جسد مصور، أودع لله فيه: النفسَ المكلفة، فأصبح حياً مكلفاً بإذن الله. فالإنسان: جسد مصور ونفس مكلفة.

❖ ❖

رابعاً: عيسى كمثل آدم:

بين القرآن الكريم لنا أن الله نفخ في آدم من روحه (أي: أرسل إليه النفس الأصل)، ومن هذه النفس الواحدة أنشأ ذريته كلهم، وذلك بطريق سنة الزوجية، حيث اقتضت هذه السنة أن يلقح الذكرُ الأنثى، فتكون مستقرا لنطفته، فتتخلق النطفة في الرحم (وهو المستقر)، حتى يأتي الملك بعد أربعين يوماً، فينفخ فيه (أي: يرسل النفس إليه)، فعندئذ يصبح الجنين (جسدا ونفساً) فيكون في المستودع (البطن)، حتى يخرج طفلاً.

كما بين القرآن الكريم أن الله نفخ في مريم من روحه، (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)، وقال: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا). فهذه النفخة مثل النفخة الأولى، ففي النفخة الأولى أرسل الله النفس الأصل إلى آدم ومنها أنشأ النفوس النسل. أما هذه النفخة فإن الله أرسل نفساً واحدة إلى مريم، وهي نفس نبي الله عيسى عليه السلام. فأودعها في رحم مريم، فحملته ثم وضعته. ولذلك كانت مريم وابنها آية للعالمين.

فالبشر جميعا جاءوا من النفخة التي نفخ الله في آدم من روحه. أما عيسى فجاء من نفخة أخرى نفخ الله في مريم من روحه.

فكما أن خلق آدم كان بأمر الله (وأمره هو أن نفخ فيه من روحه)، فكذلك عيسى كان خلقه بأمر الله (وأمره أن نفخ في أمه من روحه فحملته). قال تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). أي: خلقه من تراب، ثم نفخ فيه من روحه فقال له كن فكان. وسأتحدث عنها لاحقاً.

إذن كان عيسى عليه السلام مخلوقا بأمر الله، حيث نفخ في أمه من روحه، وكذلك آدم فهو مخلوق بأمر الله (كن فيكون)، حيث نفخ فيه من روحه. أما بنو آدم كلهم فهم مخلوقون بسنن الله في خلقه، (وهنالك فرق بين سنن الله في خلقه، وسننه في أمره)، فسنن الله في الخلق، حيث قضى أن يخلق النسل عن طريق سنة الزوجية (وهي من سنن الخلق)، أما آدم وعيسى فخلقهما بالنفخ من روحه، (والروح من أمره لا من خلقه).

ولما كان عيسى مختلفا عن عامة بني آدم، فقد ذكر الله بأنه روح منه، فقال: (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ). أي: خلقه الله بأمره؛ إذ نفخ في مريم من روحه فأرسل إليها (نفسَ) عيسى، فحملته، فوضعته. فعيسى كآدم، كلاهما خلقا بأمر الله (كن فيكون)، ولم يخلقا بسنة الزوجية والتناسل.

وهذا هو معنى الأمر في قوله: (قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا)، أي: كان خلق عيسى بأمر الله الذي قضاه، وقال: (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ

وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

وكل الآيات التي في القرآن الكريم التي تتحدث عن خلق البشر، والتي جاء فيه أن الله نفخ فيه من روحه، فالمقصود بها آدم، وهي ثلاث آيات، في الحجر وفي ص، ودلالتها واضحة، وفي سورة السجدة: (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)، والمقصود بهذا آدم، فهو الذي نفخ الله فيه من روحه، والآية جاءت لبيان أن الأصل (آدم) خلق بأمر الله؛ إذ نفخ فيه من روحه، أما النسل فخلق بسنة الله في خلقه وهي الزوجية (جعل نسله من سلالة من ماء مهين). ففرقت الآية بين خلق آدم وخلق نسله. وبينت لنا أن خلق الأصل كان بأمر الله (كن فيكون).

❖ ❖

فالخلاصة إذن أن للخلق مرحلتين:

الأولى: مرحلة الخلق والتصوير:

- بالنسبة إلى آدم، فقد خلق من طين، فأخرجه الله من الأرض، وأنبته كما ينبت النبات، وهذا خلق الأصل.
- وبالنسبة إلى ذريته، فقد خلقوا من ماء مهين.

الثانية: مرحلة النفخ

- بالنسبة إلى آدم، فقد نفخ الله فيه من روحه، فأصبح رجلاً سويا.

- وبالنسبة إلى نسله، فإن الجنين حين يبلغ اثنين وأربعين يوما، يرسل الله الملك وهو حامل للنفس، فينفخ في الجنين، أي: يرسل النفس إليه، ومن ثم ينشأ خلقا آخر. (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ).

كيف خلق عيسى إذن؟

آدم خلق من طين، ثم نفخ الله فيه من روحه.

وبنوا آدم خلقوا من ماء مهين، ثم يأتي الملك فينفخ فيهم الروح.

أما عيسى فلم يخلق من الطين، فلم يشبه آدم في هذه. ولم يخلق من ماء مهين، بنص القرآن الكريم: (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا).

وآدم بعد أن تَخَلّق جسده وخرج من الأرض وصوره الله - نفخ الله فيه من روحه، فأصبح حيا. (أما بنوه فيخلقون ويصورون في أرحام أمهاتهم، ثم يرسل الله الملك حاملاً نفوسهم).

وعيسى، نفخ الله في فرج أمه مريم من روحه، ومن ثم لم يمر عيسى بمرحلة التخلق البشري (نطفة، فعلقة، فمضغة)، بل تجاوز هذه المرحلة (ثمانية أسابيع، أي: شهران تقريباً). كما أنه تجاوز مرحلة الخلق الآخر التي يمر بها بنو آدم (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) وتستمر سبعة أشهر، فهي مرحلة تابعة للمرحلة الأولى. أما عيسى فإنه خلق بأمر الله. وقد اختلف المفسرون في مدة حمل مريم، والأرجح كما يبدو لي ما قاله ابن عباس: أنها حين حملت وضعت.

فبعد أن نفخ فيها من الروح، حملته فانتبذت به فوضعته في ساعتها.

وقصة مريم في سورة مريم تبين أن مجيء الرسول إليها، وحملها ووضعها في اليوم نفسه. قال تعالى: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا).

فهذا الحوار الذي دار بين الرسول ومريم، فبين لها أن الله قال: (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا). وبهذا انتهى الحوار.

ثم قال: (وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ)، أي: فقضى الله الأمر، فقوله (وكان أمرا مقضيا) ليس من قول الرسول، وإنما هو إخبار عما تم، كما قال عن خلق آدم (ثم قال له كن فيكون)، فقوله (وكان أمراً مَقْضِيّاً) في هذه السورة كقوله في سورة الأنبياء: (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا)، فهذا هو الأمر المقضي: أن الله نفخ فيها من روحه. وعندئذٍ حملتْ فوضعتْ.

ومما يدلّ على ذلك أيضاً أنّ قومها عندما عادت إليهم استنكروا: (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)، فهم لمْ يستنكروا من قبل، فلو أنها حملت من قبل واستمر حملها

عدة أشهر لرأوها وأنكروا عليها، ومن المستبعد أن تغيب عنهم مدة طويلة ولا يدرون عن أمرها، ولا يسألون عنها، فغيابها كان أمراً طبيعياً، ذهبتْ مكاناً شرقياً كما تذهب إليه في العادة، فغابت عنهم يوماً أوْ أقلّ، كما تغيب في العادة، ثم عادت بغلامٍ تحمله فأنكروا.

❖❖

وهذه الآية (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) تبين كيف أن (الروح) من أمر الله، قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)، أي: الروح من أمر الله، والله له الخلق والأمر.

فخلْق الله له سنن، وأمره له سنن. والله قد أمكن الناس من إدراك سننه في خلقه، ولم يمكنهم من إدراك سننه في أمره، ولذلك قال: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)، أي: أنتم أوتيتم قليلاً من العلم، وبهذا القليل تدركون سنن الله في خلقه، أما سننه في أمره فعلمها عند ربي.

ومن سنن الله في أمره ما بينه في قوله: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، (وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، فهذا أمره، فهو خلق آدم من تراب (فهذا مِنْ خَلْقه)، ثم نفخ فيه من روحه (فهذا مِنْ أمْره).

(وسأدرس هذه القضية مفصلة إن شاء الله، في بحثي: قدرة الله واستطاعة العبد).

❖❖

خامساً: الوفاة والنوم والموت:

الوفاة هي إمساك النفس من الجسد المصور، ولهذا الإمساك ثلاث حالات:

الحالة الأولى (الأموات): إمساك النفس بعد تصوير الجسم. فبعد أن يصور الله الجسد يمسك النفس فيكون ميتاً، قال تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ).

ثم الإحياء الأول بعد أن يرسل الله النفس للجسد.

الحالة الثانية (النوم): إمساك النفس إمساكاً مؤقتاً، وذلك حين النوم، فلا تنام إلا الكائنات ذوات النفوس، قال تعالى: (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى). وفي هذه الحالة يظل الجسد المصور يقوم ببعض الوظائف التي تحافظ عليه حتى يكون متهيأ لعودة النفس إليه.

وحين يرسل الله النفس إلى الجسم مرة أخرى، فإنه يُبعَث (يستيقظ)، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى).

والبعث في هذه الحالة لا يسمى إحياء، فالإحياء لا يعني إرسال النفس بعد إمساكها إمساكا مؤقتا.

الحالة الثالثة (الموت): إمساك النفس إمساكا تاما، فيمسك الله النفس ولا يرسلها إلى الجسم مرة أخرى. وهذا هو الموت، كما

بينت آية الزمر.

والبعث في هذه الحالة يسمى: إحياء.

فالخلاصة أن البعث يطلق على إرسال النفس بعد إمساكها إمساكا مؤقتا أو إمساكا تاما. ولا يطلق على إرسال النفس لأول مرة.

والإحياء يطلق على إرسال النفس لأول مرة، أو إرسالها بعد إمساكها إمساكا تاما، ولا يطلق على إرسالها بعد إمساكها إمساكا مؤقتا.

فيشترك البعث والإحياء في إرسال النفوس إلى الموتى يوم القيامة.

وهذا يبين أن إمساك النفس إمساكا مؤقتا، لا ينزع عنها صفة الحياة، فيظل الجسم حيا، ويظل مرتبطا بالنفس التي أمسكت عنه مدة من الزمن.

أما في حال الموت فإن الجسم يتوقف توقفا تاما، وتنقطع علاقته مع النفس.

فالإحياء إذن: إرسال النفس إلى الجسم الميت (سواء أكان ميتا قبل حياة، أم ميتا بعد حياة)، أما البعث فهو إرسال النفس إلى الجسد أثناء حياته أو بعد حياته.

وسأفصل الحديث عن هذه الحالات في المباحث القادمة من هذا الكتاب، إن شاء الله.

المبحث الثاني: حقيقة الموت والحياة

تبين الآيات القرآنية مجموعة من الحقائق المتعلقة بالموت والحياة، كما يلي:

١. الموت والحياة شيئان مخلوقان.

٢. الموت والحياة يقعان على النفس والجسم.

٣. الكائنات الحية صنفان: حي لغيره وحي لذاته، والثاني قسمان: كائنات مائية وكائنات نفسية.

٤. الماء سبب لحياة الأصل الأول من كل شيء حي.

وسأبدأ ببيان مفهوم كل من الموت والنوم والحياة.

□

المطلب الأول: مفاهيم الموت والنوم والحياة

الموت: ***شيء يغشَى الجسم؛ فيخليه إخلاء تاما من النفس.***

النوم: ***شيء يغشَى الجسم؛ فيخليه إخلاء مؤقتاً من النفس.***

الحياة: ***إقامة النفس في الجسم.***

الإماتة: ***إمساك النفس إمساكاً تاما عن الجسم الحي.***

الإحياء: **إرسال النفس إلى الجسم الميت.**

❖ ❖

أولاً: الموت:

شيء يغشَى الجسم؛ فيخليه إخلاء تاما من النفس.

الجسم هو الجسم المصور، كما بينته سابقاً، وهو الجسم المخلوق الذي صوره الله، أي ركبه فجعله قابلا لاستقبال النفس، فهو الجسم القابل للحياة. ويكون ميتا (حين يخلو خلوا تاما من النفس)، وتعريف الموت أنه شيء يحل في الجسم، لأن القرآن الكريم يبين لنا أن الموت شيء مخلوق، (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)، وتحدث عنه بأنه يحضر ويجيء ويأتي ويدرك.. (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)... ومن ثم فحلول الموت في الجسم يؤدي إلى إخلائه إخلاء تاماً من النفس.

ويدل على الخلو التام من النفس ما أخرجه مسلم عن أم سلمة،

قالت: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قُبض تبعه البصرُ». قال النووي: (معناه إذا خرج الروح من الجسد يتبعه البصر ناظرا أين يذهب). وهذا يدل على أن خروج النفس من الجسد يكون بالتدريج، وسأتحدث عن هذا الأمر.

وإخلاء الجسم المصور من النفس يكون في حالتين:

الحالة الأولى: بعد التصوير، وقبل النفخ فيه. وسأفصلها في مطلب لاحق، فهذه مرحلة خلو وليست إخلاء، أي أن الجسم بعد تصويره يقدر الله فيه الموت، فيخلو من النفس.

الحالة الثانية: بعد حياة الجسم في الدنيا، فإذا جاء الأجل المسمى للشيء، فإن الله يمسك نفسه، فيخلو جسمه خلوا تاما من النفس، وبذلك تموت النفس، أي تفارق جسدها الذي كانت فيه مفارقة تامة في الدنيا.

وقولي (خلوا تاما)، احتراز من حالة النوم، كما سيأتي.

وتعريف الموت أنه: خلو الجسم من النفس خلوا تاما، تعريف له بحقيقته لا بعلاماته، والبشر لا يعلمون كيفية الخروج، ولا يمكنهم التحقق من هذا الأمر، ولكنهم يعرفون الموت بعلاماته، وهناك عديد من العلامات التي يذكرها العلماء للموت، وأهمها: توقف القلب، وتوقف التنفس، وفقد الوعي والإحساس فقدا تاما. وهناك جدال بين العلماء بشأن ما يسمونه (موت الدماغ)، وهذا خارج نطاق البحث، إلا أنني أود القول أن مصطلح (موت الدماغ) غير صحيح، فلا ينسب

الموت إلى الدماغ ولا إلى القلب ولا إلى غيره، ولكن ينسب إلى النفس، أما الدماغ وغيره فالمصطلح الذي ينسب إليه هو: (التوقف)، فنقول: توقف القلب، وتوقف الدماغ... إلخ.

❖ ❖

ثانياً: النوم:

شيء يغشَى الجسم؛ فيخليه إخلاء مؤقتاً من النفس.

قال تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، فالنوم شيء من جنس الموت، حين يحل بالجسم يؤدي إلى إخلائه إخلاء مؤقتا من النفس. وبذلك يظل الارتباط بين الجسم والنفس مستمرا، ولا ينقطع إلا بالموت.

❖ ❖

ثالثاً: الحياة:

إقامة النفس في الجسم.

فالجسم يحيا حين تقيم فيه النفس، وإقامة النفس في الجسم لها حالتان:

الحالة الأولى: الإقامة الأَجَليّة (نسبة إلى الأجل)، فالنفس تقيم في الجسم إلى أجل مسمى، فإذا قضى الله ذلك الأجل فارقت الجسم، وانتهت الحياة، قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا).

ولهذه الحالة مظهران:

المظهر الأول: الحياة التامة (اليقظة)، وذلك أثناء اليقظة، فالنفس مقيمة في الجسم متصلة به، وفي هذه الحالة تقوم النفس بوظائفها من خلال الجسم، كاملة.

المظهر الثاني: الحياة الناقصة (المنام)، فالنفس أثناء النوم تفارق الجسم فراقا مؤقتا، فهي منفصلة عنه، ولكنها مرتبطة به، فهو انفصال مع ارتباط، ولذلك فهي في حالة حياة ناقصة. والفراق المؤقت لا ينافي الإقامة، كم يقيم في بلد ما، ثم يسافر ليقضي حاجة ويعود إلى بلده، فوصف الإقامة لا ينفك عنه.

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى)، فأشارت الآية إلى المظهرين، وهما: الحياة الناقصة (يتوفاكم بالليل)، والحياة التامة (يبعثكم فيه)، وبين أن هذا الأمر يستمر في الدنيا حتى يقضي الله الأجل المسمى، فالنفس مقيمة إقامة أجلية في الجسم، أي: إلى أجلها المسمى.

الحالة الثانية: الإقامة الخالدة. فالنفس تقيم في الجسم إقامة خالدة، ولا تفارقه أبدا، ومن ثم فلا نوم ولا موت. وهذا الخلود سيكون في الآخرة، سواء لأهل الجنة أو لأهل النار.

جاء في الصحيحين مرفوعاً: (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار

فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيُذْبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت).

□

المطلب الثاني: الموت شيء مخلوق

أولاً: خلق الموت والحياة:

الحياة والموت مخلوقان، كما قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)، فهما شيئان مخلوقان، يخلقهما الله في الأشياء المخلوقة. ولذلك فإن الله وحده هو من يملكهما، قال تعالى: (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا).

وفي الآيتين قدم الموت على الحياة، أي خلق الموت فيكم أولاً، فكنتم أمواتا. كما قدمه في قوله: (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا)، فذكر الحالات الثلاث: الموت، والحياة، والنشور.

والإماتة: إمساك النفس إمساكاً تاما عن الجسم الحي.

والإحياء: إرسال النفس إلى الجسم الميت.

وهناك أربع مراحل للجسم المصور:

المرحلة الأولى: (كنتم أمواتا)، وهي إمساك النفس بعد تصوير الجسم. فهذه مرحلة موت، ولا تسمى إماتة؛ لأن النفس لم ترسل إلى الجسم بعد، ولكن الجسم يحل به الموت بعد تصويره.

المرحلة الثانية: الإحياء الأول، وذلك بإرسال النفس لأول مرة إلى الجسم الميت، فيصبح حيا في الحياة الدنيا.

المرحلة الثالثة: الموتة الأولى، وهي: إمساك النفس بعد الحياة الأولى للجسم. (وهو الموت الذي قضاه الله على الأحياء).

المرحلة الرابعة: الإحياء الثاني، وهو إرسال النفس إلى الجسم بعد الموتة الأولى، فيصبح حيا في الآخرة.

وقد اجتمع ذكر هذه المراحل في قوله تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ). قوله (وكنتم أمواتا): حالة الموت، (فأحياكم): الإحياءة الأولى وهي الحياة في الدنيا، (ثم يميتكم): الإماتة الأولى، (ثم يحييكم): الإحياءة الثانية، وهي الحياة في الآخرة.

وسأفصل الحديث عن هذا في مطلب قادم.

❖ ❖

ثانياً: الموت شيء يغشَى الجسم:

يبين القرآن الكريم أن الموت شيء موجود، فهو ليس شيء عدمي، بل وجودي، ونحن لا ندري كنهه، ولكن القرآن الكريم أخبرنا عنه بأنه يحضر إلى الحي: (إِذَا **حَضَرَ** أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)، (حَتَّى إِذَا **جَاءَ** أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)، (أَيْنَمَا تَكُونُوا **يُدْرِكُكُّمُ** الْمَوْتُ)، (**يَأْتِيَ** أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)، (إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ **مُلَاقِيكُمْ**)، والإنسان يفر منه: (فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ). وكل هذه صفات شيء موجود، وليس شيئا عدميا.

كما أخبرنا القرآن الكريم عن الموت أنه يتوفى: (فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ)، أي: يمسك الموت نفوسهن، فالتوفي هو إمساك النفس. فالآية تبين أن الموت إذا حل بالجسم أمسك النفس

وأخرجها من الجسم، فأخلاه منها، وإسناد التوفي إلى الملك باعتبار أن الملك يأتي ومعه الموت، فيدخل الموت في الجسم، فيمسك النفس، ثم يأخذها منه الملك، ومن ثم أسند التوفي إلى الموت، كما أسند إلى الملك. وسأبين هذا في المبحث القادم.

ويبين القرآن الكريم كيف يأتي الموتُ الجسمَ، فهو يغشى الجسم، (تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ)، (يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ). فالغَشْية كما في مقاييس اللغة تدل على: (تغطية شيء بشيء، والغشاء: الغطاء). فالموت حين يأتي يغشى الجسم، أي يغطيه، والميت يعاينه حين يبدأ الموت بتغطيته، وفي هذه الحالة ينظر إلى الموت: (كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)، فيصيبه الفزع، وتدور عيناه من شدة الفزع، ويبدأ الموت بإمساك النفس وإخراجها من الجسم، وهو إخراج استئصال للنفس، بحيث لا يبقى لها مأوى داخل الجسم تعود إليه، ومن ثم فالموت يتتبع أماكن إقامة النفس في الجسم، ويستأصلها، حتى لا يبقى منها شيئا، فإذا تم ذلك خرجت النفس، وأمسكها الملك الذي جاء بالموت.

وحين يغشى الموتُ الجسم، ويبدأ المحتضر بمعاينته، فإنه يجد طعم الموت في كل جزء من جسمه، فالموت يدخل إلى كل خلية من خلايا الجسم، وكل موضع تقيم فيه النفس، ليستأصل الحياة التي كانت هنالك، ولذلك فكل خلية في الجسم تتذوق الموت، (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ).

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عن أم سلمة قالت: دخل رسول

الله صلى الله عليه وسلم على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»، فيدل على أن خروج النفس يكون بالتدريج، والميت يشهد مطاردة الموت لنفسه، ويراها ببصره حين تخرج، وذلك آخر عهده بالحياة.

وقوله تعالى: (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ)، فالنعاس يغشى الإنسان غشيانا، حتى يغطيه تماما، كما قال أيضاً: (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ). ومجيء الموت كمجيء النوم.

وهذا كقوله: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)، فالليل لباس ليس فقط للأرض، بل هو لباس أيضا لكل الكائنات الحية، حيث يغشاها، فهو لباس لها، أي يغطيها ويسترها، ولذلك قرن في الآية بين الليل والنوم.

❖ ❖

ثالثاً: (غمرات الموت):

وقال تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ)

فالغمر كما في مقاييس اللغة: (تغطية مع شدة، ومنه الغمر: الماء الكثير؛ لأنه يغمر ما تحته).

فغمرات الموت، هو غشيان الموت للكائن الحي، ومعالجة المخلوق لشدة الموت حين يغشاه شيئا فشيئا، ويجفف منابع حياته، سواء التي

لجسمه أو التي لنفسه.

كما تبين الآية أن الموت حين يغشى الجسم، يغمره شيئا فشيئا حتى يغطيه تماما، ولذلك لم يقل (غمرة الموت)، فهي غمرات، ينتقل الموت من غمرة إلى غمرة أشد، حتى يصل إلى الغمرة الأخيرة فيموت.

وحديث القرآن الكريم يبين لنا أن الموت حين يحضر، فإن المحتضر لا يموت مباشرة، بل يعيش غمرات الموت حتى تنتهي، ولذلك فهو يستطيع أن يوصي أو يقوم بأعمال ما، كقوله: (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي)، (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)، (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ). .. إلخ.

وفي الآية: (وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ) تبين لنا أن الملائكة يحضرون الموت، والموت يغشى الجسم، والملائكة تنتظر حتى ينهي الموت مهمته كاملة، فيسلم النفس إليهم، ولذلك قال: (باسطو أيديهم)، أي بسطوا أيديهم وانتظروا أن يسلمهم الموتُ نفسَ الميت. ولذلك فهم يقولون للمحتضر: أخرج نفسك لو كنت تستطيع. فالذي يخرج النفسَ هو الموتُ، يخرجها ويسلمها إلى الملائكة الذين بسطوا أيديهم، لإمساك النفس والانطلاق بها إلى مستقرها.

❖ ❖

رابعاً: (سكرة الموت):

قال تعالى: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ).

وهذه الحالة، من حين دخول الموت الجسم إلى الخروج التام للنفس هي حالة (سكرة الموت)، أي: إغلاق كل المنافذ التي كانت تنفذ منها النفس إلى الجسم فتقيم فيه. فالسَّكْر في اللغة العربية: حبس الماء.

فالنفس لها منافذها إلى الجسم، ولذلك فهي حين تغادر الجسم وقت النوم، تعود من تلك المنافذ، وتسري فيه كله، فيكون أثرها في كافة أجهزة الجسم وخلاياه. والموت يغلق كل هذه المنافذ منفذا تلو الآخر، والمحتضر يعاني من هول ما يفعله الموت.

كما أن الموت يقوم بإخلاء الجسم من الماء الذي فيه، فالجسم يحيا بالماء (كما سأبين)، فيحبس الماء عن الجسم، حتى يجف منه، فيفقد الجسم ماءه، ولا يعود قابلاً للحياة.

وعليه فسكرة الموت، تبين لنا كيف أن الموت يقوم بفعلين:

الأول: حبس منافذ النفس، واستئصال أماكن إقامتها في الجسم، حتى لا يبقى لها فرصة للرجوع.

والثاني: حبس الماء عن الجسم، فيخلو الجسم من العامل الأساس في حياته.

❖ ❖

خامسا: نحن قدرنا بينكم الموت:

بعد أن يخلق الله الشيء ويسويه ويصوره، فيصبح جسما مصوراً، يأتيه الموت، ولكن لأن الموت في هذه الحالة لا يأتي بعد حياة، فإنه يسكن في الجسم؛ إذ لا أعداء له حتى يستأصلهم. فيظل مقيما في الجسم حتى تأتي الحياة، فتطرد الموت، ويرسل الله النفس إلى الجسم، فتقيم فيه. غير أن الموت لم يغادر مغادرة تامة، فيظل يعاود الجسم كل ليلة (وذلك أثناء النوم)، فيستلب الحياة تمامها، ويخرج النفس من الجسد، فتكون حياة ناقصة، ولكن لقوة الحياة فإن الموت لا يستطيع السيطرة على الجسم، وهكذا يظل الموت يطارد المخلوق حتى يدركه إدراكا تاما، حين يقضى إليه أجله: (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ).

وأفهم من الآية أن الله خلق كل نفس موتا، كما خلق لها حياة، فقدّر الموتَ، أي: فصله ومنحه الخواص المحددة للمخلوق، ووضع فيه الكيفية والأجلية وكافة المقادير المكانية والزمانية والكمية، كيف يموت المخلوق، ومتى يموت، وأين يموت، وكم عدد أنفاسه، وكم قطرات مائه... إلخ. وتم هذا كله قبل إرسال النفس إليه أول مرة (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ).

سادسا: يحييكم ثم يميتكم:

والآيات الكريمة التي تتحدث عن الإحياء والإماتة تأتي ضمن هذه المراحل. وبتتبع آيات القرآن الكريم نجد أنه يتخذ نمطين

للحديث عن الإحياء والإماتة:

الأول: العطف بين الأفعال بـ(ثم)، وفي هذه يدل على المراحل السابقة: الإحياء، ثم الإماتة، ثم الإحياء.

كقوله مثلا: (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ)، يشير إلى المراحل الثلاث: الثانية والثالثة والرابعة. وقوله: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ)، فذكر المرحلة الثالثة والرابعة وكنى عن الثانية. وقوله: (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، فأشار إلى المرحلة الثانية والثالثة وكنى عن الرابعة.

والثاني: العطف بالواو، كقوله: (وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ)، ففي هذه يشير إلى مطلق الفعل، فالله من شأنه الإحياء والإماتة، ولا يملك هذا أحد غيره. وليس المقصود الحديث عن المراحل. ولهذا فإن الفعل يأتي مطلقا غير واقع على مفعول: (يحيي ويميت)، (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)، (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ)، (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ). بخلاف الاستخدام الأول فلم يأت إلا واقعا على مفعول: (يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ)، (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) أي يميتني الموتة الأولى، ثم يحييني يوم القيامة.

فالخلاصة أنه إذا عطف بـ(ثم) وقع فعل الإحياء والإماتة على مفعول، وكان مقصودا به إماتة أو إحياء معينا، أي يذكر بعض مراحل الإحياء والإماتة.

وإذا عطف بالواو، فإن فعل الإحياء والإماتة يأتي مطلقا دون

مفعول، ويكون المعنى: أن الله هو الذي يفعل هذا الفعل وليس غيره. فهو يتحدث عن الصفة.

❖ ❖

سابعاً: يخرج الحي من الميت:

وقوله تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)، وقوله: (وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)، وقوله: (وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)، وقوله: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ).

فقد ذكر: إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي في أربعة مواضع، وكلها تذكر إخراج الحي من الميت أولا، فهو يتحدث عن سنة من سننه، فكل حي كان قبل حياته ميّتا، ثم خلق الله الحياة فيه فصار حيا، فالله أخرج المخلوق الحي من المخلوق الميت (وهذا إخراج الحي من الميت). ثم بعد أن يصير مخلوقا حيا، يخلق الله الموت فيه، فيصبح مخلوقا ميتا، (وهذا إخراج الميت من الحي).

❖ ❖

ثامناً: ملك الحياة والموت والنشور:

قال تعالى: (وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا). فالله هو الذي يملك الموت والحياة والنشور، ولا يملكه أحد غيره، سبحانه وتعالى.

وقد فسرها المفسرون بالفعل، ففي البسيط للواحدي مثلا:

({وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا} قال مقاتل: أن تميت أحدًا {وَلَا حَيَاةً} ولا يحيون أحدًا {وَلَا نُشُورًا} ولا تقدر الآلهة أن تبعث الأموات)، وقال أبو السعود: (أي لا يقدرون على التصرف في شيء منها بإماتة الأحياء وإحياء الموتى وبعثهم)، وقال ابن عاشور: (والملك في قوله: لا يملكون مستعمل في معنى القدرة والاستطاعة).

وتعليقي على ما سبق، أن حمل لفظ "الملك" هنا على حقيقته أولى من حمله على المجاز (القدرة)، وقد بين القرآن الكريم أن الموت شيء مخلوق، وكذلك الحياة، فالملك فيه حقيقي وليس مجازا عن القدرة. فالآية تبين أن الله يملك الموت والحياة والنشور كما يملك غيرها من الأشياء المخلوقة، وعدم استطاعتنا تصور أن الموت شيء مخلوق مملوك، لا ينفي عنه حقيقة ذلك.

وقد بين سبحانه وتعالى أنه وكل بالموت ملكا من ملائكته، فقال: (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)، فالموت مودع لديه، وملك الموت ملك مسؤول عن إرسال الموت إلى النفس التي جاء أجلها، وإرسال ملائكة يحضرون مع الموت، وبعد أن يمسكها الموت، يسلمها إليهم، فيمسكونها ويعودون بها إلى مستقرها. فملك الموت معه رسل معاونون، قال تعالى: (وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ).

□

المطلب الثالث: النوم والموت والحياة

ذكرت سابقاً أن النوم: ***شيء يغشَى الجسم؛ فيخليه إخلاء مؤقتاً من النفس.***

وهي ظاهرة تتكرر باستمرار، وطالما كان الكائن حياً فإن النوم من لوازم حياته.

وقد ذكرت أن الجسد يقوم بوظائف الحياة حين تكون النفس فيه، أما حين تخرج منه النفس، فإن تلك الوظائف تتوقف، أو تتغير.

قال تعالى: (اللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، وأشرت إلى أن النوم شيء من جنس الموت، حين يحل بالجسم يؤدي إلى إخلائه إخلاء مؤقتا من النفس. وبذلك يظل الارتباط بين الجسم والنفس مستمرا، ولا ينقطع إلا بالموت.

ولكن لماذا النوم؟

هناك عديد من الأبحاث تناولت هذا السؤال والإجابة عنه، من منظورات مختلفة (انظر بحث: النوم والأحلام، محمد الأمراني، مجلة كلية الآداب بجامعة القاضي عياض). وسأحاول أن أضع مقاربة تجيب عن هذا السؤال من منظور قرآني.

يتبين لنا السبب من قوله تعالى: (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)، فسماها دار المقامة، وسميت المقامة لأن النفس تقيم في الجسم إقامة مستمرة، لا

تغادرها. ثم بينت الآية أن أهل الجنة لا يمسهم فيها (نصب) ولا (لغوب)، قال ابن عطية في تفسيره: («النصب» تعب البدن، و«اللغوب» تعب النفس اللازم عن تعب البدن). فالجسم لا ينصب، والنفس لا تلغب. وهذا يعني أن الدنيا لم تكن دار مقامة؛ لأن الجسم ينصب، والنفس تلغب. فالنصب تعب الجسم، واللغوب تعب النفس. وكذلك قرن بين النصب والخلود في قوله: (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)، أي: هم خالدون مقيمون إقامة مستمرة

وقد جاء في قوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)، فلم ينف النصب، بل نفى اللغوب. أما قوله: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)، فأثبت للمجاهدين النصب، والنصب إعياء الأجسام نتيجة الجهاد، فالمؤمن قد ينصب جسمه ولكن لا تلغب نفسه، كما قال لنبيه: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ)، أي: فاجعل جسمك يناله النصب في سبيلي.

وبهذا يتبين لنا أن الجسمَ في الدنيا يصيبه النصب، والنفسَ يصيبها اللغوب، ومن ثم لا يمكن للنفس أن تقيم إقامة مستمرة في الجسم. بل لا بد من مدة زمنية دورية، يعيد الجسم فيها تنظيمه الذاتي، ليستمر في الحياة، وتجدد النفس فيها طاقتها. ولذلك تجد أن من يشعر بالإعياء ثم ينام ولو قليلا يذهب ما به، بل إن الإعياء إذا ازداد عن درجة معينة فإن الإنسان ينام فجأة دون أن يملك نفسه ولو كان يقوم بنشاط من الأنشطة.

يقول العلماء إننا نحتاج إلى النوم لكي نبقى متيقظين، [وأقول بل لنكون أحياء]، فقد أجريت أبحاث على جرذان، حيث حرمت حرمانا كاملاً من النوم، مما أدى إلى موتها (فقد تسبب حرمانها من النوم في ضمور الخلايا وعدم إصلاحها). فالنوم أساس لاستمرار الحياة. فقد يستمر الإنسان أسبوعين دون طعام، ولكنه لا يستطيع الحياة أياما قليلة دون نوم.

ويقرر الخبراء أن النوم يمنح الخلايا فرصة لإصلاح الأضرار التي لحقت بالأنسجة أثناء اليقظة، وترميم الخلايا أو تبديلها بخلايا جديدة. (نقلاً عن بحث مترجم بعنوان: النوم يرمم الخلايا المتضررة). ويقول الأطباء أن السهر يؤدي إلى فقدان التركيز وضعف الذاكرة، واضطراب القلب، واضطراب النطق، وارتعاش اليدين، والإجهاد، والتوتر، والقلق، وإذا لم ينم الإنسان خمسة أيام فقد يفقد الذاكرة تماما ويصاب بالجنون. في حين أن النوم يحافظ على الجسم من كل هذه الآفات، وينقي الخلايا من السموم؛ فيحافظ على نشاطه، ويضبط معدل ضربات القلب، وينظم درجة حرارة الجسم... (هناك عديد من الأبحاث العلمية تناولت ظاهرة النوم، ويمكن الرجوع إليها).

إن النفس (برنامج تشغيل إلهي) للجسم الذي تقيم فيه، والنفس ذات قوة هائلة، فهي حركة ونشاط وحيوية، وهي شيء ذو طبيعة مختلفة عن طبيعة الجسد. فكان لا بد للجسم الذي يحملها من تحديث ذاتي مستمر، بحيث تفارق النفس الجسد مدة زمنية مؤقتة، يقوم الجسم في هذه المدة بالتحديث التلقائي، وإعادة تنظيم

أجهزته المختلفة، لتكون على استعداد مستمر لإقامة النفس.

كما أن النوم استجمام قهري للنفس، وتحديث أيضاً لها، حيث تعود إلى عالمها فتستمد طاقة الاستمرار في الدنيا حتى يأتي أجلها.

ولذلك قضى الله بالنوم، فينام الجسم المصور، ويمسك الله النفس فتعود إلى عالمها الذي جاءت منه، ثم تعود إلى الجسم بعد مدة من الزمن. قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)، وقال: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا). فالنهار معاش ونشور تنشر فيه الأجسام والنفوس، أما الليل فلباس ساتر يغطي الأرض فتسبت فيه الكائنات ذوات الأنفس (الكائنات النفسية)، والسبات: الراحة والسكون. وأصل السبت كما قال الراغب: القطع، وفسرها بقطع العمل، فالنوم قطع للنفس من العمل، وقطع للجسم أيضاً من القيام بوظائفه التي يقوم بها في اليقظة، إلى وظائف أخرى لازمة لاستمرار حياته.

❖ ❖

كما أن النوم يحقق الأمن للنفس، فالنفس البشرية خلقت لدار غير الدنيا، خلقت للآخرة، فهي تظل في الدنيا غريبة، والغريب في دار الغربة لا ينال الأمن التام، بل يتوقع المكروه باستمرار. فالنوم يحقق الأمن للنفس، ويريحها من الالتصاق بالجسد برهة من الزمن، كي تستعيد عافيتها وأمنها، فالنوم إذن أمن وشفاء وعافية للنفس، وهذا ما يبينه قوله تعالى: (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ)، وندرك هذا

الأمر في حياتنا، فحين يخاف الإنسان أو يفزع ثم ينام، فإنه يستيقظ وقد ذهب ما به. بل سمى النعاس: أمنة، فقال: (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ).

❖ ❖

كما أن النوم أساس لنمو الخلايا، ولذلك يحتاج الرضع إلى النوم كثيراً تقريبا ٢٠ ساعة، وكلما تقدم به العمر قلت ساعات نومه، فالمخلوق في أول حياته يحتاج إلى ساعات نوم كثيرة، كي تساعده على النمو. ويقول العلماء أن الجنين يقضي ٩٠٪ من حياته نائما. وهناك تجارب أجراها العلماء على فئران، تبين منها أن الخلايا تُنتَج أثناء النوم وخصوصاً أثناء الأحلام. وأكد العلماء أن النوم يساعد على نمو الجسم؛ حيث يفرز أثناء النوم هرمون قوي الأثر في الجسم يساعده على النمو، ويساعده على إنتاج خلايا جديدة قد تبلغ مليارات الخلايا في اليوم الواحد.

ويقول الباحثون أنه كلما كان الإنسان بحاجة إلى راحة، كالمريض والجهد والقلق والحزين، فإنه يحتاج إلى ساعات نوم أكثر من غيره؛ ذلك أن الإنسان وقت اليقظة تحدث في أنسجته تغيرات كيميائية كثيرة، ينشأ عنها النوم تلقائيا، وبالنوم تستعيد الأنسجة سيرتها الأولى كما كانت، ولو استمرت تلك التغييرات ومنع النوم بالقوة أدت إلى الموت (انظر: النوم والحياة، د. نبيل سليم).

وهذا يؤكد ما ذكرته من قبل أن الحياة الحقيقية الخالدة لا نموَّ فيها ولا تغيّرَ البتة. وهذا مقتضى الخلود، فيكون الناس على

حالة دائمة.

ونجد أن أهل الجنة (وكذلك أهل النار) كما في الأثر لا يَنْمُون، بل هم في حالة واحدة، ينبتهم الله، ويعظم أجسامهم، فتقيم فيها أنفسهم، ويخلدون كذلك دون نمو. فمقتضى الخلود عدم النمو والتغير، بل لزوم حالة واحدة، يكون عليها المرء منذ استقراره في داره، إما دار النعيم أو دار الجحيم.

أخرج الطبراني مرفوعا: «يحشر ما بين السِّقْطِ إلى الشيخ الفاني يوم القيامة في خلق آدم، وقلب أيوب، وحسن يوسف مُرْدًا مُكَحَّلِينَ» قلنا: يا رسول الله، فكيف بالكافر؟ قال: « يَعْظُمُ للنار حتى يصير غِلَظُ جلده أربعين ذراعا، وَقَرِيضَةُ الناب من أسنانه مثل أحد».

وأخرج الطبراني في الأوسط وصححه الألباني، مرفوعا: (ما من أحد يموت سقطا ولا هرما - وإنما الناس فيما بين ذلك - إلا بعث ابن ثلاثين سنة، فإن كان من أهل الجنة كان على مَسْحَة آدم، وصورة يوسف، وقلب أيوب، ومن كان من أهل النار عُظِّموا، وفُخّموا كالجبال).

وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي وحسنه الألباني: (يدخلُ أهل الجنةِ الجنةَ جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلِينَ أبناءَ ثلاثين - أو ثلاثٍ وثلاثين - سنة).

❖ ❖

كما أن النوم تنفيس للإنسان، ولو لم ينم لمات قهراً وكمداً، ولذلك فالنائم في نومه (من خلال الرؤى والأحلام) يحقق كثيرا

من الأشياء التي لم يستطع تحقيقها في اليقظة، (سواء أشياء يرغب فيها أو أشياء حدثت له ولم يستطع التخلص منها)، ولو لم يكن له ذلك لانفجر في يقظته، وهذا يبين لنا قوله تعالى: (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)، وقال: (وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)، فالإنسان حين يصيبه عارض نفسي، كالخوف أو الفزع أو الهم أو الحزن... فإن صدره يضيق، وينتفخ قلبه، وكلما ازداد الصدر ضيقا ازداد القلب انتفاخا، حتى يكاد يخرج. وقد سمى رسول الله صلى اله عليه وسلم الرؤيا الصالحة: مبشرات، فقال: (لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة).

ويقرر العلماء أن الأحلام ضرورية للإنسان، وقد أجرى بعض العلماء تجارب على أناس كانوا يمنعونهم من الأحلام لمدة خمسة أيام متتالية (وذلك بإيقاظهم كلما اقتربوا من مرحلة الحلم أثناء حركة العين السريعة)، فأدى ذلك في النهاية إلى ظهور اضطرابات نفسية عليهم أثناء اليقظة، وتوترات واضطرابات مزاجية، وضعفت الذاكرة، وقل التركيز.. (انظر بحث: النوم والأحلام، محمد الأمراني، مجلة كلية الآداب بجامعة القاضي عياض).

ولذلك فأهل الجنة لهم فيها ما تشتهي أنفسهم، قال تعالى: (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)، وقوله: (وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ)، وقوله: (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)، وقوله: (وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ).. وقد قرن بين اشتهاء النفس والخلود في الجنة في أكثر من موضع، فكل شيء متحقق لأهل الجنة، فمن ثم أنفسهم

خالدة أبدا، لا ينامون ولا يحتاجون إلى النوم حتى يحققوا فيه ما لم يتحقق في اليقظة، كما هو الحال في الدنيا.

❖❖

كما أن النوم نقص من حيث إن الأصل في المؤمن الطهارة، والأصل أن يظل المؤمن محافظا على طهارته في يقظته، والنوم ينقض الطهارة، كما جاء في الآثار: (العين وِكاء السَّه، فمن نام فليتوضأ)، (كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأمرنا إذا كنا سفرًا أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن، إلا من جنابة، لكن من غائط وبول ونوم)... فالنوم إذن يحول بين الإنسان والطهارة المستمرة.

قلت الأصل في المؤمن الطهارة، وهذا الأصل لا يكون مستمرا إلا إذا كان الإنسان حيا حياة لا نقص فيها بنوم ونحوه، فالنوم إذن نقص في الطهارة.

وأهل الجنة يكونون في طهارة دائمة، فلا تنتقض طهارتهم البتة، لا ببول ولا غائط ولا نوم.

وقوله: (العين وكاء السه)، أي: وكاء الدبر فلا يفلت منه ريح أو بول أو غائط أو نحو ذلك، فطالما ظل الإنسان مستيقظا فإنه يستطيع أن يحافظ على طهارته، وإن أحدث تطهر. وهذا يبين أن النوم ناقض بنفسه؛ وليس كما قال بعضهم أن النوم مظنة خروج شيء من السبيلين، فالنوم خروج للنفس من البدن، فبقاء البدن دون نفس يؤدي إلى نجاسته، فالنفس طهرة البدن، ولا تكون طهرة البدن

إلا إذا تطهرت بتوحيد خالقها، فطهارتها عند الله وحده؛ فهو خالقها وهو عليم بما يطهرها. فأي نفس لم تتجه إلى خالقها فإنها تفقد طهارتها، فماء طهارة النفوس بيد الله، فلا يملكه أحد غيره.

❖ ❖

ولذلك نفهم قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)؛ فأنفسهم لم تتجه إلى خالقها الذي يملك طهورها، بل اتجهت إلى شركاء لا يملكون هذا الطهور، فظلت نجسة. كجائع ذهب إلى أحد ليطعمه فلم يجد عنده طعاما فإنه يظل جائعاً.

فليست النجاسة معنوية كما قال بعضهم، ولكنها نجاسة نفسية، وعليه فنجاسة المخلوق إما تكون نجاسة نفسية (بالشرك والمعصية)، وإما تكون نجاسة بدنية (بالحَدَث)، ولا يتقبل الله عبادة إلا من امرئ تطهر من النجاستين.

وفي طهارة النفس جاء قوله: (ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ)، وقوله: (ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ)، وقوله: (وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ) فهو تثبيت لأنفسهم وتزكية لها، فتدخل المعركة وهي مستعدة استعدادا تاما. وقوله: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)، فالطاعات تطهر الأنفس، فالله سبحانه وتعالى كما جعل الماء وسيلة لتطهير البدن، فقد جعل الإيمان والطاعات وسيلة لتطهير النفس. ومن ذلك قوله: (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ).

وفي طهارة البدن: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)،

(وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا).

ولذلك فلفظ (المطهَّر) جاء في القرآن الكريم وصفاً لثلاثة أشياء: الأزواج في الجنة، والملائكة الكرام، والصحف. وكل هذه الأشياء مطهرة منذ أن خلقها الله، فلا يعتريها أي مظهر من مظاهر النجاسة، كالنوم وغيره.

قال تعالى: (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ)، فبين سبحانه وتعالى أن للمؤمنين في الجنة أزواجا مطهرة ، والذي يبدو لي أن الأزواج المطهرة هن الحور العين، فهن منذ أن خلقهن الله مطهرات، بخلاف نساء الدنيا فإن كل إنسان في الدنيا ذكرا أو أنثى تعتريه حالات يكون غير مطهر فيها.

كما وصف الصحف، والملائكة الذين بأديهم هذه الصحف، بهذا الوصف، فقال: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)، وقال: (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ)، فالمطهرون هم الكرام البررة، فوصفهم بأنهم كرام، لم يصبهم نجاسة، والنوم من النجاسة، والصحف بأيديهم وهم مستيقظون أبداً، فالصحف مطهرة بأيدي مطهرين.

أما المؤمنون فوصفهم بأنهم: متطهرون (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)، فهو اسم فاعل من (تطهر)، أي هم يقومون بالتطهر، أما (المطهَّرون) فالله طهرهم.

وقد اقتضت سنة الله سبحانه وتعالى أن يجعل الناس في الدنيا

مؤمنهم وكافرهم، فمن أراد منهم أن يطهر نفسه فعل، ومن أراد أن يكون نجسا فعل. فالدنيا ليست دار طهارة تامة، ولكن الجنة هي دار الطهارة، وقد وعد الله المؤمنين بأنه يطهرهم، فقال: (وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ)، وقوله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ)، وقوله: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا). فهذا التطهير إنما يكون في الجنة، فيصبح المؤمنون (مُطَهَّرين) [راجع بحثي: النفس في القرآن].

ولعله يتبين لنا معنى قوله تعالى: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا)، فقوله (ومطهرك من الذين كفروا) يبين لنا أن الدنيا ليست دار طهارة تامة، ففيها المؤمنون والكافرون، ومن تمام الطهارة أن يكون كل من في المكان مطهّراً، فلا تقع عين المؤمن إلا على قوم مطهرين، ولكن الدنيا ليست كذلك. فقوله (ومطهرك من الذين كفروا)، أي: ستكون نفسك في دار أخرى، ليست الدنيا، بل في دار مطهرة من الذين كفروا (فهم نجس).

وفي الدنيا، فإن أشد اللحظات لذة لجسم الإنسان لحظة تنقله من الطهارة إلى غير الطهارة، وذلك في الجماع، وحتى يعود إلى الطهارة فإن عليه الغسل (وليس مجرد الوضوء)، فهذه اللحظة تذكر الإنسان بأن الدنيا ليست داراً مطهرة، وها أنت أيها الإنسان تصل إلى لذتك فتفقد الطهارة، ولا تستردها إلا بغسل يعم بدنك كله.

أما في الجنة فلا شيء من ذلك، فهي دار مطهرة، والأزواج فيها مطهرة، والرجال مطهرون، ويكونون في لذة دائمة، وطهارة دائمة.

❖❖

وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على الوضوء قبل النوم، (إذا أتيت إلى فراشك فتوضأ وضوءك للصلاة)، فالوضوء حتى ولو كنت متوضئا، وحتى لو كان الإنسان جنبا فإنه يتوضأ قبل نومه كما في حديث عمر عند البخاري: (إذا توضأ أحدكم فليرقد وهو جنب).

وبذلك يكون آخر عهد الجسم قبل النوم بالوضوء، فتفارقه النفس وهو على وضوء، فالوضوء يجدد حيوية الجسم، فينام وهو أتم استعداداً للتحديث والتنظيم، وخلال الوضوء يطهر فمه وأنفه، فيزيل ما بها من ميكروبات وفطريات، وكذلك بالوضوء يزيل ما علق بجلده وأطرافه من جراثيم، كما أنه بالوضوء يزيد من نشاط وفعالية أطراف جسمه، وأيضاً يرفع من المستوى النفسي فيه، فتفارق الجسم وهو في أفضل حالاته. وهذا الأمر يحتاج إلى أبحاث عميقة.

وأيضاً أول ما يستيقظ فإنه يتوضأ، كما في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر، قعد فنظر إلى السماء، فقال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}، ثم قام فتوضأ واستن فصلى إحدى عشرة ركعة.

كما أن المؤمن حين يجعل آخر عهده قبل نومه الوضوء، ثم يتوضأ أول يقظته، فإنه يظل على طهارة متصلة (لا تنقطع إلا بالنوم)، وهو لا يستطيع أن يمتنع عن النوم، فلا حرج عليه إن نقصت طهارته وقت المنام.

❖ ❖

ولو أن النفس خلدت في الجسم ولم يحدث النوم، (على افتراض أنه لم يمت)، لاختلطت الأمور عند النفس، وانتكس خلق الجسم، وأصبح الإنسان مسخاً؛ لأن النفس تعلق بها أوضار الدنيا، فلا تستطيع القيام بوظائفها مثلها مثل الجسم، والجسم لا يستطيع تحمل مشقة النفس دون فترة مؤقتة. فكل المخلوقات الحية ذوات النفوس تعبد الله كرها في نومها، ومنها الكافر.

والمؤمن في الجنة لا ينام؛ لأن جسمه مهيأ تهيئة تامة لإقامة النفس فيه، دون الحاجة إلى التحديث اليومي أو التنظيم المستمر. وهذا هو الخلود: إقامة مستمرة للنفس، ولا يخلو الجسم منها أبدا. ولذلك فالمؤمن لا يحس بالزمن في الجنة؛ فالإحساس بالزمن ناتج عن تكرار ذهاب النفس وعودتها إلى الجسد، وتوافق ذلك مع الأنظمة والسنن التي جعلها الله في خلق الأرض والليل والنهار... وكذلك أهل جهنم هيئت أجسامهم لإقامة أنفسهم فيها دون مغادرتها أبداً. كما شرحت هذا سابقاً.

❖ ❖

وكما أن النوم محطة تتزود منها النفس والجسم، فكذلك

جعل العبادات محطة تتزود منها النفس والجسم أيضاً. فالعبادات طهرة للنفس، وتزكية لها، ومهمة الرسول هي تزكية الأنفس، كما قال تعالى: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ). وسميت الزكاة كذلك؛ لأنها زكاة للنفس، كما قال تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)، والإنسان مأمور بتزكية نفسه: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا). فمن زكى نفسه فإنه يحافظ على أمانة الله لديه مصونة محفوظة، فيأتي يوم القيامة بنفس مزكاة، قد تأهلت لسكنى الجنة، أما من دسى نفسه فإنه ينكسها إلى جهنم والعياذ بالله.

ولو أن الإنسان ظل متصلا بالله اتصالا تاما لما احتاج إلى النوم، فالنوم فيه إصلاح للنفس نتيجة ما يعلق بها في الدنيا من مآثم ومغارم. ولذلك جاء في الحديث أن النبي لا ينام قلبه، فيظل مستيقظا واعيا؛ وذلك لقوة اتصاله بالله. وأهل الجنة لا ينامون؛ فهم يظلون متصلين بالله اتصالا تاما، وجاء في الأثر أنهم يلهمون التسبيح. وأهل النار لا يحيون لأنهم ينقطعون انقطاعا تاما عن الله، ولا يموتون، فتظل نفوسهم قلقة داخل أجسادهم، وهذا أشد العذاب.

❖ ❖

□

المطلب الرابع: العلاقة بين الماء والحياة:

قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)، وقال: (الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ). وفي هاتين الآيتين بيان للعلاقة بين الماء والحياة.

أولاً: وجعلنا من الماء كل شيء حي:

تحدثت عن هذه الآية في بحثي: من أفعال الخلق في القرآن الكريم. وخلاصة ما ذكرته هناك:

هذه الآية تفيد أمرين:

الأول: أن الله جعل من الماء كل شيء حي. والمتدبر يجد أن الفعل المستخدم هنا: (جعل) وليس (خلق)، وجعل هنا تفيد معنى التصيير، فمعنى الآية: صيرنا كل شيء حي من الماء.

والثاني: أن الله لم يجعل من الماء كل شيء، وإنما كل شيء حي، فلم يقل: جعل منه كل شيء، بل خصصه، والتخصيص في هذا المقام يفيد معنى أن غير المخصص ليس كل ذلك، بمعنى: الأشياء غير الحية لم يجعلها الله من الماء.

ومن ثم فهذه الآية لا تدل على الأصل، ولا على السبب، بل عليهما معاً. ولا تنص على أن الماء أصل لكل شيء حي، بل **سبب لحياة الأصل الأول من كل شيء حي.**

❖ ❖

والسؤال الذي أعنى به في هذا البحث: ما العلاقة بين الماء والنفس والجسم المصور؟

الآية كما ذكرت تبين أن الماء سبب لحياة الأصل الأول من كل شيء حي، فأصل البشر مثلا هو آدم، والله خلقه من التراب، فأنبته من الأرض كما ينبت النبات. ونحن نشاهد النبات لا ينمو إلا بالماء، وهو ما يقرره القرآن الكريم في مواطن كثيرة، كقوله: (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ)، وقوله: (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ).

وعليه فالآية تبين أن الأصل الأول من كل شيء حي، صيره الله بالماء حياً. وهذه المسألة تتعلق بالجسم المصور، فهو الجسم الذي أنبته الله من الأرض، ثم سواه وصوره. فكان الماء سببا في حياة هذا الجسم، وصيرورته جسما قابلا للحياة.

ثم إن وجود الماء في الجسم نفسه ترتبط ببقاء الجسم حيا، ولذلك فالماء كما يقول العلماء، يشكل نسبة ٧٥ -٨٠٪ من جسم الرضيع حديث الولادة، في حين تقل هذه النسبة إلى ٥٠٪ في سن السبعين. وتؤثر كمية الماء في قيام الجسم بوظائفه الحيوية المنوطة به. والجنين يحتاج إلى كمية كبيرة من الماء لينمو، ولبناء أنسجة جسمه وأجهزته المختلفة.

وتدل الآية على أن الكائن الحي يفقد الماء بموته، وهو يفقده تدريجياً حتى يخلو منه تماما، ومن ثم يتحلل، ويعود إلى أصله وهو التراب. فالماء هو العنصر الذي يحمي الجسم من التحلل أثناء حياته، ولو أمكننا أن نتخيل جسماً فقد الماء تماما وهو حي، لرأيناه يتحلل ويعود تراباً.

يتبين لنا، أن الله يخلق الشيء ويسويه ويصوره. والماء هو عنصر أساس في هذه العملية، ثم يرسل الله النفس إلى الجسم المصور فيصبح حيا بإذن ربه. وحين الموت يمسك الله النفس، فيفقد الجسم المصور ما به من الماء، فيتحلل ويعود إلى التراب كما نشأ منه.

ثانياً: الأرض الميتة:

تحدث القرآن الكريم في أكثر من اثنتي عشرة آية عن إحياء الأرض الميتة، كقوله: (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا)، (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا). وبتدبر تلك المواضع يتبين ما يلي:

- إسناد الموت والحياة إلى الأرض:

فالموت أسند إلى الأرض/البلدة عن طريق الوصف: (الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ)، (بَلْدَةً مَيْتًا)، (لِبَلَدٍ مَيِّتٍ)، أو عن طريق الإضافة: (يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا).

والحياة أسندت إلى الأرض، فجاءت الأرض مفعولا به، والفاعل هو الله سبحانه وتعالى: (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ).

- أثر الماء في حياة الأرض:

جاء في أكثر تلك المواضع الحديث عن الماء، وأن الله أحيا به الأرض بعد موتها، كقوله: (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)، (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا)...

- دلالة هذا الإحياء على إنشار الموتى:

في أغلب تلك المواضع، يبين الحق سبحانه وتعالى أن إخراج الموتى كذلك، أي: كما يخرج النبات من الأرض، وسمى ذلك إنشارا، كقوله: (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)، وقوله: (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى)، وقوله: (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ).

ثالثاً: موت الجسم:

وسؤالنا هنا: ما معنى أن الأرض ميتة؟

وصف الأرض بالموت معناه خلوها من الماء خلواً تاماً، ولذلك تجد الآيات تتحدث عن أن الله أنزل الماء فأحيا به الأرض بعد موتها: (وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا). فموت الأرض إذن هو الخلو التام من الماء.

وبينت آنفاً أن جسم الكائن الحي حين يموت يخلو خلوا تاما من الماء، ومن ثم يتحلل ويعود إلى التراب. فلو نزل عليه ماء الحياة لنبت مرة أخرى وعاد جسما مصورا بإذن الله قابلا لاستقبال النفس.

وهذا يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى حين صور الجسم قدر فيه الموت، وتقدير الموت فيه يعني (فيما يعنيه أيضاً): أنه حدد له كمية الماء التي ستكون فيه طوال حياته، فهو يستنفدها حتى تفنى، فيتحلل إلى التراب.

ويفسر لنا هذا كيف أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء (فقد

جاء ﴿ في الحديث: إن الله عز وجل حَرَّمَ على الأرض أجسادَ الأنبياءِ)، فالله سبحانه وتعالى يجعل أجسامهم محتفظة بالماء، فلا ينفد منها، ومن ثم فلا تتحلل. وهذا ما يفسر بقاء أصحاب الكهف في نومهم، كما قال تعالى: (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)، فأجسادهم بقيت محتفظة بالماء، بخلاف الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، فقد تحلل جسده وجسم حماره، ولذلك أراه الله إنشاز العظام، أي: إنباتها من الأرض ورفعها أمام عينيه، وذلك لا يكون إلا بالماء.

رابعاً: موت النفس:

الموت والحياة يقع على النفس، وذلك بإمساكها من الجسم إمساكا تاماً، أو إرسالها إليه. وقد بينت هذا. وأساس هذا البيان قوله تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى). فأضاف الموت والمنام إلى النفس، وبين أن النفس التي يمسكها الله فلا يعيد إرسالها إلى الجسم هي التي تموت.

وأخبر سبحانه أن كل نفس تموت، فقال: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)، وقال: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا)، فالمعنى أن النفس تموت بإذن الله حين يأتيها أجلها، وقد أضاف الأجل إلى النفس: (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا)، وقال: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ).

وقال: (قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ)، فالموت يأتي إلى النفوس،

ويعجز الإنسان عن رد الموت عن نفسه، وهذا يعني أن الحياة كامنة فيها.

وقال: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، فالآية تفيد أمرين، الأول: أن كل نفس ستموت، والموت هو اللفظ المعبر عن هلاك النفوس، فهلاك النفس هو موتها، كما قال تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ). والأمر الثاني: أن الموت ينقص من توفية الأجر، ولهذا لم تكن الدنيا محلا لتوفيته، وإنما تكون توفية الأجور يوم القيامة.

والقتل إنما يقع على النفس: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ).

❖ ❖

فالخلاصة أن الموت يكون للجسم، ويكون للنفس. فأما موت النفس فهو إمساكها من الجسم إمساكا تاما. وأما موت الجسم فهو خلوه التام من الماء.

❖ ❖

خامساً: أجسام أهل جهنم:

ولعلي أسأل: كيف تكون أجسام أهل جهنم؟

أهل جهنم شرابهم هو الماء المغلي: (فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ)، (وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ)، (وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ). وكذلك الصديد والغساق. فهم يشربون من هذا باستمرار، ولذلك فالماء الذي في أجسامهم، والذي يحافظ

على بقائها، يجعلها تغلي باستمرار. فطبيعة أجسامهم حارة جدا، وهذا يزيدهم في العذاب. فهي حالة خاصة لأهل جهنم، أن يكون الماء الحميم هو عنصر الحياة الذي يحافظ على بقاء أجسامهم، ولذلك فقد وصفهم الله بأنهم لا يموتون ولا يحيون. فالكائنات تحيا بالماء الطبيعي، ولو فقدت هذا الماء لماتت (الطبعي من حيث درجة حرارته، فالبارد الشديد البرودة مثله مثل الحار الشديد، كلاهما قاتلان، والله يعذب أهل جهنم بالحالتين. أعاذ الله أجسامنا وأنفسنا منها.

❖ ❖

□

المطلب الخامس: الكائنات الحية صنفان:

بتدبر آيات الكتاب تبين لي أن الكائنات الحية صنفان:

الصنف الأول: حي لغيره. والصنف الثاني: حي لذاته.

أولاً: الصنف الأول: حي لغيره:

هذا الصنف هو الأرض، ومعنى أنه حي لغيره، أي أن حياته ليحيا غيره، وليس ليحيا هو، فهو كالرحم الذي يهيئ الظروف المناسبة لنمو غيره. وحياته تكون بالماء.

وهذا الصنف هو الأرض الحية، فالأرض حين موتها لا يمكن أن ينبت فيه أي كائن حي.

قال تعالى: (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا)، أي: أحييناها فأصبحت مهيئة لإخراج النبات منها، ولذلك قال: (وأخرجنا منها حبا).

ومن ثم فوصف الأرض بأنها ميتة، معناه أنها جافة جفافا تاما من الماء، ومن ثم فلا يمكن أن تحيا فيها النباتات.

و(حياة الأرض لغيرها) لها ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: (خلق الأصول منها)

أنبت الله من الأرض أصل كل شيء حي (في الدنيا)، فالإنسان مثلا أنبته الله من الأرض: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) وكذلك عامة الكائنات الحية، نبتت أصولها من الأرض (وهذا خلق الأصل،

راجع بحثي: أفعال الخلق في القرآن). وقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)، يتحدث عن هذه المرحلة. فالله أنزل ماء على الأرض فأنبت منها أصل كل شيء حي.

وهذه المرحلة ما شهدتها المخلوقات الحية، ولا شهدها الإنسان.

المرحلة الثانية: إنبات النباتات، بشكل مستمر. وهذا في الدنيا، وقد جعل الله هذه الآية ظاهرة للإنسان، يشهدها أمام ناظريه. فهي تذكره بأصل نشأته، وتكون دليلا له على إعادة خلقه، قال تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ).

المرحلة الثالثة: (إعادة خلق الموتى: أصولها ونسولها)

وهذه المرحلة في الآخرة، حيث يخرج الله المخلوقات مرة أخرى من الأرض، فتنبت منها كما نبتت أصولها، (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)، وقال: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ). (راجع بحثي: أفعال الخلق في القرآن).

❖ ❖

ثانياً: الصنف الثاني: حي لذاته:

حياته لذاته بمعنى أنه حيي ليكون حيا في ذاته، وليس ليكون وسيلة لحياة غيره. وهو قسمان:

القسم الأول: الكائنات المائية، وهي الكائنات التي تكون حياتها بسبب الماء.

والقسم الثاني: الكائنات النفسية، وهي الكائنات التي تكون حياتها بإرسال النفس إليها.

القسم الأول: الكائنات المائية:

الكائنات المائية هي المخلوقات التي يحييها الله بالماء، وإذا فقدت الماء ماتت. ومن ذلك:

النباتات، فهي كائنات مائية.

والأجسام المصورة، كجسم الإنسان وعامة الحيوانات، قبل إرسال النفوس إليها، وبعد خلوها تماما منها، فهي كائنات مائية، ولذلك تنبت من الأرض، وحين تموت وتفقد الماء تتحلل إلى التراب.

وقد بينت هذا آنفاً.

القسم الثاني: الكائنات النفسية

وهي الكائنات التي تكون حياتها بإرسال النفس إليها. وهذه هي الأجسام المصورة، كما بينته آنفاً. فالجسم بعد تصويره، يرسل الله إليه النفس، فيصبح حيا بإذن الله، وحين يمسك الله النفس عنه يحدث الموت.

فالكائن النفسية = كائن مائي مصور + نفس.

فأجسامها تعد كائنات مائية.

ومن ثم فالكائن النفسي عبارة عن جسم مصور، والجسم المصور أصله كائن مائي (أي نبت من الأرض بسبب الماء، وصوره الله)، ثم أرس إليه النفس، فأصبح كائنا نفسيا.

وهذه الكائنات النفسية، يحييها الله أول مرة، بالنفخ في الجسم، وهي شعبتان:

الشعبة الأولى: الكائنات النفسية المكلفة، وهذا هو الإنسان، وقد تحدثت عن النفس المكلفة. وتكون حياته بأن ينفخ الله فيه من روحه.

الشعبة الثانية: الكائنات النفسية غير المكلفة، وهي عامة الكائنات ذوات النفوس. وتكون حياتها بأن ينفخ الله في أجسادها.

وكل هذه تحدثت عنها في ما سبق من مباحث الكتاب. وفيما يلي شكل يلخص هذه التقسيمات:

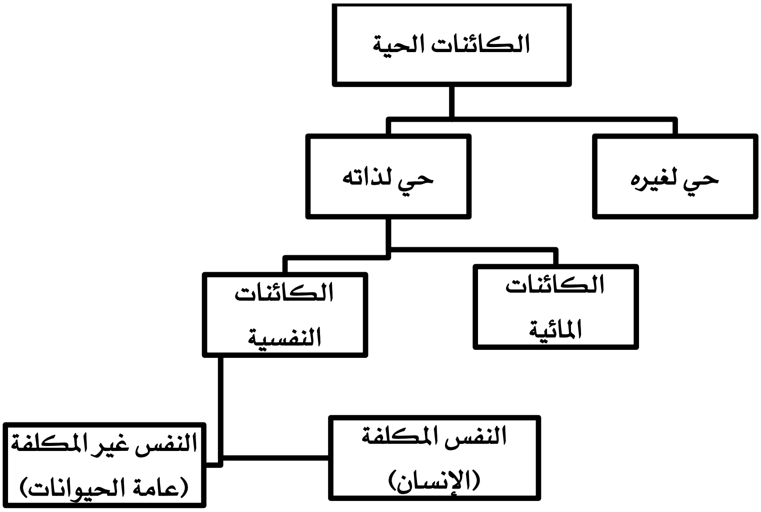

❖❖

المطلب السادس: السمع والنفخ والحياة والموت:

ما علاقة السمع بالنفخ، وبالحياة، وبالموت، وبالمنام؟ سأحاول الإجابة عن هذا السؤال في هذا القسم.

البداية مع قوله تعالى: (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا). هذه الآية تبين لنا كيف أنام الله أصحاب الكهف، وبنص القرآن الكريم أنهم ناموا ولم يموتوا: (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ).

حين يغشى النعاسُ الإنسانَ (أو أي كائن نفسي)، فإنه يزداد غشيانه حتى يغمره، وحين يغمره ينام، وفي النوم تتوقف كل حواسه، ويغيب عن الإدراك، ويقوم جسمه بوظائف أخرى. ويبقى للجسم حاسة واحدة تظل تعمل في النوم واليقظة (بدرجات متفاوتة)، وهي حاسة السمع.

فالسمع هو منفذ إيقاظ النائم. وهو منفذ إحياء الميت أيضاً.

والسمع لا يعني (عدم الصمم)، فالسمع وظيفة داخلية في الجسم، ولكنها ترتبط بنطاق سمعي معين، فالسميع من الناس له نطاق معين يسمع فيه، والأصم هو الذي لا يمكنه السماع في هذا النطاق (عادة بين ٢٠ و٢٠ ألف هرتز)، أما الموجات فوق/دون السمعية فلا تلتقطها أذن الإنسان، ولذلك لا نسمي الإنسان الذي لا يسمعها أصم. فكل مخلوق له نطاق سمعي معين يسمعه. وحديثي ليس عن الموجات السمعية، إنما عن الموجات فوق/دون السمعية بالنسبة إلى الكائنات النفسية كلها، وليس فقط الإنسان.

ومن ثم فهناك نطاقات سمعية داخلية، يسمعها الكائن النفسي، ونحن لا نعرف عن هذه النطاقات كثيراً، إنما نتكلم عنها بهدي القرآن الكريم. فالأصم لو لم يسمع لما استيقظ. ويقول العلماء أن الصوت يصل إلى الأذن الداخلية إما عن طريق الأذن الخارجية ثم الوسطى، وهي الطريقة المعروفة، وإما يصل إليه عن طريق عظام الجمجمة وتسمى طريقة (النقل العظمي).

(فالكائن النفسي) يستيقظ عندما ينفتح نطاقه السمعي إلى درجة تسمح له بالاستيقاظ، وينام حين يضيق هذا النطاق إلى درجة تخرجه من إطار اليقظة.

وعليه فالسمع هو منفذ النفس في الجسم، فوجود النفس في الجسم يوسع المدى السمعي، وخروجها منها يضيقه، كما هو الحال في النوم، ولكنه لا ينغلق، وحين تعود النفس تنفذ إلى الجسم من منفذ السمع، فيستيقظ بإذن ربه.

❖ ❖

فأهل الكهف، يبين الله سبحانه وتعالى أنه ضرب على آذانهم سنين، وليس ساعات، ثم لما بعثهم أرسل أنفسَهم إليهم، وانفكّ الانسداد الذي ضرب على آذانهم.

فالضرب على الآذان هو تعطيل لوظيفة الأذن الخارجية من التقاط الأصوات ونقلها إلى الأذن الداخلية، تعطيلا تاما. كما أنه إيقاف لوظيفة الأذن الداخلية من السمع، ولذلك تظل منافذ السمع مسدودة، فلا يسمع أبدا، حتى يأذن الله فينفتح النطاق

السمعي.

قال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ). فقوله: (أفلا تسمعون)، فالسمع وظيفة ترتبط بالنوم، وبالليل، فهو يقول لهم: لأفلا تسمعون آيات الله التي تذكركم وتنذركم، كما تسمعون صيحته التي توقظكم من نومكم؟! وهو كقوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ).

❖ ❖

السمع والنفخ:

تصوير الجسم المخلوق، يقتضي إعطاؤه ملامحه المميزة له، ومن هذه الملامح: الأجهزة الظاهرة، كالأذن والعين والأيدي والأرجل...، فالجسم المصور يستكمل ملامحه في الخلق الأول، قبل أن ينشأ خلقا آخر. فلا تنتهي مرحلة التخليق إلى وقد تكونت جميع الأجهزة الداخلية والخارجية، ولكن في صورة مصغرة ودقيقة. فهذا هو التصوير.

وأما النفخ في المخلوق فيكون بعد تصويره، كما بينت هذا سابقاً.

وآيات القرآن الكريم تذكر السمع قبل (الأبصار)، وذلك باطراد. وقد قال العلماء أن السمع ينشأ في الجنين قبل البصر. وقالوا أن الجنين يبدأ يستجيب للأصوات في الأسبوع السادس عشر.

ولا شك أن هذا بحسب ما توصلت إليه أجهزتهم.

إلا أن الراجح أن الجنين (البشري) يبدأ السمع عنده في الأسبوع الثامن، حين النفخ؛ وكل جنين يبدأ السمع عنده عند النفخ.

ففي صحيح مسلم: (إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث اللّه إليها ملَكًا فصوَّرها؛ وخلَق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يا ربّ؛ أذكَر أم أنثَى؟ فيقضي ربّك ما شاء ويكتب الملَك، ثم يقول يا ربّ؛ أجله؟ فيقول ربّك ما شاء ويكتب الملَك، ثم يقول يا ربّ؛ رزقه؟ فيقضي ربّك ما شاء ويكتب الملَك، ثم يخرج الملَك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أُمر ولا ينقص).

فبعد تصوير المخلوق، يكون النفخ، والنفخ هو إرسال النفس إليه، فيمتلئ بها الجنين (ينتفخ)، وتبث فيه الحياة، وتمنحه إمكانات الحس والحركة والإرادة.

ذكرت سابقاً أن النفخ، هو إرسال النفس إلى الجسم المصور، وهذا الإرسال يكون من خلال صوت، وأسميه بهدي القرآن (صيحة الإحياء)، هذه الصيحة تحيي الجسم الميت، فيصير حيا بإذن اللّه.

وعليه فترتيب عملية الإحياء كما يلي:

أولا: الخلق والتصوير، حيث يخلق اللّه الجسم، فيسويه، فيصوره. ثم يخلق فيه الموت. وخلق الموت تهيئة للجسم ليكون حيا.

ثانيا: النفخ.

والنفخ يبدأ بصيحة الإحياء، ومع الصيحة يرسل اللّه النفس

إلى (الجسم الميت)، فتستيقظ الحياة فيه.

وعليه فالكائنات النفسية هي كائنات سمعية، لا محالة. فالسمع هو الرابط بين الكائن والحياة.

❖❖

صيحة الإحياء الثاني:

قال تعالى: (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ). فبين أن خروجهم سيكون حين يسمعون الصيحة، وتقترن الصيحة بالنفخ في الصور، وهي النفخة في الثانية، تأمل قوله:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ).

فالآيات تبين أنه نفخ في الصور، فاستيقظ الموتى، وقالوا: من بعثنا من مرقدنا؟ فأجابهم الله: إن كانت إلا صيحة واحدة، أي كانت النفخة صيحة واحدة، أيقظت كل الموتى، وأُرسلت النفوس إليهم، فأحيوا بإذن الله. وقد ورد في الأثر أن "الصُّوْر فيه صُوَر الناس كلهم"، فحين ينفخ فيه ترسل النفوس إلى الناس، والنفخ إرسال يصحبه صيحة. كما في الآية (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون).

وقال تعالى: (مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)، أي: ما ينتظرون إلا ذلك اليوم (يوم القيامة)، حيث يحيي الله الموتى بصيحة واحدة، لا تحتاج إلى ثانية أو ثالثة، فصيحة واحدة قادرة على إحياء الموتى جميعا، من كل الكائنات، وليس الإنسان وحده فقط. (ما لها من فواق)، قال ابن قتيبة: (أن تحلب الناقة وتترك ساعة حتى تنزل شيئا من اللبن، ثم تحلب، فما بين الحلبتين فواق)، فالفواق: المدى بين حلبتي الناقة. والله يصف الصيحة أنها مالها من فواق، أي: لا تحتاج إلى صيحة ثانية، بل صيحة واحدة كافية لإحياء الموتى. وهذا قول ابن عباس: (ما للصيحة من ترداد، فلا تتكرر بل صيحة واحدة).

❖ ❖

ومثلما يكون الإحياء الثاني: النفخ والصيحة، فكذلك كان الإحياء الأول: نفخ وصيحة. فجميع (الكائنات النفسية) هي (كائنات سمعية)، فالميزة التي تميز هذه الكائنات أنها سمعية، وحياتها دليل على ذلك. فكل جنين إذن يبدأ السمع عنده حين النفخ. ونحن لا ندري طبيعة هذه الصيحة، ولا طبيعة ترداداتها، ولا كيفية الاستجابة لها من الجنين. إلا أنها صيحة تحييه بإذن الله.

❖ ❖

وقد تحدث القرآن الكريم عن أن الموتى لا أحد يستطيع إسماعهم من البشر، ولكن الله قادر على إسماعهم، قال تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ

مَنْ فِي الْقُبُورِ)، فالله هو الذي يسمعهم، وهو كقوله: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى)،.. فالآيات هذه جاءت في سياق أن الكافرين لا يستجيبون لسماع النذير، ولكنها تدل أيضاً على أن الموتى لا يسمعهم البشر، ولكن الله يسمعهم. وقد استدلت الصديقة عائشة بالآيات على هذا.

والملحظ أن القرآن الكريم يربط بين الموتى والسمع، فهو يقول لنبيه: إنك لا تسمع الموتى، وهذا يدل على أن الموتى يسمعون، ولكن المخاطب لا يمكنه إسماعهم.

ودلت الآيات السابقة أن الموتى يبعثهم الله بالصيحة، فهم يسمعون الصيحة فيحيون.

وبينت أن الإحياء الأول يكون للجسم الميت بالصيحة من خلال السمع، حيث ينفخ فيه، فيسمع، ويريل الله إليه النفس، فيكون حيا بإذن الله.

❖ ❖

مما سبق تتبين لنا عدة أمور:

الأول: أن الإحياء يكون بعد الصيحة، سواء الإحياء الأول أو الثاني، فبعد الصيحة ترسل النفس إلى الجسم فيحيا. وهذا يعني أن السمع ينشأ عند المخلوق قبل النفخ فيه.

الثاني: السمع هو منفذ إيقاظ النائم.

الثالث: أن الميت يسمع، ويكون السمع هو منفذ بعثه.

وليس ببعيد أن ما يحدث للميت في قبره من عذاب او نعيم،

يكون منشؤه الصوت، حيث يقوم السمع بتحويل الصوت إلى مدركات مختلفة، ومن ثم يتم الإحساس بالنعيم أو العذاب.

ولعل هذا أيضاً هو ما يحدث للنائم في أحلامه، حيث تكون الأحلام كلها أنشطة صوتية داخلية يسمعها النائم ويحس بها في مدركات مختلفة. والله أعلم.

ويذكر العلماء أن السمع أثناء النوم ينقل الأصوات إلى الدماغ، فيقوم بمعالجتها، ولعل لذلك صلة بالأحلام التي يراها في نومه. كما أن الأذن تحافظ على توازن الإنسان أثناء نومه ويقظته. ولا زالت الأبحاث محدودة في هذا المجال.

□

المطلب السابع: الأجل

أتناول في هذا الموت الفرق بين الموت والقتل، وهل هناك أجلان أو أجل واحد.

أولاً: مذاهب العلماء في المسألة:

اتفق العلماء في انقضاء الأجل بالموت، ولكن اختلفوا في المقتول: هل انقضى بأجله أو انقضى قبل انتهاء أجله، ولولم يقتل لعاش إلى أجل الموت[٦].

فأهل السنة على أن المقتول مات بأجله، فالله خلق الموت وخلق أسبابه التي يموت بها المرء. لأدلة كثيرة، كقوله تعالى: (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)[٧].

---

[٦] لبسط المسألة وأدلتها ومناقشتها، انظر: الحياة البرزخية بين المثبتين و النافيين للدكتورة ليلى سليمان، مجلة البحوث القانونية والاقتصادية بجامعة المنصورة، ع ٤٤، ٢٠٠٨م، ص٢٦٩ وما بعدها.

[٧] قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى:

المقتول كغيره من الموتى ؛ لا يموت أحدٌ قبل أجله ، ولا يتأخر أحد عن أجله ، بل سائر الحيوان والأشجار لها آجال لا تتقدم ولا تتأخر ، فإن أجل الشيء هو نهاية عُمُره ، وعمره : مدة بقائه ، فالعمُر : مدة البقاء ، والأجل : نهاية العمر بالانقضاء ، وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ، وثبت في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) ، وفي لَفْظٍ (ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) ، وقد قَالَ تَعَالَى : (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ

لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) ، والله يعلم ما كان قبل أن يكون ، وقد كتب ذلك فهو يعلم أن هذا يموت بالبطن أو ذات الجنب أو الهدم أو الغرق ، أو غير ذلك من الأسباب ، وهذا يموت مقتولاً : إما بالسم وإما بالسيف وإما بالحجر وإما بغير ذلك من أسباب القتل ، وعلْم الله بذلك وكتابتُه له ، بل مشيئته لكل شيء ، وخلقه لكل شيء : لا يمنع المدح والذم ، والثواب والعقاب ؛ بل القاتل : إن قتل قتيلاً أمر الله به ورسوله - كالمجاهد في سبيل الله - : أثابه الله على ذلك ، وإن قتل قتيلاً حرَّمه الله ورسوله - كقتل القطاع والمعتدين - : عاقبه الله على ذلك ، وإن قتل قتيلاً مباحاً - كقتيل المقتص -: لم يُثب ولم يعاقب ، إلا أن يكون له نية حسنة أو سيئة في أحدهما.

والأجل أجلان: "أجل مطلق " يعلمه الله "، وأجل مقيد "؛ وبهذا يتبين معنى قوله صلى الله عليه وسلم (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) فإن الله أمر الملك أن يكتب له أجلا وقال : " إن وصل رحمه زدته كذا وكذا " والملك لا يعلم أيزداد أم لا ، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر ، فإذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر .

ولو لم يُقتل المقتول : فقد قال بعض القدرية : إنه كان يعيش ! وقال بعض نفاة الأسباب : إنه يموت ! وكلاهما خطأ ؛ فإن الله علم أنه يموت بالقتل ؛ فإذا قدر خلاف معلومه ، كان تقديراً لما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، وهذا قد يعلمه بعض الناس وقد لا يعلمه ، فلو فرضنا أن الله علم أنه لا يُقتل ، أمكن أن يكون قدر موته في هذا الوقت وأمكن أن يكون قدر حياته إلى وقت آخر ، فالجزم بأحد هذين على التقدير الذي لا يكون : جهل ، وهذا كمن قال : لو لم يأكل هذا ما قُدر له من الرزق : كان يموت أو يرزق شيئاً آخر ، وبمنزلة من قال : لو لم يحبل هذا الرجل هذه المرأة هل تكون عقيماً أو يحبلها رجل آخر ؟ ولو لم تزدرع هذه الأرض هل كان يزدرعها غيره أم كانت تكون مواتاً لا يزرع فيها ؟ وهذا الذي تعلم القرآن من هذا لو لم يعلمه : هل كان يتعلم من غيره أم لم يكن يتعلم القرآن ألبتة؟ ومثل هذا كثير.

أ.هـ.

وقالت المعتزلة أن المقتول مات لغير أجله، وأن القاتل قطع على الميت أجله، ولو لم يقتل لعاش إلى أجل الموت، واستدلوا لذلك بأدلة عديدة. وليس هنا مجال البسط في هذه المسألة.

وذهب الكعبي إلى أن المقتول ليس بميت، لتفريق القرآن الكريم بينهما (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ)، فالعطف يقتضي المغايرة، فللإنسان أجل بالموت وأجل بالقتل، في حين يرى الغزالي أن العطف لا يقتضي المغايرة، والمعنى: ولئن متم (أي: بغير سبب) أو قتلتم (أي: بسبب).

وذهبت الفلاسفة إلى أن للحيوان أجلا طبيعيا (الموت بلا سبب) واجلا اخترامیا (الموت بسبب)[٨].

□

---

[٨] قال التهانوي: (ثم الموت على نوعين: أحدهما الموت الطبعي ويقال له أيضا الموت الافترائي، والأجل المسمّى، وهو عند الفلاسفة انقضاء الرطوبة الغريزية بالأسباب اللازمة الضرورية. وثانيهما الموت الاخترامي أي الاستبطالي وهو انطفاء الحرارة الغريزية لا بأسباب ضرورية بل بعارض كقتل أو خنق أو غيرهما، وإليه أشار صلى الله عليه وسلم بقوله (الصدقة تردّ البلاء وتزيد في العمر) إذ يمكن دفع هذا الأجل بأن يحتاط الإنسان بكل حيلة يمكن بها الاحتراز عن الأسباب غير الموافقة له إذا وجد إلى ذلك سبيلا).

ثانيا: التحقيق في المسألة:

ولبيان هذه المسألة فسأبين أولاً مفهوم الأجل في القرآن الكريم، ثم حالات التوفي، وكلاهما قد ذكرتهما في بحث أفعال الخلق.

(١): الأجل في القرآن:

جاء في القرآن الكريم: أجل، وأجل مسمى، وأجل قريب، وأجل معدود.

فالأجل، هو وقت يحدد لانتهاء الشيء، كقوله: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)، وقوله: (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)، وقوله: (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا)، وقوله: (وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ). فالله حدد لكل نفس ولكل أمة وقتا تنتهي فيه حياتهم، ويأتيهم الموت، فهذا هو الأجل.

والأجل المسمى، مدة سماها الله وحددها سلفا لبقاء الشيء في الدنيا. ويستخدمه القرآن الكريم ويراد به: نهاية المخلوق، فنهاية حياة الإنسان بالموت، كقوله: (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى).

ونهاية المخلوقات كالشمس أو القمر حين تقوم القيامة، كقوله: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)، (مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى).

وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ)، فالأجل المقضي هو أجل المخاطبين بالموت، كما قال: (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)، وقال: (فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ). والمعنى: خلقكم فجعل لكم أجلا تموتون إذا جاء، كما قال: (أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ)، فهو يقدر أجل المخلوق عند خلقه. والأجل المسمى الذي عنده هو أجل انقضاء الحياة الدنيا، فالمعنى: أن الله خلقكم فجعل لكم أجلا، وكما سمى لكم أجلا فإنه سمى للدنيا كلها أجلا، واختص بعلمه هو سبحانه وتعالى، فهو عنده، لا يعلمه أحد غيره، كما قال: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)، وقال: (وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ). فكيف تمترون وتشكون في حكمة ربكم وقدره وقضائه؟

فالخلاصة أن آية الأنعام فرقت بين الأجل المقضي، والأجل الذي عند الله سبحانه وتعالى، واستخدام القرآن الكريم يبين أن الأجل المقضي هو الموت، أما الأجل الذي عند الله فهو علم الساعة.

والله سبحانه وتعالى لا يأخذ نفسا إلا إذا جاء أجلها المسمى، ويستخدم القرآن الكريم (التأخير إلى أجل مسمى)، للدلالة على هذا. (وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، (يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ).

والأجل القريب، هو الأجل الذي يطلب الإنسان أن يتأخر إليه بعد مجيء أجله المسمى، (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ

أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ)، (وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ)، (فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ).

والأجل المعدود، هو وقت نهاية الدنيا، قال تعالى: (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ).

ومن حدد هذه الآجال هو الله، ولذلك أضيف إليه باعتباره الفاعل: (وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ)، (مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ). وأضيف إلى المخلوق باعتباره المفعول، أي الأجل الواقع عليه، (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)، (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا).

❖ ❖

(٢): حالات التوفي:

في سورة الحج: (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا)، وفي سورة غافر: (ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى).

في الأولى قال: (ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر)، وفي الأخرى (ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا

مسمى).

فالآيتان تتحدثان عن ثلاث حالات لبلوغ الأجل، الحالة الأولى: أن يعمر الإنسان المدة المتعارف عليها بين الناس. والحالة الثانية: أن يقل عن ذلك، والحالة الثالثة أن يزيد عن ذلك.

أما الحالة الأولى: فهي التعمير، أي: إتمام العمر، وهو المراد في فاطر بقوله: (وما يعمر من معمر)، وهو المراد بقوله: (من يتوفى)، أي يتوفى بعد بلوغ المدة التي يبلغها الناس عادة في زمنه، ولكل جيل مدة تختلف عن الجيل الآخر، وهذه الأمة قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن أعمارها: (أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين، وأقلهم من يجوز ذلك) فمن مات أو قتل في هذا السن فقد عُمر عمره، وأخرج البخاري عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله، حتى بلغه ستين سنة». قال الأحوذي في شرح الترمذي: (المراد به أن عمر الأمة من سن المحمود الوسط المعتدل الذي مات فيه غالب الأمة ما بين العددين، منهم سيد الأنبياء وأكابر الخلفاء كالصديق والفاروق والمرتضى وغيرهم من العلماء والأولياء مما يصعب فيه الاستقصاء).

الحالة الثانية: نقص العمر، وهو المراد بقوله: (من يتوفى من قبل)، أي: من قبل بلوغ ذلك العمر، وهو المراد بقوله في سورة فاطر (ولا ينقص من عمره). فأجله المسمى أن يكون عمره ناقصا عن عمر أمثاله.

والحالة الثالثة: الزيادة في العمر، وهو من يتجاوز عمر أمثاله

من الناس، كما في الحديث (وأقلهم من يجوز ذلك). وقد تكون زيادة كثيرة وهو ما يسميه القرآن الرد إلى أرذل العمر: (من يرد إلى أرذل العمر)، وهو المراد بقوله: (ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً).

وكل هؤلاء بلغوا أجلهم المسمى، سواء أعُمّر عمرا تاما، أم نُقص من عمره، أم زِيد في عمره.

وكل إنسان جعل الله له أجلا مسمى، وحدد أجله، وحدد هل يكون له عمر تام أم ينقص من عمره أم يزيد في عمره.

❖ ❖

وأما الحديث الشهير في البخاري ومسلم، من حديث أنس بن مالك، فلفظه عندهما: (من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه)، وأيضاً أخرجه البخاري عن أبي هريرة باللفظ نفسه. وأما لفظ (ينسأ له في أجله) فلم يرد في الصحيحين، ومن الخطأ نسبته إليهما أو إلى أحدهما، وقد ورد عند غيرهما من كتب السنن. فهذا أمر مهم يجب التنبه له. فلفظ (الأجل) جاء من الرواة، لظنهم أنه بمعنى الأثر.

والأمر الثاني، المراد بقوله (ينسأ له في أثره)، فالأثر هو ما بقي من الشيء، ولم يرد بمعنى: الأجل. وعليه فالمعنى: ينسأ له في أثره، أي يبقى له ذكر صالح بعده، أو عمل صالح يجلب له حسنات وهو في قبره، فكأنه لم ينته بموته، كما قال في الحديث الآخر: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له)، فهذا هو ما يستمر به أثره، فالحديث يبين أن

عمل الإنسان ينقطع بموته ولا ينسأ له في أثر، ولا يمد له إلا من ثلاث...، وأخرج البزار مرفوعا: (سبع يجري للعبد أجرهن وهو ميت في قبره، من علم علما، أو أجرى نهرا، أو حفر بئرا، أو غرس نخلا، أو بنى مسجدا، أو ورث مصحفا، أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته)، وعند ابن ماجه: (إن مما يَلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، عِلْمًا عَلِمه ونشَره، وولدًا صالحًا ترَكه، ومُصحفًا ورَّثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجْرَاه، أو صدقة أخرَجها من ماله في صحته وحياته، يلحقه من بعد موته). ومن النسء في الأثر أن يدعو له الصالحون وأن يذكروه بالخير، كما في قول إبراهيم عليه السلام: (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ).

فلا حجة في الحديث لمن استدل به على إطالة الأجل، أو أن للإنسان أجلين، ورد من رد عليهم بأن الزيادة أي بالبركة رد ضعيف، لا يستقيم.

❖ ❖

(٣): التفريق في القرآن بين الموت والقتل:

ذكرت في الجزء الأول أن القتل هو: إزهاق النفس بفعل الإنسان، بآلة تسيل الدم.

وبينت أن القرآن الكريم يفرق بين الموت والقتل: (أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ)، (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ)، (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ)، (إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ).

كما فرق القرآن بين انقضاء أجل الكائن بالموت وانقضاء أجله بسبب ذاتي من تلقاء نفسه (كالانتحار، أو إقدامه على الموت)، أو من تلقاء غيره بقتل أو ذبح... قال تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ). فأحل الذبيحة وحرم الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة والمفترَسة...

ومن ثم فالقرآن الكريم يسمي الموت بغير سبب من المخلوقين: موتا، ويسمي الموت بسبب من المخلوقين باسم يحدده: قتلا أو ذبحا أو خنقا أو غرقا... فالتفريق بين هذه من حيث السببية وعدمها، لا من حيث الأجلية. بمعنى أن الميت انقضى أجله، والمقتول انقضى أجله، والذبيح انقضى أجله... كما يدل على ذلك الآيات السابقة التي ذكرتها في مفهوم الأجل.

وعليه فإن بين الموت والقتل (وكذلك الذبح والغرق...) اتفاقا وافتراقا:

فيفترقان من حيث سبب انقضاء الأجل: هل هو بسبب الخلق أو لا علاقة للخلق فيه، فما كان لا علاقة للخلق فيه فاسمه: الموت، وما كان للخلق سبب فيه، فله اسم يناسب: القتل، الذبح...

ويتفقان من حيث إن ذلك -سواء الموت أو غيره - لا يكون إلا بانقضاء أجل الكائن الحي، فلا يتقدم على أجله ولا يتأخر، وإنما هي أسباب جعل الله انقضاء الآجال بها، وجعلها ابتلاء واختبارا للناس.

ومن ثم فمن الخطأ القول بأن للإنسان أجلين، كما قال

الفلاسفة، إنما هو أجل واحد إذا جاء لا يقدم ولا يؤخر: (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا). والتفرقة إنما هي من حيث كيفية انقضاء الأجل، فإذا انقضى بلا سبب من الخلق فهو الموت، وإن انقضى بسبب من الخلق فيسمى باسم يخصه: قتلا، ذبحا، غرقا...

والقرآن الكريم إنما يفرق بين الموت والقتل حين يتعلق الأمر ببيان السببية، أما حين يتعلق الأمر ببيان الأجلية فإنه يسمي كل ذلك موتاً، كما قال: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)، فالموت هنا يراد به: انقضاء الأجل، دون النظر إلى السبب، ومن ذلك قوله: (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)، فهم كانوا يتمنون القتل في سبيل الله، فسماه موتا؛ لأنه لم يقع بعد، وقال: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا).

❖ ❖

والإسلام قد رتب على التفرقة السببية بين الموت والقتل قضايا شرعية، ومن ذلك: أن بهيمة الأنعام مباحة للإنسان إذا انقضى أجلها بسبب الذبح أو النحر (التذكية)، (وذكر اسم الله عليها)، ولكنها محرمة على الإنسان إذا انقضى أجلها موتا، أو بأسباب أخرى، كالخنق أو التعذيب أو الضرب أو الإلقاء من شاهق.... كما في الآية (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ).

❖ ❖

كما رتب الإسلام على هذه التفرقة خواص أخرى، ففرق بين من يموت من المسلمين ومن يقتل في سبيل الله، فرق بينهما في أحكام الممات، كالغسل والتكفين، وكذلك في خواص كل منهما في مماته، كما قدمت ذلك آنفاً، والقرآن الكريم حيث ذكر القتيل في سبيل الله فإنه لا يسميه ميتا، بل قتيلا في سبيل الله.

❖ ❖

وأما التفريق بين حالات تمام العمر أو نقصه أو زيادته، فإن ذلك كله ضمن الأجل المسمى، ولا يعني أن هناك أكثر من أجل، بل أجل واحد، والناس في بلوغ هذا الأجل ثلاثة أصناف، فبعضهم يستوفي عمرا تاما، وبعضهم أجله أنقص من العمر المقدر لأمثاله، وبعضهم أجله أطول من العمر المقدر لأمثاله.

❖ ❖

(٤): مصيبة الموت:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ).

ذكرت في بحث: الوهن في القرآن الكريم، أن المصيبة تطلق في القرآن الكريم على (المكروه الذي يصيب الإنسانَ بسببٍ منه، سواء أمؤمناً كان أم غيرَ مؤمن)، فما وجه ذكر الموت بأنه مصيبة في هذه الآية؟ وقد بينت أن الموت هو انقضاء الأجل بدون سبب.

فلي في الآية وجهان، والعلم عند ربي سبحانه.

الوجه الأول:

بتدبر الآية، يتبين أنها تتحدث عن وصية مسافر ضرب في الأرض، فأدركه الموت في سفره وليس معه إلا شاهد من غير المسلمين، قال أبو السعود: (أي: إن سافرتم فقاربكم الأجل حينئذ وما معكم من الأقارب أو من أهل الإسلام من يتولى أمر الشهادة، كما هو الغالب المعتاد في الأسفار). فالموت في هذه الحالة، أي حالة عدم وجود من يوصي إليه وهو منقطع عن أهله وقومه، يعد مصيبة، وكأن الآية ترشد المسلمين إذا ضربوا في الأرض فيسافرون مع صحبة مسلمة، وافتقاد هذه الصحبة يعد مصيبة، وما يحدث في الرحلة من قضاء فإنه مصيبة كذلك.

وهذا إرشاد للطلبة والتجار والرحالة من المسلمين، إذا سافروا أو اغتربوا أن تكون صحبتهم مسلمة، وألا يتهاونوا في ذلك. والله أعلم.

الوجه الثاني:

ذكرت أن القرآن الكريم يفرق بين الموت والقتل إذا تعلق الأمر بالسببية، أما إذا تعلق الأمر بالأجلية فإنه يسمي كل ذلك موتا، وعليه فانقضاء الأجل بسبب قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو ظمأ أو جوع... إلخ، فهذا يعد مصيبة، يحدث بسبب من الإنسان، سواء سبب من نفسه أو من غيره.

وعليه فقوله (فأصابتكم مصيبة الموت)، يكون المعنى: أصابتكم مصيبة الموت، والموت هنا قد يكون بلا سبب وقد يكون بسبب: تردي أو

انقطاع زاد أو غيره، فلهذا سُمي مصيبة. والله أعلم.

□

المبحث الثالث: الإماتة والإحياء

المطلب الأول: إسناد الإحياء والإماتة إلى غير الله:

تقرر آيات القرآن الكريم أن الله هو المحيي والمميت، وأنه هو الذي يحيي ويميت.

أولاً: الإماتة:

والإماتة لم تسند في القرآن الكريم إلا إلى الله سبحانه وتعالى، فهي لا تكون إلا من الله، ولذلك نقول أماته الله، وفي حالة القتل، لا نقول: أماته فلان، بل نقول: قتله فلان، فالقتل باعتبار فعل البشر، ويصح القول: مات فلان (وإن كان مقتولا)، فالموت تم؛ لأن الله خلق الموت فيه، وكان القاتل سببا في ذلك، قال تعالى: (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ)، فالله هو الذي يميت الناس كلهم.

وقد التبس ذلك على الذي حاج إبراهيم في ربه، (إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)، فالموت شيء لا يخلقه إلا الله، ولا تموت نفس إلا بأجلها (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا)، والحياة كذلك، فإرادة الإنسان لا تحيي ولا تميت.

ومثل ذلك إبراهيم عليه السلام، فحين أراد البشر قتله، وأراد الله حياته ظل حيا، بالرغم من النار التي أوقدوها له: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ)، وقال:

(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ). فالبشر لا يستطيعون أن ينهوا حياة أحد، إلا إذا أذن الله، كما في الحديث: (واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف).

وقد ادعى الدهريون أن الدهر هو من يميتهم، فقالوا: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)، وهم يقصدون بذلك ألا إله سيبعثهم بعد موتهم، كما قالوا: (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ). وقد نفى الله عنهم العلم، فهو ليس إلا ظن وتوهم، كادعاء النمرود أنه يميت حين يقتل.

فالخلاصة أن الإماتة لم تسند إلا إلى الله.

ثانياً: الإحياء:

أما الإحياء فقد أُسند إلى الله، وأسند إلى البشر.

أما إسناده إلى الله، فهو كإسناد الإماتة، فالله فهو وحده الذي يخلق الحياة في الأشياء، كما قررت هذا آيات القرآن الكريم.

وأسند إلى البشر على اعتبارين، أسند إلى عيسى، وأسند إلى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وأسند إلى عامة الناس.

(١): عيسى وإحياء الموتى:

جاء فعل الإحياء مسنداً إلى عيسى، فقال تعالى: (وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)، وقال عيسى عن نفسه: (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ)، ففي الموضعين قيدا بإذن الله؛ فالله أعطى عيسى القدرة على فعل إحياء الموتى، ففِعل الإحياء لا يعني خلق الحياة، فهو يحييهم والله هو من يخلق الحياة فيهم، ففعل عيسى يقابل فعل القتل بالنسبة لعامة الناس، فالقاتل لا يخلق الموت في المقتول، ولكنه يفعل الموت بإذن الله، والله هو الذي يخلق الموت فيه.

والله كما منح عيسى القدرة على أن يخلق من الطين طيراً، (وهذا إحياء أول)، فقد منحه القدرة على أن يحيي الموتى، قد يكون ذلك بأن يعطيه الله (نفسَ الميت)، ويعطيه القدرة على إرسالها إلى جسده، فيقوم حيا بإذن الله. كما أعطاه القدرة على أن يخلق من الطين طيراً، حيث أعطاه (نفسَ الطير)، وأقدره على النفخ فيه (أي: إرسال نفسه إلى جسمه).

(٢): ومن أحياها:

قال تعالى: (إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ).

قال الطبري: (ألم تر، يا محمد، إلى الذي حاج إبراهيم في ربه حين قال له إبراهيم: "ربي الذي يحيي ويميت"، يعني بذلك: ربي الذي بيده الحياة والموت، يحيي من يشاء ويميت من أراد بعد الإحياء.

قال: أنا أفعل ذلك، فأحيي وأميت، أستحيي من أردت قتله فلا أقتله، فيكون ذلك مني إحياء له، وذلك عند العرب يسمى "إحياء"، كما قال تعالى ذكره: (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)، وأقتل آخر، فيكون ذلك مني إماتة له).

فالملك الكافر فسر القتل بالإماتة، وإبقاء النفس بالإحياء، والقرآن الكريم نسب هذا الإحياء إلى الناس جميعا، وليس إلى النمرود، قال تعالى: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا). فأي إنسان بهذا المعنى قادر على قتل النفس وإحيائها. قال ابن عباس: (ومن أحياها، أي: ترك قتل النفس المحرمة). وهناك أقوال أخرى في الآية، والراجح قول ابن عباس؛ لأن الآية تقابل بين قتل النفس وإحيائها، أي عدم قتلها.

فكل إنسان يترك قتل النفس التي حرمها الله، فإنه أحياها. فهذا معنى يشترك فيه كل من عفّ عن القتل.

وقوله (فكأنما أحيا الناس جميعا)،

قال في زاد المسير: (فيه قولان: أحدهما: فله أجر من أحيا الناس جميعا. والثاني: فعلى جميع الناس شكره كما لو أحياهم).

وقال ابن عاشور: ({فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا}: فيه معنى نفساني جليل، وهو أن الداعي الذي يقدم بالقاتل على القتل يرجع إلى ترجيح إرضاء الداعي النفساني الناشئ عن الغضب وحب الانتقام على دواعي احترام الحق وزجر النفس والنظر في عواقب

الفعل من نظم العالم، فالذي كان من حيلته ترجيح ذلك الداعي الطفيف على جملة هذه المعاني الشريفة فذلك ذو نفس يوشك أن تدعوه دوما إلى هضم الحقوق، فكلما سنحت له الفرصة قتل، ولو دعته أن يقتل الناس جميعا لفعل).

والآية تبين أن من اجترأ على قتل نفس واحدة، فقد أسقط حرمة القتل من نفسه، ولذلك فإنه يجترئ على قتل أي نفس أخرى. فالمسألة لا تتعلق بالعدد، ولكن تتعلق بالإقدام على الجريمة أو الإحجام عنها. أما من أبقى في نفسه تعظيم حرمة الله، وعدم تعدي حدوده، فلم يقتل نفساً، فإن هذا التعظيم في نفسه يمنعه من قتل أي نفس، وبذلك فهو كأنما أحيا الناس جميعا.

وقد جعل الله عقوبة القاتل: القتل، بغض النظر عن العدد، سواء أقتل عدداً كثيراً أو واحداً أو حتى أقل من واحد، كما لو اشتركت جماعة في قتل نفس، فإنهم جميعا يقتلون به، كما هو منصوص عليه عند الفقهاء.

(٣): ولكم في القصاص حياة:

قال تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

قال الماوردي: (إيجاب القصاص على القاتل وترك التعدي إلى من ليس بقاتل حياة للنفوس ، لأن القاتل إذا علم أن نفسه تؤخذ

بنفس من قتله كف عن القتل فَحِيَ أن يقتل قوداً ، أو حَيِيَ المقتول أن يقتل ظلماً). وقال الزمخشري: (لأنهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سببا لحياتهم).

هذه الآية تفسر آية المائدة: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا). فمن قتل نفساً ظلما وعدوانا، فكأنما قتل الناس جميعاً، وبذلك يكون القصاص من القاتل حياة لهؤلاء الناس جميعاً الذين قتلهم القاتل حكماً، وقتل واحدا منهم حقيقة. فكأن القصاص من القاتل حياة للناس جميعا (الذين كأن القاتل قتلهم).

فتنكير لفظ (حياة) يبين أن هذه الحياة مختلفة، فهي حياة تأتي بعد (قتل حكمي)، وليس (قتلا حقيقياً). فالمعنى أن لكم في القصاص من القاتل حياة لكم بعد أن فقدتموها بقتله لكم. والله أعلم.

(٤): إذا دعاكم لما يحييكم:

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

قال الواحدي في التفسير البسيط في قوله { إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} : وفيه أقوال:

أحدها: هو الإيمان والإسلام، وفيه الحياة،

الثاني: هو الجهاد، وتقديره على ثلاثة أقوال: الأول قاله الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم، يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم، واجترأ عليهم عدوهم]، والثاني قاله أبو إسحاق: أي لما يكون سببًا للحياة الدائمة في نعيم الآخرة، وسبب هذه الحياة: الجهاد. والثالث قاله ابن قتيبة: {لِمَا يُحْيِيكُمْ} يعني الشهادة؛ لأن الشهداء {أَحْيَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}.

الثالث: أي دعاكم للحق، وهذا يحتمل كل ما ذكر من القرآن والإيمان والجهاد.

الرابع: قال أبو علي الجرجاني في قوله: {لِمَا يُحْيِيكُمْ} يعني الجنة، واحتج بأن الحياة الدائمة النافعة حياة الجنة، كقوله عز وجل: {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}، أي: الحياة الدائمة. أ.هـ.

وقال البيضاوي: (لِما يُحْيِيكُمْ من العلوم الدينية فإنها حياة القلب والجهل موته).

وقال ابن عاشور: (وتستعار الحياة والإحياء لبقاء الحياة واستبقائها بدفع العوادي عنها {وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ}، {وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً}. والإحياء هذا مستعار لما يشبه إحياء الميت، وهو إعطاء الإنسان ما به كمال الإنسان، فيعم كل ما به ذلك الكمال من إنارة العقول بالاعتقاد الصحيح والخلق الكريم، والدلالة على الأعمال الصالحة وإصلاح الفرد والمجتمع، وما يتقوم به

ذلك من الخلال الشريفة العظيمة، فالشجاعة حياة للنفس، والاستقلال حياة، والحرية حياة، واستقامة أحوال العيش حياة).

❖ ❖

والذي يبدو لي أن المعنى على حقيقته. وبيان ذلك فيما يلي:

كان الناس جميعا أمواتاً، فأحياهم الله في الدنيا، وهو الإحياء الأول، ثم يميتهم ثم يحييهم في الآخرة لحسابهم وهو الإحياء الثاني، كما قال: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

وبعد حساب الناس في الآخرة، يكونون فريقين، كما قال تعالى: (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ).

وبين القرآن الكريم أن الفريق الذي في الجنة يكون في حياة دائمة، ونعيم مقيم، (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

وبين القرآن الكريم أن الفريق الذي في السعير تسلب عنه الحياة، كما يسلب عنه الموت، فيكون لا هو بميت ولا هو بحي. (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)، وقال: (الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا).

وعليه فأهل جهنم حرموا من الحياة، أما أهل الجنة فقد نالوا الحياة الخالدة.

فقوله في الآية: (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)، أي: إذا دعاكم للأمر الذي يجعلكم تحيون حياة تامة، دون موت. وهذه الحياة التامة هي في الجنة فقط. فمن استجاب لله ولرسوله أحياه الله حياة تامة. أما من كفر فإنه يدخل جهنم فلا يحيا فيها.

فالمحيي في الآية هو الله سبحانه وتعالى، وقد قضى أن من اهتدى بنوره فإنه يحييه حياة تامة، بخلاف من لم يهتد بنوره، فإنه يرده أسفل سافلين: (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)، أي للمؤمنين أجر غير منقطع، وهو الحياة الخالدة.

وبهذه الدلالة نفسر قوله تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا).

❖ ❖

(٥): أو من كان ميتا فأحييناه:

قال تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا).

قال الواحدي في البسيط: (المفسرون على أن المعنى: من كان

كافرًا ضالًّا فهدينا. وقال أهل المعاني: قد وصف الكفار بأنهم أموات في قوله تعالى: {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} فلما جعل الكفر موتًا، والكافر ميتًا، جعل الهدى حياة، والهداية إحياء، وإنما جعل الكفر موتًا؛ لأنه جهل، والجهل يؤدي إلى الحيرة والهلكة، والموت كالجهل في أنه لا يدرك به حقيقة، والهدى علم وبصيرة، والعلم يهتدي به إلى الرشد ويدرك به الأمور كما يدرك الحياة).

وقال ابن كثير: (هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتا، أي: في الضلالة، هالكا حائرا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله).

❖ ❖

غير أني أحمل المعنى في الآية على ما سبق أن قلته، فالمعنى: أو من كان ميتا فأحييناه في الدنيا، وجعلنا له نورا فاهتدى به، وكان هذا النور سببا في حياته الخالدة في الآخرة، كمن كان ميتا فأحييناه في الدنيا، ولكنه لم يهتد بالنور الذي جعلناه له، فهو في الظلمات، ولن يخرج منها يوم القيامة.

وقوله: (كمن مثله)، فلفظ (مثله) يبين أن الآخر مثل الأول، ففي أي شيء هو مِثْله؟ هو مِثْله في أنه كان ميتا فأحياه الله في الدنيا، وأنظره مدة كافية ليهتدي بنور الله، فينال الحياة الخالدة، ولا ينتكس في الظلمات.

والله قد جعل النور لجميع خلقه، كما قال: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)، فمن اهتدى به فقد أخذ

بنور اللّه، وهو النور الذي يحتاجه لتستمر حياته في الآخرة.

فالموت والإحياء في الآية جاء على ظاهره، ولا داعي لتأويله بالمجاز. فهو كقوله: (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ)، وقد جاءت (ميْتا) مخففة، للدلالة على حالة (الموت) السابقة للحياة.

قال تعالى: (اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ). وقد فسرت هذه الآية في بحث: الظلمات والنور في القرآن، وبينت أن النور الذي يخرج اللّه المؤمنين إليه هو نور الغاية، فالجنة نور تام. أما الكافر فإن أولياءه يخرجونه من النور الذي منحه اللّه في الدنيا، وهو نور الهداية، إلى الظلمات، فجهنم ظلمة لا نور فيها. وهو كقوله في الآية: (كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا).

❖ ❖

وهذه الآية كالآية التالية: (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ).

(٦): لينذر من كان حيا/ حي عن بينة

قال تعالى: (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ).

قال الماوردي: (وفي {مَن كان حَيّاً} ها هنا أربعة تأويلات: أحدها: من كان غافلاً، الثاني: من كان حي القلب حي البصر، الثالث: من كان مؤمناً، الرابع: من كان مهتدياً). وقال أبو السعود: (أي عاقلا متأملا فإن الغافل بمنزلة الميت أو مؤمنا في علم اللّه تعالى

فإن الحياة الأبدية بالإيمان وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به).

❖ ❖

المعنى والله أعلم:

لينذر الرسول صلى الله عليه وسلم بنور الله من كان حيا، أي: من سبق في علم الله أنه حي في الآخرة (في الجنة)، فهذا هو الذي ينتفع بالذكر والإنذار، كما قال تعالى: (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)، وقال: (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ). و(كان) هنا تعبر عن الكينونة المستمرة، وليسن عن كينونة الماضي. فالمعنى أنك لا تنذر إلا من سبق في علم الله أنه سيكون حيا في الآخرة، كما قال: (إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ).

ثم قال: (وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)، فاستخدم هنا لفظ (يحق القول)، فهو مقابل لفظ (كان)، والمعنى: أنه قد سبق في علم الله أن هذا مؤمن وهذا كافر، فكما حق القول على المؤمن بأن يكون حيا في الجنة، فكذلك يحق القول على الكافر بأن يكون في ظلمات جهنم لا يموت فيها ولا يحيا.

قال تعالى: (وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)، فأمر الله مفعول، ولا راد لأمره، فمن سبق في علمه أنه من الهالكين فسيهلك، ومن سبق في علمه أنه من الأحياء في الجنة، فسيحيا، والذين يحيون إنما يحيون (عن بينة)، وهي البينة التي أنزلها الله إلى الناس، وجعلها نورا، فاعتدى بها المهتدون فكانت لهم الحياة الدائمة: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا).

❖ ❖

فالخلاصة إن (الإماتة)، لم تسند إلا إلى الله، وأما البشر فأسند إليهم فعل (القتل).

و(الإحياء) أسند إلى الله بمعنى أنه خالق الحياة في النفس، وأسند إلى عيسى؛ إذ مكنه الله من ذلك، وأسند إلى البشر بمعنى: أنهم أبقوا على ما أحياه الله فلم يقتلوه.

□

المطلب الثاني: المحيا والممات:

ما الفرق بين الحياة والمحيا، وما الفرق بين الموت والممات؟

هذا ما سأبحثه في هذا المطلب، من خلال دراسة الآيات التي ورد فيها لفظ (المحيا) و(الممات).

(١): سواء محياهم ومماتهم:

قال تعالى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ).

هذه الآية ثلاث جمل، هي:

الأولى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، وهذا كقوله: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)، وقوله: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ). والمعنى: أنصير هذا الفريق مثل هذا الفريق؟! فالآية تبين أن تصيير المؤمنين كالمجرمين، إنما هو وهم وظن لدى المجرمين.

الثانية: (سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)، وهذه الآية من المشكلات، وقد قرئت (سواء) بالنصب والرفع، ولها تخريجات كثيرة، يمكن الرجوع إليها في عامة كتب التفسير. وهي ما سأقف عنده.

الثالثة: (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)، أي: ساء الحكم حكمهم أولئك

المجرمين الذين حسبوا أن نجعلهم كالمؤمنين، وهذا كقوله: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) والقرآن الكريم ينكر على الكافرين سوء حكمهم في أقوالهم الباطلة، وافتراءاتهم على الله، كقوله: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)، وقوله: (أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا)، وقوله: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)، وقوله: (أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)...

وعليه فالتعقيب (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)، يفيد أن ما سبق مما ذكرته الآية إنما هو حكمهم، والآية ذكرت حكمين، الأول: جعل المسيئين كالمؤمنين، والثاني: استواء محياهم ومماتهم. فكلا الحكيم حسبان من المسيئين.

والتقدير: أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالمؤمنين!!

أم حسب الذين اجترحوا السيئات أنهم سواء محياهم ومماتهم؟!

والسؤال: (ما الذي حسبه المسيئون في استواء محياهم

ومماتهم)؟ وإلام يعود الضمير في (محياهم ومماتهم)؟

الضمير في (محياهم ومماتهم) كلاهما يعود إلى (الذين اجترحوا السيئات)، والمعنى: أحسب الذين اجترحوا السيئات أن مماتهم يستوي مثل محياهم؟! فهم كانوا يقولون: إذا كان هناك بعث بعد الممات فإن لنا عند ربنا الحسنى، وقد جاء هذا المعنى في كثير من الآيات، ومنها: قوله (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى)، وقول صاحب الجنتين (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا)، وقول الكافر: (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)، قال المفسرون أن العاص بن وائل قال: (إنْ كان هناك بَعْثٌ فسوف أكون في الآخرة كما كنت في الدنيا، صاحبَ مال وولد).

فمعنى الآية إذن: أحسب المسيئون أن نجعلهم كالمؤمنين؟! أحسب المسيئون أن يستوي محياهم ومماتهم، كما زعموا!! ساء ما حسبوا وما حكموا به.

وعليه فيكون التخريج على قراءة النصب (سواءً)، أن (سواء) بدل من مفعول (حسب)، وليس من الكاف، وليس حالا من الضمير في (نجعلهم)، وعلى قراءة الرفع (سواءٌ محياهم ومماتهم) تكون جملة اسمية، والجملة بدل من مفعول (حسب)، فهنا بدل جملة من جملة.

وهذا التخريج هو الأنسب دلالياً، ونحوياً، ويطرد مع ما استخدمه القرآن الكريم. والله أعلم.

❖ ❖

(٢): محياي ومماتي لله

قال تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ).

استخدم القرآن الكريم لفظ (محيا) مرتين، هذه الآية، وآية سورة الجاثية (سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ). والمحيا في كلا الآيتين ورد مضافا إلى (البشر)، وبتأمل آيات القرآن الكريم نجد ما يلي:

١/ (محيا) جاء مرتين، وفي كلا الموضعين أضيف إلى ضمير الناس. وفي كليهما، جاء في سياق حديث الله سبحانه وتعالى، وليس نقلا لحديث البشر.

٢/ (حياة) جاءت في القرآن معرفة (الحياة)، ونكرة، ولم تضف إلى ضمير البشر إلا حكاية لقول الكافرين، وموصوفة بـ(الدنيا) (حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) في ثلاثة مواضع، وفي الموضع الرابع خاطبهم الله بما كانوا يقولونه: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا). وأضيفت في قوله: (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)، والقول قول الكافر حين يدركه الندم، ولأنه تعوّد في الدنيا أن يضيف الحياة إليه (حياتنا الدنيا)، فكذلك يوم القيامة، ولأنها لم تعد حياة دنيا، بل أصبحت حياة أخرى، فيدرك أنها حياة مختلفة.

وعليه فيتبين من استخدام القرآن الكريم أنه لا يضيف لفظ (حياة) إلى الناس، بل يضيف لفظ (محيا)، وأن الكافرين توهموا أن الدنيا (حياتهم) فأضافوا الحياة إليهم.

ومن ثم فيتبين أن (المحيا) اسم لأعمال الدنيا في الحياة. فالمحيا

يضاف إلى الإنسان من حيث يراد به: (عمله في الحياة). أما (الحياة) فتطلق على المدة الزمنية التي يحياها الإنسان منذ أن يحييه الله حتى يميته.

فالحياة إذن يراد بها: المدة الزمنية التي يحياها الإنسان أو غيره، أما (المحيا) فهو أعمال الإنسان وأنشطته في الحياة، فهي تخص الإنسان. فـ(المحيا) مصدر ميمي (حيي يحيا محيا)، وليس اسم زمان. وبهذا نقول: حياة البشر، وحياة الحيوانات،... إلخ، فالحياة لفظ نصف به كل حياة خلقها الله، ولا نقول: المحيا، إلا مع الإنسان: محيا الإنسان.

❖ ❖

فقوله: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، أي: إن كل أعمالي وأنشطتي وقرباتي في الحياة لله رب العالمين. فأنا سأعبده وحده ولا أشرك به أحداً.

فالإنسان هو الذي يصنع محياه، والله هو الذي يمنحه الحياة.

ولا يصح حمل معنى قوله: (قل إن صلاتي ونسكي وحياي ومماتي لله)، بمعنى: حياتي وموتي لله، ذلك أن حياة الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم لله، فالله هو الذي يملك الحياة، كما قال: (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا)، فحياة الناس جميعا لله، وليس لهم اختيار في ذلك، فالله مالك كل شيء. وإنما الإنسان هو الذي يجعل محياه لله أو لغيره. وقد أمر الله رسوله بأنه يعلن أن محياه لله، أي: عبادته وأعماله في الحياة لله، وهو كقوله: (قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ

أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ)، وقوله: (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)، وقوله: (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

وقوله (سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)، فمحياهم بمعنى: أعمالهم في الحياة، فمقياس حياة الإنسان لا يكون بالمدة، وإنما بالعمل، ولذلك فالله سبحانه وتعالى يحاسب الإنسان على عمله. والعمل يشمل ما فعله، وما ترك فعله. فالمعتبر في حساب الله ليس حياة الإنسان، وإنما (محياه). ومن ثم فمن مات قبل التكليف فإنه مات قبل المحيا، ومن عاش غير مكلف، كالمجنون، فإننا نقول: حياة فلان وليس محياه.

وعليه فالأصح أن نقول: صفحات من محياي، ولا نقول: صفحات من حياتي. ونقول: معالم من محيا فلان، لا من حياته... إلخ.

فالمحيا إذن هو المنسوب إلى الإنسان، من حيث ما يعمله، أما الحياة فالله خلقها لكل نفس.

❖ ❖

كذلك هناك فرق بين (الموت) و(الممات)، فالموت هو القضاء الذي يصيب كل نفس، فهو مقابل (الحياة). أما (الممات) فهو ما يكون للإنسان بعد موته من جزاء جراء (محياه)، أي نتيجة لما كسبه في الدنيا. ف(الممات) هو (جزاء المحيا)، وهو تابع للمحيا، فمن كان محياه خيرا كان مماته خيرا، ومن كان محياه شرا كان مماته

شرا. والمؤمن يقول: محياي ومماتي لله، أي: أنا جعلت (محياي لله)، أي: أعمالي في الحياة الدنيا، و(مماتي لله) أي: أن جزائي بعد موتي سيكون كما وعدني الله، وهو الجزاء الصالح، فالله يحب من عباده الإيمان ولا يرضى لهم الكفر (وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ).

❖ ❖

(٣): ما دمت حيا:

الحياة وعاء زمني للإنسان يستطيع فيها أن يعمل ما شاء، وما يعمله هو (محياه) في (حياته). قال تعالى: (وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)، هذا عيسى عليه السلام، وقد تكلم بهذه في المهد، فقال: أن الله أوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيا، أي: ما دام مستطيعا على أن يفعل ما يفعله الحي. فالنائم مثلاً رفع عنه القلم، وهو في حكم الميت. وكذلك عيسى عليه السلام فهو مكلف بالصلاة والزكاة في حياته، وعيسى الآن قد توفاه الله (وفرق بين التوفي والموت)، فهو في حالة تشبه حال النائم، ومن ثم فهو غير مكلف بالصلاة والزكاة في هذه المدة منذ أن رفعه الله إليه، وحين ينزل إلى الأرض مرة ثانية فإنه يكون مكلفا بالصلاة والزكاة.

ولم يرد هذا اللفظ (ما دمت حيا) مع غير عيسى عليه السلام، وهذا إشارة إلى تميز حياته عن حياة البشر، وأن مدة طويلة من حياته سيكون فيها في حالة وفاة، فهي خارج نطاق ديمومة الحياة. والآية دليل على أن القلم مرفوع عن النائم حتى يستيقظ. والله أعلم.

❖ ❖

(٤): أذقناك ضعف الحياة وضعف الممات:

قال تعالى في سورة الإسراء: (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا). هذه الآية ظاهرها خطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم، وقد جاء معناها في آيات كثيرة، كما سأبينه.

تتحدث الآية عن محاولة المشركين في أن يبدل الرسول صلى الله عليه في القرآن، وهذه المحاولة حكاها القرآن في أكثر من موضع، كقوله: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

فقوله (وإن كادوا ليفتنونك..) أي: هم طلبوا منك أن تغير أو تبدل هذا القرآن.

ثم قال (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا)، قال أبو حيان في البحر المحيط: (وجواب "لولا" يقتضي إذا كان مثبتا امتناعه لوجود ما قبله، فمقاربة الركون لم تقع منه فضلا عن الركون والمانع من ذلك هو وجود تثبيت الله).

وقد أوضح الشنقيطي هذا المعنى، فقال في أضواء البيان: (هذه

الآية الكريمة أوضحت غاية الإيضاح براءة نبينا صلى الله عليه وسلم من مقاربة الركون إلى الكفار، فضلا عن نفس الركون ؛ لأن "لولا" حرف امتناع لوجود؛ فمقاربة الركون منعتها "لولا الامتناعية" لوجود التثبيت من الله جل وعلا لأكرم خلقه صلى الله عليه وسلم، فصح يقينا انتفاء مقاربة الركون فضلا عن الركون نفسه. وهذه الآية تبين ما قبلها، وأنه لم يقارب الركون إليهم البتة؛ لأن قوله: {لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا }، أي قاربت تركن إليهم - هو عين الممنوع بـ "لولا الامتناعية" كما ترى).

ولولا، تفيد امتناع الجواب لوجود الشرط، نحو: لولا أنك جئت لقد كنت أهلك. فامتنع حصول الهلاك لوجود الشرط (المجيء). وكذلك قوله: (لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا)، فامتنع الخسف لوجود من الله عليهم. وفي قوله: (وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا)، فامتنع حدوث العذاب في الدنيا لأن الله كتب الجلاء عليهم... فآية الإسراء معناها: أن الركون من الرسول لم يحدث البتة؛ لأن الله قد ثبته.

ومثل هذه الآية، قوله: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ). وقوله: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ). وقوله: (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ). وقوله: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ). وقوله: (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ

بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا).

فهذه الآيات ظاهرها خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وفحواها: الاستدلال على أن القرآن حق من عند الله، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله. فجاء الاستدلال بخطاب ظاهره الوعيد، ليكون أبلغ في الاستدلال، وأقوى في إقامة الحجة. وهو أسلوب بليغ من أساليب الاستدلال في القرآن الكريم.

فهو يقول: لو افترى محمد (صلى الله عليه وسلم) علينا لأهلكناه، ولكننا لم نهلكه، فالنتيجة إذن أن محمداً لم يفتر علينا، وأن ما جاء به هو الحق. فجاء ظاهر الدليل خطاباً موجهاً لرسوله، ولازمه دلالة تشهد بأنه حق من عند الله.

فمَثَل هذا، كأنْ يرسل ملك من الملوك رسولاً إلى بعض رعاياه، ويخاطب رسوله قبل أن يذهب: لو حرّفتَ رسالتي فسأقتلك، ويبلغ هذا الخطاب الرعايا، فإنهم يدركون أن الملك واثق من رسوله، وأن الرسول لن يفعل شيئا يغضب الملك؛ والنتيجة وثوق الرعية بالرسول، وبأنها تمثل الملك.

ولله المثل الأعلى، فهو الذي أرسل رسوله، وهو يعلم عنه كل فعلٍ، وقد سلك من بين أيدي رسله ومن خلفهم رصدا (فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ). وقال لرسوله: لو افتريت علينا لأهلكناك. وأمره أن يبين للناس خوفه من عذاب ربه: (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ). وبهذا قال للناس: انظروا هل يجرؤ رسولي على مخالفتي. فهذا يحقق الشهادة بأن الرسول على حق، وأن ما جاء به هو الحق.

وقوله: (ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)، أي: نحن تكفلنا بحفظك وعصمتك من الناس، ونصرتك، وإكمال ما جئت به، وإتمام النعمة عليك، وإظهار الدين. (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ). فلو افتريت علينا فكيف يكون مصيرك؟! سيتخطفك الناس ولن ينصرك الله، بل سيهلكك الله.

❖ ❖

وقوله: (إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ)، فما المراد بضعف الحياة وضعف الممات؟

المفسرون على أن المعنى: ضعف العذاب في الحياة وضعفه في الممات، أو ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة.

إلا أن هذا المعنى غير مُسَلَّم به، فلِمَ لمْ يقل: أذقناك ضعف العذاب، كما قال: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ)، أو كقوله: (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ). فلو قصد: العذاب لذكره، وهو مستخدم مطرد في القرآن الكريم.

أما المعنى – فيما يبدو لي – والله أعلم، فبيانه كما يلي:

اقتضت سنة الله أن تكون حياة الناس في الدنيا حياة ناقصة، وقد بينت مفهوم الحياة الناقصة، فالنوم مثلا هو مظهر من مظاهر الموت، فكل نفس في الدنيا تنام، ثم تعود لتحيا، وقد ذكرت أن الله سنّ النوم ليستطيع الكائن الاستمرار في الحياة، ولولا الموت لمات الكائن الحي (الكائن النفسي).

فالحياة الناقصة إذن نعمة من نعم الله على الناس في الدنيا، ولو شاء الله لحرم الناس من هذه الحياة الناقصة، وذلك بعدم نومهم، وعندئذ تتحول حياتهم إلى شقاء، ولا يستطيعون البقاء طويلاً، فينالهم الموت.

فـ(ضعف الحياة)، هو: إتمامها دون نوم، أو بعبارة أخرى أن يجعل الخلد للنفس، فالخلد أن تقيم النفس في الجسم إقامة دائمة دون مغادرتها لا لنوم ولا لموت. فلو أذاق الله بشراً ضعف الحياة، فإنه سيحرمه من النوم، فيشقى أشد الشقاء.

فالتهديد في الآية فريد في القرآن الكريم، فهو لا يتوعد بالعذاب، أو بمضاعفة العذاب، بل بمضاعفة الحياة، فالحياة دون مضاعفة هي مدة اليقظة، أما الحياة المضاعفة فهي مدة اليقظة ومدة النوم، كلها تصبح يقظة تامة. ولو حدث للإنسان هذا الأمر لمات. (وقد بينت هذا الأمر سابقاً).

❖ ❖

ولم يقل في الآية: ضعف المحيا؛ لأن المحيا: هو عمل الإنسان في الحياة، والمضاعفة لا تكون للمحيا وإنما للحياة نفسها.

❖ ❖

وأما قوله (ضعف الممات)، فقد بينت أن (الممات) هو جزاء الإنسان بعد الموت جراء محياه، (أي: نتيجة لما كسبه في الدنيا). ومن ثم فالآية تبين أن الجزاء سيكون مضاعفا، عن الجزاء الذي لغيره من الناس، فالغرم بالغنم، والملك يوقع أشد العقوبات بأشد المقربين إليه إذا خالفوا؛ لأنهم انتهكوا حدوده وقد اطلعوا على ما لم يطلع عليه سواهم، ومنحهم ما لم يمنح سواهم.

❖ ❖

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعوذ من فتنة المحيا والممات، كما في الصحيحين: (اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا، وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم).

فهو لم يقل: فتنة الحياة والموت، بل: فتنة المحيا والممات. ففتنة المحيا، أن يفتن المرء في الأعمال التي يقوم بها في حياته، وفتنة الممات، هو جزاء المحيا، فمن فتن في محياه فإن مماته فتنة والعياذ بالله.

❖ ❖

□

المطلب الثالث: من معجزات الإحياء والإماتة

قضى الله سبحانه وتعالى بأن حيي النفوس في الدنيا ثم يميتها، حتى يوم القيامة فيحييها ثانية. وهذه السنة مطردة في خلقه، سبحانه وتعالى. إلا أن القرآن الكريم ذكر لنا بعضا من معجزات الإحياء والإماتة التي حدثت في الدنيا.

وتتمثل هذه المعجزة في أربعة مظاهر:

الأول: إحياء الموتى في الدنيا.

الثاني: إنامة قوم سنين عديدة، ثم إيقاظهم. (أصحاب الكهف)، وسأتحدث عنهم في مبحث (التوفي).

الثالث: توفي عيسى. (وسأتحدث عنه في مبحث التوفي).

الرابع: إخفاء علامة الموت. (موت سليمان).

أولاً: الحياة بعد الموت في الدنيا

ذكر القرآن الكريم مجموعة من النماذج، ماتوا، ثم أحياهم الله في الدنيا، ومن ذلك:

الذي مر على قرية، فأماته الله مائة عام ثم بعثه، فأحياه وأحيا حماره الذي مات، قال تعالى: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ

عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

الذين خرجوا من ديارهم فأماتهم الله ثم أحياهم، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ).

السبعون من بني إسرائيل الذي كانوا مع موسى فقالوا لن نؤمن حتى نرى الله جهرة، فأماتهم الله ثم أحياهم، قال تعالى: (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ)، وقال: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

القتيل الذي أمر موسى قومه أن يذبحوا بقرة لمعرفة قاتله، فأحياه الله، قال تعالى: (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

كما حدث مع غير البشر وهو طير إبراهيم حين أراه الله كيف يحيي الموتى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

وأيضاً إحياء عيسى للموتى بإذن الله: (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ).

ثانياً: موت سليمان:

قال تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ).

تتحدث هذه الآيات عن بعض آيات الله التي سخرها لنبيه سليمان عليه السلام، ومن ذلك: الريح التي تجري بأمره، وإذابة النحاس له مما يمكنه من صناعة الآلات والأواني والأدوات، ومن الآيات: تسخير الجن فيعملون له ما يشاء من أعمال.

وبالنظر في سياق السورة، فإن موضوعها العام بيان (صدق الرسول، وأن ما جاء به من أخبار الغيب هو الحق الذي لا مرية فيه). وقد بدأت بالحديث عن منكري الساعة واستهزاء الكفار بأن الرسول ينبئهم بالخلق الجديد، وردت عليهم، وقد تضمن الرد علم الله وملكه وعدله وقدرته على كل شيء، فهذه أدلة على قيام الساعة.

وقد ذكر نموذجين، أحدهما نموذج مؤمن (داود وسليمان)، والآخر كفر (سبأ)، فالنموذجان اشتركا في أمر وهو أن الله أنعم عليهما نعما خاصة تفوق ما أنعم على غيرهم، فأحدهما شكر فشكر الله له، والآخر كفر فجازاه بكفره. فعدل الله تحقق في الدنيا، فكيف

لا يتحقق للناس جميعا. كما أن النموذجين يبينان قدرة الله في الإيتاء والجزاء، وإحاطته علما بما يفعل عباده، فهو عالم الغيب والشهادة، ولا أحد يعلم الغيب، حتى الجن.

ثم عقب على القصتين (آية ٢٢ -٢٧) ببيان أن له وحده الملك، وأنه المدبر والمجازي، فكيف يشركون به أحدا وهم لا يقدرون على ذلك؟ (قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). فكما ألا أحد غيره يعلم الغيب، حتى الجن، فلا أحد سواه يعطي ويمنع ويجازي.

وبعد أن أثبت صدق ما جاء به نبيه من قيام الساعة، واستدل له بدليل: القدرة والملك والعلم والعدل، عاد السياق إلى الحديث عن رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأنه مرسل بالحق، والقرآن حق، وبيان ديدن المكذبين للرسل من قبل، وحججهم، ومحاجتهم، ثم ختم السورة ببيان أنهم سيندمون على كفرهم، ويتمنون الإيمان ولكن حين لا ينفعهم الندم: (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ).

❖ ❖

وعليه فسياق قصة سليمان جاء لبيان ملك الله، وأنه يعطي من شاء ما شاء، وجاء لبيان تحقيق عدله في الدنيا لعبد من عباده، فكيف لا يحققه للمؤمنين به (وهذا في مقابلة تحقيق جزائه لمن كفر وهم قوم سبأ)، وكذلك الناس يرفلون في نعم الله، فلا بد أن يجازي من شكر بشكره، ويجازي من كفر بكفره.

ومن يزعمون أنهم شركاء لله، فإنهم لا يملكون مثقال ذرة (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ)، فكيف يجيبونهم لو دعوهم؟!

وكذلك لا أحد يعلم إلا الله غيب السماوات والأرض، فهو الذي يعلم الغيب كله، فلا تعزب عنه مثقال ذرة: (عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

فالملك والعلم كله لله، والخلق لا يملكون شيئا، ولا يحيطون بشيء من علم الله إلا ما شاء. ومن هؤلاء الجن، فهم لا يعلمون الغيب، فكيف يعبدهم الإنس أو يدعونهم أو يرجون نفعهم، ففي السورة جاء قوله: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا). فهم لا يملكون لكم أيها الإنس نفعا ولا ضرا، فكيف عبدتموهم، وقد تبين لكم أيضاً أنهم لا يعلمون الغيب؟! (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا).

❖ ❖

وفي هذا السياق يتبين لنا الحديث عن موت سليمان، فالله سبحانه وتعالى ذكر القصة في بيان أن الجن لا يملكون للإنس نفعا

ولا ضرا، ولا يعلمون من الغيب شيئا، فكيف يعبدونهم؟! فسليمان حين مات جعل الله موته آية، لتكون بينة على جهل الجن بالغيب، فمات وهو متكئ على عصاه، وكان يشرف على الجن وهم يعملون بأمره، فكانوا يرونه متكئا على العصا، ويستمرون في الأعمال التي أمرهم بها وهو حي، وما دروا أنه قد مات. حتى جاءت دابة الأرض فدلتهم على موته؛ إذ أكلت منسأته. وعندها تبينت الجن أنهم لا يعلمون الغيب، فإذا تبين هذا الأمر للجن فهو للإنس أبين.

ولا يعنينا الخوض في مقدار المدة التي مكثها سليمان ميتا وهو متكئ على عصاه، إنما تبين الآية أن موته خفي على الجن، وظل متكئا على عصاه، حتى دلتهم على موته دابة من دواب الأرض، فتبين لهم جهلهم. فالعبرة ليست بطول المدة أو قصرها، وإنما ببيان جهل الجن بالغيب.

فأخفى الله موت سليمان عليه السلام، برهة من الزمن، ليكون بينة على أن علم الغيب يختص به الله سبحانه وتعالى، وأن خلقه ما أوتوا من العلم إلا قليلا، وهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء. وأن خوارق الأفعال التي كانت تقوم بها الجن لا تدل على أنهم يعلمون الغيب، إنما هو علم من علم الشهادة أمكنهم الله منه، ولم يمكن البشر منه، فمن آتاه الله علما بالشيء ومكنة القيام به فإنه يتمكن من القيام به، كما مكّن الذي عنده علم من الكتاب أن يأتي بعرش بلقيس.

وقد جعل الله دليلا على جهل الجن بالغيب: الموت، فالموت أمر لا

يخفى في العادة على من بجوار الميت، بل تظهر علامات الموت بدءا من الاحتضار، حتى خروج النفس. فالموت شيء لا يخفى على أحد يكون بجوار الميت. فأعجز الله الجن في أمر واضح غاية الوضوح، فالله يقول لهم: ما تعلمون من شيء، ولا يتبين لكم من أمر إلا إذا شئت أنا، فحتى الموت لو شئت أن أخفيه عليكم لأخفيته، فكيف بالأمور الأخرى التي هي في العادة أخفى من الموت!!

وكما أظهر الله عجز الجن من هذه الناحية، فقد أظهره من ناحية أخرى، وهو أن الذي دلهم على موت سليمان ليس إلا دابة من دواب الأرض، قال صاحب التفسير القرآني للقرآن، فهو يبين (أن دابة من دوابّ الله في الأرض، أعلم منهم، حيث دلتهم، وكشفت لهم عما عجزوا وهم عن كشفه، وهى مما على الأرض، فكيف بما في السماء من عوالم المخلوقات؟).

فإذا تبينت الجن جهلها بالغيب، وهم يدركون ما لا يدركه الإنس، فكيف بالإنس إذن؟! عليهم أن يتبينوا أيضاً ألا أحد يعلم الغيب غير الله، فلا الإنس ولا الجن ولا من يزعمونهم شركاء يعلمون الغيب. ولو شاء الله لما علم الناس حتى بموت أحدهم، فالله هو الذي منح البشر القدرة على إدراك هذه الأمور الظاهرة، وإدراك ما هو أخفى منها. (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ).

فأجدر بأولئك الذين قالوا: (هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)، أن يأخذوا العبرة من دابة الأرض، التي دلت الجن بأنهم لا يعلمون الغيب، وأن الله وحده عالم

الغيب. فدابة الأرض دلت على خير وعلم وحق، والكافرون دلوا على شر وجهل وباطل، فشتان بين دالّين.

❖ ❖

فقصة سليمان إذن (في مختلف السور التي وردت فيها) تبين للناس حدود العلم وأطره وإمكاناته، وما الذي آتى الله خلقه وما الذي حجبه عنهم من العلم، وكيف يتمكن الإنسان بالعلم من تسخير المخلوقات والإفادة منها.

ومن ثم فمن أراد التفوق وتحقيق الخلافة في الأرض، والإفادة من ثرواتها وكنوزها، وتسخير طاقاتها وقواها، فإن سبيله إلى ذلك هو العلم، ومهما بلغ من العلم فيجب عليه أن يدرك أنه ما أوتي من العلم إلا قليلا، وأن ما لديه من العلم لا يجعله إلها في الأرض، ولا يخول له ادعاء علم الغيب، فدابة من الأرض قد تدله على ما لا يعلمه، فعليه أن يتواضع، وأن يكون هذا العلم باباً له لينال رضوان ربه، ويشكره، وينيب إليه، ويشهد به الحق الذي في السماوات والأرض، كما قال عن أولئك القوم: (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ).

❖ ❖

وهناك ارتباط آخر بين قصة سليمان وقصة سبأ، غير ما ذكرته (اشتراكهم في إنعام اله، وافتراقهم في الشكر والكفر)، الارتباط الآخر هو أن الله أظهر في قصة سليمان جهل الجن بدابة الأرض (قيل الأرضة وقيل غيرها)، فدلتهم على موته حين أكلت منسأته فخر،

فتبين للجن أنهم لا يعلمون الغيب.

وكذلك (سبأ)، فالله أرسل جرذاً فثقب سدهم، كما جاء في السير، (انظر تفسير الطبري)، فسال عليهم، وأغرق أموالهم. فالله بين لهم قدرته عليهم بخلق ضعيف من خلقه وهو (الفأر)، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

❖ ❖

فالخلاصة إذن أن الله سبحانه وتعالى جعل إحياءه لبعض الموتى في الدنيا دليلا على قدرته على إحياء الموتى يوم القيامة، كما جعل إماتته لسليمان عليه السلام دليلاً على تفرده بعلم الغيب، وألا أحد من خلقه يعلم الغيب، إلا ما شاء الله.

□

المطلب الرابع: حياة أهل الآخرة

قضى الله سبحانه وتعالى أن تكون حياة الناس في الدنيا حياة ناقصة، يعتريها نواقص الحياة، مثل: النوم، والموت. قال تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً). ووعد الناس أن الآخرة فيها الخلد: (دار الخلد/ جنة الخلد).

إلا أن الناس في الآخرة من حيث الحياة والموت، على قسمين: قسم يحيون حياة طيبة (وهم أهل الجنة)، وقسم لا يحيون ولا يموتون (وهم أهل جهنم).

أولاً: أهل الجنة: حياة طيبة

قال تعالى يبين طبيعة حياة أهل الجنة: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). وقال عن هذه الحياة: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى).

فالحياة الطيبة هي حياة أهل الجنة: (قال الحسن: لا تطيب لأحد حياة دون الجنة)، وهناك أقوال أخرى، وهذا الأرجح كما يبدو لي، قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ)، فالحياة الطيبة حيث الخلود، والمساكن الطيبة. فالطيب هو ما خلا من كل نقص، والحياة في الدنيا حياة ناقصة، ومن نواقصها: النوم، والمرض، والبلاء، والقذى، والكدر، وانقطاعها بالموت... إلخ، أما حياة المؤمنين

في الجنة فهي الخلود الدائم، والرضا، لا نصب فيها ولا حزن، ولا سقم ولا تعب، ولا نوم ولا موت...

وقوله: (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، ليس تأكيدا لما سبق كما قال بعضهم، ولكنه تأسيس لمعنى آخر، ولهذا نظائره في القرآن الكريم، كقوله: (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) فجمع بين الأجر وأنه لا خوف عليهم ولا حزن، وهو من الأجر أيضا، وقوله: (وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا)، فجمع بين الأجر والرزق المعد لهن، وهو من الأجر أيضاً، وقوله: (فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ)، فجمع بين جزائهم العذاب الشديد وأنه سيجزيهم أسوأ ما عملوا، والعذاب الشديد من الجزاء أيضاً، ثم قال: (ذلك) أي جزاؤهم من العذاب الشديد والجزاء بأسوأ ما عملوا.

وعليه ففي قوله: (لَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) جملتان مؤسستان، الأولى: الوعد بإحيائهم حياة طيبة، والثانية: بيان وجه الاستحقاق.

أما الحياة الطيبة فهي النعيم المقيم الذي في الجنة، فالآية تبين لهم أن جزاءهم سيكون الجنة. وسأبين مفهومه في الفقرات القادمة.

وأما قوله (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، فإنها تبين لهم أن ذلك الجزاء إنما استحقوه بأحسن عملهم. وأحسن

عملهم هو أخلصه وأصوبه كما قال الفضيل بن عياض. (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)، وأحسن العمل هو الذي يبقى للإنسان بعد أن ينفد كل ما عمله، فلا يقبل الله إلا أحسن العمل: (أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا). والآية كقوله: (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، وقوله: (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا). فعمل الإنسان لا يتقبل الله منه إلا أحسنه، وهذا يخصص عموم العمل الوارد في مثل قوله: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، فالله يجزي الناس بأحسن عملهم.

فالآية تبين للمؤمنين أن الوعد بالحياة الطيبة، فهذا الجزاء لا ينالونه إلا بأحسن عملهم.

❖ ❖

أما الحياة الطيبة، فقد جاء بيانها في كثير من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)، فالأجر غير الممنون، كما قال المفسرون: غير مقطوع ولا منقوص، وهو كقوله: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)، فبين أن عطاءهم غير مجذوذ، ونصيبهم غير منقوص.

فالحياة الطيبة هي حياة الخلود والنصيب التام غير المنقوص،

والعطاء غير المجذوذ، والأجر غير الممنون، (خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا). وحين ينال المؤمنون هذه الحياة يقولون: (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)، فهي دار المقامة التي لا رحيل عنها ولا تبدل، ولا نقص؛ فلا نصب ولا لغوب.

وقال تعالى مبينا هذا المقام: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)، فوصفه بأنه مقام أمين، فالمقام هو مكان الإقامة الذي لا يتبدل، والأمين، أي المأمون، قال الماوردي: قيل أمين من العذاب، وقيل أمين من الموت، وقال ابن الجوزي: (أمنوا فيه الغِيَر والحوادث). وكما قلت هو مقام أمين بمعنى أنه أمن تام من أي تبدل أو تغير أو حوادث أو موت أو نقص... ثم قال (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى)، فهم خالدون في حياة أبدا، لا موت فيها ولا نوم البتة. فأي حياة أطيب من هذه الحياة.

وكما وصف حياتهم بأنها طيبة، وصف مساكنهم بأنهم طيبة، فقال: (وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ). فهي مساكن طيبة، أي: لا تعتريها آفة، ولا تبلى، ولا تقدم، ولا تتهدم، ولا تكون خطرا عليهم، ولا تقفر ولا توحش، فحياتهم طيبة في المساكن الطيبة.

قال البيضاوي: (وصف الجزاء أولاً بأنه من جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها لتميل إليه طباعهم أول ما يقرع أسماعهم، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التي لا تخلو عن شيء منها أماكن الدنيا وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار عليين لا يعتريهم فيها فناء ولا تغير، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال: وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء).

❖ ❖

ثانياً: ساكن جهنم: لا يموت ولا يحيا

قال تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)، (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا). سأتحدث عن هذه الآية في المطلب التالي.

□

المطلب الخامس: الأموات والموتى والميتون

خلاصة الدلالات:

(الأموات): هم من خلق الله فيهم الموت أولاً قبل الحياة، فالحياة لم تخلق فيهم بعد، وقد يصيرون أحياء وقد لا يصيرون.

و(الموتى): هم من خلق الله الموت فيهم ثانيةً بعد الحياة، أي من أماتهم الله بعد أن كانوا أحياء.

و(الميتون): هم من سوف يخلق الله الموت فيهم ثانيةً بعد الحياة، أي من يميتهم الله بعد أن كانوا أحياء. فالقرآن الكريم استخدم اللفظ للإخبار عن مصير الناس، أي: لمن سيموت مستقبلاً.

أولاً: أموات:

(الأموات) و(الموتى)، كلاهما جمع، والمفرد من ذلك (ميت). والمتدبر للقرآن الكريم يجد أن ثمة فرقاً بين استخدام الجمعين.

فـ(أموات) جاءت في ستة مواضع، وهي تدل على حالة الموت أولا الذي خلقه الله في الشيء المخلوق، قبل أن يخلق فيه الحياة، وهذه الآيات، هي آية البقرة: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، وآية النحل: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)، وآية فاطر: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)، وآية المرسلات: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا)، وآيتي البقرة وآل عمران: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ

لَا تَشْعُرُونَ)، و(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ).

(١): وكنتم أمواتا فأحياكم:

أما آية البقرة (وكنتم أمواتا)، فهي تبين أن الناس كانوا جميعا أمواتاً، فأحياهم الله في الدنيا، وهو الإحياء الأول، ثم يميتهم ثم يحييهم في الآخرة لحسابهم وهو الإحياء الثاني. والحديث عن هذه الآية في المطلب التالي (عدد الموتات والحيوات).

❖ ❖

(٢): أموات غير أحياء:

قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ).

تتحدث آية النحل عن آلهة المشركين التي لا تسمع ولا تبصر، فأثبت لها حالة الموت، وهذا يدل على أن كل ما عبد من دون الله قد خلق الله فيه الموت، ثم قال (غير أحياء)، فهي حالة خاصة: موت بلا حياة، وهذه ليست في شيء إلا في الآلهة التي يعبدها المشركون وهي غير حية، فيخلق الله فيها الموت، ولا يحييها، ثم تكون حصبا لجهنم مع عابديها، قال تعالى: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ).

ولذلك نجد أنه سبحانه وتعالى وصف نفسه فقال: (الحي)، كما في قوله: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ)، فالحي هو الذي

لم تعرض له حالة الموت أبدا، فحياته لا قبل لها ولا بعد (حياة لم يسبقها موت، ولم يتخللها نوم، ولا يلحقها موت)، وهذا يدل على أن أي مخلوق حيٍّ لا يكون حيا إلا بعد أن يكون ميتا، ثم يحييه الله ثم يميته، وهذا ما نفاه الله عن نفسه سبحانه.

ولأن الإنسان (وكذلك كُلّ الأحياء) كانوا أمواتا قبل حياتهم، فإنه هذه الكائنات تتنازعها الحالتان، حالة الموت وحالة الحياة، فتكون لها من الأحوال ما يناسب كلتا الحالتين، فالإنسان مثلا: ينام (والنوم) ينتمي إلى حالة الموت، ويستيقظ (واليقظة) تنتمي إلى حالة الحياة.

وإدراك هذا الأمر يساعدنا على فهم قوله تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)، فذكر الحي، ثم ذكر (القيوم)، ثم قال (لا تأخذه سنة ولا نوم)، أي أن حياته تختلف عن حياة سائر الأحياء الذين تتنازعهم حالة الموت والحياة، فينامون، وينعسون، أما الله فهو الحي القيوم، فالقيوم هو الذي لا يموت، والنوم والسِّنَة (النعاس) من حالات الموت. وهذا كمال قيوميته، ولذلك لا يذكر (القيوم) إلا بعد (الحي)، فـ(الحي القيوم) هو (الحي الذي لا يموت)، وقد ذكر (الحي القيوم) في ثلاثة مواضع، وفي الموضع الرابع (الحي الذي لا يموت).

وأهل الجنة في الجنة قال تعالى عنهم: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى)، وورد في الحديث أن الرسول عليه الصلاة والسلام سئل: أينام أهل الجنة، فقال: (النوم أخو الموت ولا ينام أهل الجنة)،

فلا يذوقون فيها الموت: هو نفي للموت وحالاته المتعلقة به من نوم أو نعاس.

(٣): وما يستوي الأحياء ولا الأموات:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ).

وآية فاطر معناها: وما يستوي الأحياء الذين خلق الله فيهم الحياة بعد الموت، والأموات الذين خلق فيهم الموت، ولم يخلق فيهم الحياة، كما قال (أموات غير أحياء)، ثم قال (إن الله يسمع من يشاء) فالله هو الذي يسمع من يشاء: ميتا أو حيا، أما البشر فلا يمكنهم إسماع الموتى، وهذا يفسر قوله تعالى عندما قال للناس: (ألست بربكم)، فهو الذي أسمعهم وهم أموات.

❖ ❖

(٤): ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا:

قال تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا).

سأنقل تفسير الراغب الأصفهاني في مفرداته لهذه الآية، قال: (أي: تجمع الناس أحياءهم وأمواتهم، وقيل: معناه تضم الأحياء التي هي الإنسان والحيوانات والنبات، والأموات التي هي الجمادات من الأرض والماء وغير ذلك. والكفات، قيل: هو الطيران السريع، وحقيقته: قبض الجناح للطيران، كما قال: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ

فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ)، فالقبض هاهنا كالكفات هناك. والكَفْتُ: السّوق الشّديد، واستعمال الكفت في سوق الإبل كاستعمال القبض فيه). فهناك سعة أفق في فهم دلالة (كفاتا)، وفي فهم دلالة (أحياء وأمواتا).

وفي لسان العرب: (كَفَتَ يَكْفِتُ كَفْتاً وكَفَتاناً وكِفاتاً: أسرع في العدو والطيران وتَقَبَّضَ فيه... وفرس كَفْتٌ: سريع؛ وفرس كَفِيتٌ وقبيض... ومَرٌّ كَفِيتٌ وكِفاتٌ: سريع... والكَفْتُ: تقلب الشيء ظهرا لبطن، وبطنا لظهر).

وقوله في الآية (كفاتا)، يحتمل دلالة الضم والسرعة والتقلب، فالأرض تطير طيرانا سريعا متقلبا (كحالة الطير عند طيرانه)، ومع هذه السرعة فإنها ضامّة حاوية لمن فيها من الأحياء والأموات، لا يتناثرون خارجها، كما قال في آية أخرى (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا). وقد ذكرت بعد ذلك الرواسي الشامخات، كما ذكرت في قوله: (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ)، وقد ذكرت في تسعة مواضع دون وصف، ولم توصف إلا في المرسلات (شامخات)، فاتصل ذلك بالحديث عن سرعة الأرض وهيئة سيرها في الفَلَك، وكونها قرارا تحفظ ما عليها.

وقوله (أحياء وأمواتا)، نحمل دلالتها على ما اطرد في القرآن الكريم، أي: الأحياء الذين خلق الله فيهم الحياة بعد أن كانوا أمواتا، و(الأموات)، الذين خلق الله فيهم الموت، ولما يحيهم بعد.

❖ ❖

(٥): لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء:

قال تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) في سورة البقرة، وقال: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) في سورة آل عمران.

قال الماوردي: (في الآية ثلاثة تأويلات، أحدهما: أنهم ليسوا أمواتاً وإن كانت أجسامهم أجسام الموتى بل هم عند الله أحياء النفوس منعّمو الأجسام. والثاني: أنهم ليسوا بالضلال أمواتاً بل هم بالطاعة والهدى أحياء ، كما قال تعالى: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا}، فجعل الضالَّ ميتاً ، والمُهْتَدي حياً. ويحتمل تأويلاً ثالثاً: أنهم ليسوا أمواتاً بانقطاع الذكر عند الله وثبوت الأجر).

وقال البيضاوي: (وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي).

وقال ابن عاشور: (وإنما قال: ولكن لا تشعرون للإشارة إلى أنها حياة غير جسمية ولا مادية بل حياة روحية، لكنها زائدة على مطلق حياة الأرواح، فإن للأرواح كلها حياة وهي عدم الاضمحلال وقبول التجسد في الحشر مع إحساس ما بكونها آئلة إلى نعيم أو جحيم، وأما حياة الذين قتلوا في سبيل الله فهي حياة مشتملة على إدراكات التنعم بلذات الجنة والعوالم العلوية والانكشافات الكاملة، ولذلك

ورد في الحديث: «إن أرواح الشهداء تجعل في حواصل طيور خضر ترعى من ثمر الجنة وتشرب من مائها». والحكمة في ذلك أن اتصال اللذات بالأرواح متوقف على توسط الحواس الجسمانية، فلما انفصلت الروح عن الجسد عوضت جسدا مناسبا للجنة ليكون وسيلة لنعميها).

❖ ❖

التحقيق في الآية:

تبين هاتان الآيتان أن الله ينهى الناس عن أن يحسبوا – أو يقولوا – أن من قتل في سبيل الله (أمواتا)، ويعلمنا ربنا اللفظ الصحيح الذي ينبغي استخدامه لوصف هؤلاء (أحياء). فما دلالة ذلك؟

أود أولا أن أقرر أن القرآن الكريم لم يستخدم لفظ (أحياء) إلا في مقابل (أموات)، ولم يرد في مقابل (الموتى)، ففهم أن دلالة (الأحياء) هي المقابلة لدلالة (الأموات)، فالأحياء: هم من خلق الله فيهم الحياة بعد أن كانوا أمواتا. وقد تبين أن (الأموات) هم من خلق الله فيهم الموت أولاً قبل الحياة، فالحياة لم تخلق فيهم بعد، وقد يصيرون أحياء وقد لا يصيرون. وأما (الموتى)، فهم من يخلق الله الموت فيهم ثانية بعد الحياة، أي من يميتهم الله بعد أن كانوا أحياء. ولهذا فالإحياء الثاني أو البعث لا يكون للأموات، بل يكون للموتى، وكلما ورد في القرآن الكريم من ذلك فقد اقترن بـ(الموتى)، قال تعالى: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ)، وقال: (كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى)، وقال:

(وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى).

وأقرر ثانياً أن القرآن الكريم يفرق بين الموت والقتل، وقد قدمت بيان هذا في الجزء المعجمي من هذه الدراسة، كقوله: (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ)، وحتى في غير البشر، فرق بين الميتة وغيرها: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ)، فما أحل من ذلك إلا المذبوحة.

فالآية تقرر أن هؤلاء قتلى (لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ)، ولكنها تنهى عن تسميتهم أمواتا. فهم قتلى وليسوا أمواتا.

وقد تقرر مما سبق أن كل النفوس كانوا أمواتا، ثم أحياهم الله، ثم يصيرون (موتى) [أي: يموتون بعد حياة]. وعليه فلا نقول للموتى أنهم: أموات، ولكن نقول لهم: موتى. فالقتيل في سبيل الله مع غيره ممن يموت كلهم يسمون: موتى، ولا يسمون: أموات.

فهذا الأمر الأول الذي تقرره الآيات، وأما الأمر الثاني فهو أن القتلى في سبيل الله: أحياء.

الأحياء جمع حي، والحي هو الذي لم تفارق نفسه جسده، أما الميت فهو من فارقت نفسه جسده.

فالآية تبين أن كل من يموت فإن أنفسهم تفارق أجسادهم، أما القتلى في سبيل الله فإن أنفسهم تستمر في أجسادهم، ولكن كيف ذلك؟

قدم العلماء مقاربة لهذه الحقيقة، وألخصها فيما يلي:

قال قتادة (كما في الطبري): (أرواحُ الشهداء في صُوَر طير بيضٍ)، وقال الربيع: (في صُوَر طير خضر يطيرون في الجنة حيث شاءوا منها، يأكلون من حيث شاءوا)، وروى الطبري في تفسيره عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "الشهداءُ على بَارق، نهر بباب الجنة، في قبة خضراء -وقال عبدة: في روضة خضراء - يخرُج عليهم رزقهم من الجنة بُكرة وَعشيًّا")، وقال الطبري: (فان قيل: أليس جميع المؤمنين منعمين بعد موتهم؟ فلم خصصتم الشهداء؟ فالجواب: أن الشهداء فضلوا على غيرهم بأنهم مرزوقون من مطاعم الجنة ومآكلها، وغيرهم منعم بما دون ذلك).

وأخرج أحمد والحاكم من حديث ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لما أصيب إخوانكم - يعني يوم أحد - جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش»، والحديث صححه الذهبي. وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنما نسمة المسلم طير يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده إلى يوم القيامة"، والحديث صححه الألباني.

وأخرج مسلم عن مسروق، قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف

طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة»، فقال: "هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا"[٩].

وجاء في شرح الطحاوية: (فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه، أعاضهم منها في البرزخ أبدانا خيرا منها، تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون تنعمها بواسطة تلك الأبدان، أكمل من تنعم الأرواح المجردة عنها، ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير، أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير).

وقال الشيخ عمر الأشقر في كتابه "القيامة الصغرى": (والفرق بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرض، أما أرواح المؤمنين فإنها في أجواف طير يعلق ثمر الجنة ولا ينتقل في أرجائها).

[٩] قال القاضي عياض: وقد تعلق بحديثنا هذا وشبهه بعض الملاحدة القائلين بالتناسخ وانتقال الأرواح وتنعيمها في الصور الحسان المرفهة وتعذيبها في الصور القبيحة المسخرة ، وزعموا أن هذا هو الثواب والعقاب ، وهذا ضلال بين ، وإبطال لما جاءت به الشرائع من الحشر والنشر ، والجنة والنار ، ولهذا قال في الحديث : (حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه) يعني : يوم يجيء بجميع الخلق . والله أعلم.

❖❖

والخلاصة أن الميت يمسك الله نفسه، ويحبسها في مكان ما، فتظل ممسوكة في ذلك المكان حتى يبعث الله الموتى، فترسل كل نفس إلى جسدها. أما القتلى في سبيل الله، فبعد أن يمسك الله نفسه تنتقل نفوسهم إلى أجساد كهيئة الطير الخضر في الجنة، فتسرح وتأكل وتشرب فيها، فهم في الحقيقة أحياء، ويظلون كذلك حتى البعث، فيرسل الله أنفسهم إلى أجسادهم. فلا تكون نفوسهم ممسوكة كالنفوس الأخرى.

❖❖

□

ثانياً: الموتى:

الموتى: هم من قد خلق الله الموت فيهم ثانيةً بعد الحياة، أي من أماتهم الله بعد أن كانوا أحياء. فالقرآن الكريم يستخدم لفظ (الموتى) للدلالة على من ماتوا فعلاً بعد أن كانوا أحياء. وقد ورد لفظ (الموتى) سبع عشرة مرة، وجاء في ثلاثة سياقات:

السياق الأول: الحديث عن إحياء الله الموتى، وأن الله سيبعثهم، وقدرته على ذلك، وقد جاء مفعولاً لثلاثة أفعال: أحيا، أخرج، بعث، كقوله: (كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى)، وقوله: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى)، وقوله: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ)، وقوله: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى)، كما جاء مضافا إلى الوصف: محيي، في قوله: (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

السياق الثاني: إحياء عيسى للموتى بإذن الله، وجاء في موضعين: (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ)، وقوله: (وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي). وقد تحدثت عن هذا سابقاً.

السياق الثالث: الحديث عن سماع الموتى وكلامهم، وجاء في أربعة مواضع، قوله: (وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى)، وقوله: (أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)، وقوله: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى) مرتين.

فالموتى هم من ماتوا بعد حياة، وهذه الآيات تبين أن للموتى خواص تخصهم، فيمكن أن يتكلموا، ويكلموا، ويسمعوا، ولكن لا قدرة للبشر أن يفعلوا ذلك، وقد جعل الله هذه الخاصة لبعض ملائكته،

وقد جاءت أحاديث عديدة ومنها ما أخرجه الترمذي وحسنه الألباني: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا قبر الميت - أو قال: أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال له، نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقا قال: سمعت الناس يقولون، فقلت مثله، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف فيها أضلاعه، فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك".

وفي سنن أبي داوود حديث طويل، وفيه: (ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله..).

❖ ❖

□

ثالثاً: ميتون:

الميتون: هم من سوف يخلق الله الموت فيهم ثانيةً بعد الحياة، أي من يميتهم الله بعد أن كانوا أحياء. فاستخدم القرآن الكريم اللفظ للإخبار عن مصير الناس، أي: لمن سيموت مستقبلاً، وجاء في ثلاثة مواضع، قوله: (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ)، (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)، ففي الآيتين يخبر عن مصير الناس، وأنهم صائرون إلى الموت.

والموضع الثالث جاء فيه إخبار الكافرين عن موتتهم التي يصيرون إليها: (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ). فالآية تنقل ما كان الكافرون يقولونه في الدنيا أثناء حياتهم، أنهم لا يموتون إلا موتة واحدة ثم لا حياة.

❖❖

□

رابعاً: مَيْت وميّت:

اتفق القراء كلهم على تشديد لفظ (ميّت)، في ثلاثة مواضع، قال ابن الجزري في النشر في القراءات العشر: (واتفقوا على تشديد ما لم يمت، نحو {وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ}، و{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} ؛ لأنه لم يتحقق فيه صفة الموت بعد بخلاف غيره).

فاتفاق القراء في القراءة دالّ على اتفاقهم في المعنى، ومن ثم فإن (ميّت) و(ميّتون) بالتشديد دلالته لمن لم يمت بعد.

أما بقية مواضع (ميت) فقد اختلف القراء فيها بين التخفيف والتشديد، كقوله: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) وقوله: (بَلْدَةً مَيْتًا)، وقوله: (حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ)، وقوله: (وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ). وعليه فلا يصح أن نفرق بين الميْت والميّت في هذه المواضع، فالاختلاف اختلاف قراءة وليس اختلاف دلالة.

□

المطلب السادس: (عدد الموتات والحيوات)

وهنا سؤال: كم حياة وإماتة تكون للإنسان؟

هناك ثلاث آيات في القرآن الكريم تبين لنا هذا الأمر، وهي قوله تعالى في سورة البقرة: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، وفي سورة غافر على لسان أهل جهنم: (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ)، وفي سورة الدخان في وصف نعيم أهل الجنة: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ).

اختلف المفسرون اختلافا طويلا في إجابة السؤال المبين، ويمكن الرجوع إلى كتب التفسير، فلا أريد الإطالة بنقلها. وسأفصل الإجابة عن السؤال في الحديث التالي:

أولاً: (وكنتم أمواتا):

قال تعالى في سورة البقرة: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، وقد اختلف المفسرون اختلافا طويلا في دلالة الآية، (كنتم أمواتا فأحياكم)، وقد أجملها ابن عطية في تفسيره، وخلاصتها: (الأول: كنتم أمواتا معدومين قبل أن تخلقوا، ثم خلقتم وأخرجتم إلى الدنيا فأحياكم. والثاني: كنتم أمواتا في أصلاب آبائكم - أو في الأرحام - فأخرجتم إلى الدنيا فأحياكم. والثالث: كنتم أمواتا بالموت المعهود ثم أحياكم للسؤال في القبور، ثم أماتكم فيها، ثم أحياكم للبعث.

والرابع: وكنتم أمواتا بالخمول فأحياكم بأن ذكرتم وشرفتم. والخامس: الله تعالى أخرج نسم بني آدم أمثال الذر ثم أماتهم بعد ذلك، ثم أحياهم بالإخراج إلى الدنيا).

وأقول وبالله التوفيق:

خلق الله الموت أولاً في الناس، فالموت غير الإماتة، فالإماتة لا تكون إلا بخلق الموت في الشيء الحي (فالإماتة بعد الإحياء)، أما الميت، فهو ما يخلق الله فيه الموت سواء أكان حيا أو لا. وحالة الموت لا تعني العدم، بل هي حالة لها خواصها التي لا نعلم عنها إلا القليل، فآية البقرة نص صريح في هذا، قال تعالى: (وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم)، أي: كيف تكفرون بالله وقد كانت حالتكم أولا هي الموت، فكنتم أمواتا، فهو يصف الحالة الأولى للإنسان، فالموت فيهم سابق على الحياة. ومما يستأنس له قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)، فقدم الموت على الحياة، أي خلق الموت فيكم أولا، فكنتم أمواتا. كما قدمه في قوله: (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا)، فذكر الحالات الثلاث: الموت، والحياة، والنشور. وهناك دليل آخر، وهو استخدام لفظ (أموات) في الآية، وسأوضحه بعد قليل.

ولا يسوغ أن نفسر قوله (وكنتم أمواتا) بالقول أنها حالة العدم قبل الخلق، فالعدم لا يوصف بموت أو حياة، والموت شيء مخلوق، ولا يمكن أن يكون حالة لمعدوم، بل الأولى أن نقول أن الله خلق الموت في الناس أولا، فكانوا أمواتا، ثم خلق الحياة فيهم (فأحياكم) وهي

حياتهم في الدنيا، (ثم يميتكم)، بالموت المعهود كما قال (ثم أماته فأقبره)، والإماتة تكون بعد الحياة، بخلاف الموت كما بنيته، (ثم يحييكم)، وهو إحياء الناس يوم القيامة، وهي الحياة الثانية لهم.

ولعل هذا يفسر قوله تعالى: (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)، فالمعنى والله أعلم: نحن خلقناكم، وقدرنا فيكم الموت أولاً، وما كان يعجزنا أن ننشئكم نشأة أخرى بعد ذلك، ولكن أنشأناكم النشأة الأولى التي تعلمونها. فذكر الموت بعد الخلق، وقبل النشأة.

وهذا يفسره قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)، وقد ذكر: إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي في أربعة مواضع، وكلها تذكر إخراج الحي من الميت أولا، فهو يتحدث عن سنة من سننه، فكل حي كان قبل حياته ميّتا، ثم خلق الله الحياة فيه فصار حيا، فالله أخرج المخلوق الحي من المخلوق الميت (وهذا إخراج الحي من الميت). ثم بعد أن يصير مخلوقا حيا، يخلق الله الموت فيه، فيصبح مخلوقا ميتا، (وهذا إخراج الميت من الحي).

وفي هذا آية عظيمة، فالبشر كلهم أحياهم الله بعد أن كانوا أمواتا، ومن ثم ستكون إعادتهم كذلك، فيعيدهم أحياء بعد أن

يصيروا موتى، وهذا يؤيده قوله تعالى أيضا: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ)، فإعادة خلق الحياة في الموتى مثل خلق الحياة في الأموات.

وحالة (الموت الأول) لا نعلم عنها كثيرا، والله سبحانه وتعالى قد أخبرنا في كتابه عن خاصة من خواص هذه الحالة الأولى، قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا)، وقوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ).

كما أخبرنا الله عن خصائص حالة الموت عامة، ومنها قوله: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)، وقال: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)، وفي السنة كثير من الآثار التي تبين ذلك.

ونحن لا يمكننا القول أن الميت لا يتكلم ولا يسمع... فهذا هو إدراكنا، ولا يصح أن نتأول الغيب على ما ندركه في الشهادة، وإلا فالإنسان في قبره له خواص تختلف عن خواص الحياة، ولا يصح أن نسمي تلك الحالة (وهي غيب) باسم لم يسمه الله في كتابه، ولا رسوله في صحيح سنته، فهذا قياس لعالم الغيب بمقاييس عالم الشهادة. فنحن نثبت ما ثبت في السنة للإنسان في قبره من نعيم أو عذاب، ولا نسمي ذلك حياة، كما يقولون: (حياة البرزخ)، بل هي حالة لها خواصها.

ثانياً: (أمتنا اثنتين)

بينت أن قوله (وكنتم أمواتا)، يبين أنها حالة الإنسان قبل حياته، فكل حي كان ميتا، والميت ليس المعدوم، بل هو شيء مخلوق خلق الله فيه الموت، ولم يخلق الله فيه الحياة. وبينت الفرق بين الموت والإماتة، فالإماتة لا تكون إلا بعد الحياة. وعليه فالآية تتحدث عن حياتين وموتة: حياة الإنسان في الدنيا، ثم موته، ثم حياته في الآخرة. إذن فموت الإنسان في الدنيا هي الموتة الأولى، وهي المقصودة في سورة الدخان (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى)، وهذه الموتة التي يذوقها الأحياء كلهم. وهذه الموتة هي التي كان الكافرون في الدنيا يدعون أنها نهاية وجودهم، ولن يكون بعدها نشور، قال تعالى: (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ). فهذا لا إشكال فيه.

ولكن الإشكال يتراءى في آية غافر (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ). فهم لم يقولوا أنهم ماتوا مرتين، بل قالوا: أمتنا اثنتين، فدل على أن الإماتتين بعد حياتين. وقد أخبرنا الله عن أهل الجنة أنهم (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى)، فدل على أن الله أنعم عليهم بألا يذوقوا الموتة الثانية، وأن أهل الجنة وأهل جهنم قد ماتوا الموتة الأولى. وبذلك يتبين أن الإماتة الثانية لا تنال أهل الجنة، ولكن أهل جهنم يقولون أنهم أميتوا ثانية. فهل سيميت الله أهل جهنم موتة

ثانية؟ وإذا كان كذلك فإنه سيحييهم بعدها وتكون حياة ثالثة، غير أن أهل جهنم يثبتون حياتين.

أقول – وعلى ربي التكلان – إن أهل جهنم كما قال تعالى عنهم، يكونون في حالة ثالثة، لا توصف بالموت ولا بالحياة، فلا هي بموت ولا بحياة، قال تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)، وقال: (الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)، وقال: (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)، فهم يذوقون الموت ولكنهم لا يموتون، وقال: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ **لَا** يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ)، فهم لا يقضى عليهم الموت، ومن ثم فلا يموتون. وهذه الحالة لها خواصها التي تختلف عن خواص الحياة والموت، وهي حالة مناسبة لساكني جهنم، وكل ما ذكره الله من أحوال يتعرضون لها، فإنما هو وصف لهذه الحالة.

وبوضع هذه المقدمات، يتبين لنا أن أهل جهنم لم يتبين لهم الحالة التي هم فيها، فهم لا يدرون هل هي إماتة أو لا، ومن ثم يلتبس عليهم الأمر، ويعتقدون أنها إماتة، فهي ليست إماتة ولكنها حالة ثالثة (لا موت ولا حياة)، كما قال عنهم (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ)، فهم يذوقون الموت ولكنهم لا يموتون. ولذلك فإن الله لم يقل عن أهل الجنة (لا يموتون)، بل قال: (لا يذوقون فيها الموت)، فقد يذوق الإنسان الموت ولكنه لا يموت، وهذه حالة أهل جهنم، كما قال عنهم: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ

نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)، فسمى هذه الحالة (تبديل الجلود كلما نضجت) ذوقا للعذاب.

❖ ❖

الخلاصة:

وبهذا يتبين لنا بشأن عدد الموتات والحيوات في الناس عامة [وهذا عدا حالات مخصوصة، كمن أماتهم الله في الدنيا ثم أحياهم]، كما يلي:

١. كان الناس أمواتا (وكنتم أمواتا): خلق الله فيهم الموت.

٢. الحياة الأولى (فأحياكم): وهي خروج الإنسان إلى الحياة الدنيا.

٣. الموتة الأولى (ثم يميتكم): وهي موتة الإنسان بعد حياته.

٤. الحياة الثانية (ثم يحييكم): وهي حياة الناس يوم القيامة. وهي حياة لا يموتون بعدها.

٥. (لا موت ولا حياة): وهذه حالة الذين كفروا في جهنم، كما أخبرنا القرآن الكريم، فهم يذوقون الموت ولا يموتون، ولا يحيون، ويتوهمون أنها إماتة ثانية.

والله أعلم.

المطلب السابع: الحياة الدنيا والآخرة

أتناول في هذا المطلب (الحياة الدنيا) من منظور معجمي، لا موضوعي، وذلك لصلته بلفظ (الحياة).

أولاً: ورود (الدنيا) و(الآخرة) في القرآن

ورد لفظ (الدنيا) بمعنى الحياة الدنيا: (١١١) مرة، وورد لفظ (الآخرة) المقابل للدنيا: (١١١) مرة أيضاً[١٠].

وقد جاءت الدنيا بالتراكيب التالية:

- (صفة) للحياة: الحياة الدنيا: ٦٤، حياتنا الدنيا: ٣، حياتكم الدنيا: ١.
- مضاف إليه: أضيفت إلى: ثواب:٤، حرث:١، عَرَض:١، متاع:١.
- مجرور: بـ(في): ٢٨، بـ(من): ١، وجاء بلفظ: في هذه الدنيا: ٥ مرات.
- مفعول به، والفعل: يريد:١، خسر:١.

أما (الآخرة) فجاءت بالتراكيب التالية:

- (صفة)، للدار: ٦.

---

[١٠] في حين ورد لفظ (الدنيا) وصفاً بمعنى: الأدنى: ٤ مرات، (العدوة الدنيا) مرة، و(السماء الدنيا) ثلاث مرات. وورد لفظ (الآخرة) وصفا بمعنى: الآخر: ٤ مرات أيضاً، (النشأة الآخرة) مرة، و(الملة الآخرة) مرة، و(وعد الآخرة) مرتين. فكل منهما ورد لفظه (١١٥) مرة.

- مضاف إليه، وأضيفت إلى: أجر:٢، نكال:١، لقاء:٣، ثواب:٢، عذاب:٦، حرث:١، دار:٣.
- مفعول به، للأفعال: يريد:٢، أراد:١، يخافون:١، تذرون:١، يحذر:١.
- مجرور: بالحروف: في:٣٠، اللام:٣، الباء:٢٢، من:٢، على:٢، عن:١.
- اسم إن: ١، وخبر:١،
- معطوف بالواو: ١٩.

❖ ❖

وقد ورد للآخرة مجموعة من الأسماء، وأشهرها: يوم القيامة، وكذلك أشهر أسماء الدنيا: الحياة الدنيا. وكل اسم يأتي باعتبار وصفي مختلف عن غيره من الأسماء. وليس هذا مقام تفصيلها، إنما أشير إلى الألفاظ التي اقترنت بالآخرة وبالدنيا.

أما الدنيا، فقد تأتي مطلقة دون اقتران، إذا كان الحديث عنها وحدها، كقوله: (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ). واقترنت عطفاً بالألفاظ التالية:

- (الآخرة)، وهو الغالب، كقوله: (لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ). والآخرة كما ذكرت يقصد بها دار أهل الجنة وأهل جهنم.
- (الدار الآخرة)، كقوله: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ).

- (يوم القيامة)، كقوله: (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، وقوله: (قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ).
- (يوم يقوم الأشهاد)، كقوله: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ).
- (اليوم)، كقوله: (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا).
- (ما عند الله)، كقوله: (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

أما الآخرة، فقد جاءت مطلقة، كقوله (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)، وجاء لها المقابلات التالية:

- (الدنيا)، كقوله: (لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ).
- (الحياة الدنيا)، كقوله: (اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ).
- (الأولى)، كقوله: (لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ).
- (العاجلة)، كقوله: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ).

ثانياً: خلاصة الاستخدام:

يتبين من استخدام القرآن الكريم للفظي الدنيا والآخرة ما يلي:

(١): الحياة والحيوان:

اقترن لفظ (الحياة) بالدنيا: (الحياة الدنيا)، ولم يقترن بـ(الآخرة)، فلم يرد فيه: الحياة الآخرة، وإنما ورد الإخبار عن الدار الآخرة أنها: حيوان، قال تعالى: (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ). وقد بينت دلالة كل من: الدار الآخرة والحيوان.

ومن ثم فنحن نقول: الحياة الدنيا، ولا نقول: الحياة الآخرة؛ لأمرين:

الأول: أن أهل جهنم ليس لهم حياة، كما قال تعالى: (فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا).

الثاني: وصف الله حياة أهل الجنة بأنها حياة طيبة: (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)، وبين أن الحياة الطيبة هي التي لا تنقطع أبدا، فهي دار المقامة: (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ). وبين الله أن دار المتقين حيوان: (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ). فحياة أهل الجنة ليست حياة، بل: حياة طيبة، أو حيوان.

(٢): حقيقة الحياة الدنيا والآخرة:

وصف الله الحياة الدنيا – قياساً إلى الآخرة - بأنها: متاع قليل، وأنها لهو ولعب، وزينة، وتفاخر، وتكاثر، وغرور، (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ)، (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ).

كما بين أن الدنيا إنما تزين للكافرين، ولا يغتر بها إلا من خسر نفسه: (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)، (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا).

وبين موقف الناس منها، فإما يبيعها وإما يشتريها. ويلاحظ أن القرآن الكريم يصف موقف الإنسان اللاهي من الحياة الدنيا بمجموعة كبيرة من الأفعال: اغتر بها، وأرادها، فاشتراها، ورضيها، واستحبها، وآثرها، وفرح بها، واستمتع بها، ومن ثم فهو إنما يقضي هذه الحياة الدنيا، وسعيه فيها ضلّ، وعلاقاته مبنية على مصلحته في الحياة الدنيا: (مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، وعلمه ومعارفه كلها منصبة على الحياة الدنيا (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا). فكل هذه الأفعال واردة في مقام ذم التعلق بالدنيا، وقد قدمت أمثلة كل ذلك في الجزء الأول.

أما المتقون فلم يأت عنهم إلا فعل البيع: (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ). فقوله: يشرون، أي: يبيعون. فهو يبين أنهم غير متعلقين بها البتة، فهم قد باعوها، ومن ثم فإنه لا يبين تعلقهم بها حتى على وجه النفي، فلا يقول مثلا: إنهم لا يستحبونها، أو: إنهم لا يؤثرونها.. فمن باع شيئا فقد انصرف عنه، ولم يعد متعلقا به.

❖ ❖

كما جاء الحديث عن الحياة الدنيا ببيان الموازنة بين ما أعد الله فيها وما أعده في الآخرة سواء للمتقين أو المجرمين:

فالمجرمون لهم في الدنيا والآخرة: الخزي، والعذاب.

وأما المتقون فلهم في الحياة الدنيا والآخرة: البشرى، ويثبتهم الله بالقول الثابت، ونصرة الله، وولايته.

كما يبين الحق سبحانه أن الدنيا ليست محلا للجزاء، وتوفية الأجر إنما تكون في الآخرة، ولكن من أراد الدنيا فإن الله يوفي له أجره فيها: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ).

كما بين الحق سبحانه بعض سننه في الحياة الدنيا، فبين أنه قسم المعايش بين الناس جميعا في الدنيا، وجعل زينته فيها لهم جميعا، (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)، فتتفاوت عطاءاته في الدنيا، وهي فتنة واختبار: (وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

❖ ❖

(٣): الآخرة والدار الآخرة:

أما الآخرة، فإما تأتي بلفظ (الآخرة)، أو وصفا للدار: (الدار الآخرة)، وأبين اللفظين فيما يلي:

(الدار الآخرة):

لم تأت الآخرة وصفا للحياة، وإنما جاءت وصفا لـ(الدار)، كقوله: (وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ)، وقد بينت أن (الدار الآخرة) لا يطلقها القرآن إلا على (الجنة)، فالجنة هي الدار الآخرة.

واستخدم القرآن الكريم أربعة تراكيب مع (الدار) وكلها قصد بها الجنة، وهي:

- عاقبة الدار: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ)
- عقبى الدار: (أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا).
- الدار الآخرة.
- دار الآخرةِ، وهي دار المتقين، كما قال: (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ).

أما جهنم فكان المقصود بها في سياق واحد: سوء الدار: (أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ).

وقال تعالى: (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ)، أي: ذكرى الدار الآخرة، فالله خصهم بهذه الميزة، وهي أنهم يذكرون الدار الآخرة ويرجونها، فلا ينسونها.

❖ ❖

الآخرة:

وقد جاءت (الآخرة) باستخدامين:

الأول: يقصد بها اليوم الآخر، فيشمل كل الأحداث التي فيه بدءا من الخروج وحتى استقرار المتقين في الجنة والكافرين في النار، كما تشمل دار القرار للمتقين ودار الكافرين. (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

ولذلك تأتي في سياق الإيمان بها أو الكفر، أو حذرها، أو رجائها... كقوله: (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)، وقوله: (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ)، وقوله: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)، وقوله: (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)، وقوله: (لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ)، وقوله: (لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)، وقوله: (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)، وقوله: (يَحْذَرُ الْآخِرَةَ)، (كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ)، وقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ)، وقوله: (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ).

الثاني: يقصد بها دار المتقين فقط، كقوله: (وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)، وقوله: (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)، وقوله: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)، وقوله: (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى).

□

المبحث الرابع: التوفي

التوفي: إمساك النفوس.

يدل (التوفي) على إمساك النفوس، بصريح آية الزمر: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، فالتوفي هو إمساك النفوس. ثم إن للتوفي حالتين (كما تبين آية الزمر)، الأولى: إمساك النفوس ويقضي عليها الموت (الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)، والحالة الثانية: إمساك النفود دون أن يقضي عليها الموت (الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا). ثم يكون البعث بعد النوم: وهو إرسال النفوس التي لم تمت. [وسأفصل الحديث عن البعث لاحقا].

وقوله (حين موتها) يوضح أن دلالة توفي النفوس تشمل الموت وغير الموت، وحيث جاءت قرينة لانصراف اللفظ إلى إحدى الدلالتين كان ذلك كافيا، فلما اجتمعا في هذه الآية كان النص على الدلالة مسلكا محددا لكل دلالة.

وقد بينت دلالة (و ف ى)، وأنها تدل على الإكمال والتمام، وكذلك إمساك النفوس، حيث إن حالة إمساك النفوس، كحالة أخذ الشيء كاملا تاما، وفي هذا دلالة على أن النفوس هي ملك الله، فالله أودعها في المخلوق الحي، فهي وديعة، وحين يمسكها فإنه يستوفي حقه كاملا تاما. إذن فالتوفي لا يدل على الموت، ولكنه يدل على إمساك النفوس.

❖ ❖

أولاً: الحالة الأولى: إمساك النفس دون أن يقضي عليها الموت

والتوفي (إمساك النفوس) في القرآن الكريم، كما بينا له حالتان:

الحالة الأولى: إمساك النفوس دون أن يقضي عليها الموت، فهو يمسكها إلى أجل ثم يرسلها، ولهذه الحالة ثلاثة أمثلة:

(١): المثال الأول: النوم

المثال الأول: كل إنسان يتوفاه الله في نومه ثم يبعثه فيستيقظ. كما في الآية (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، وكما في قوله: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى).

(٢): المثال الثاني: أصحاب الكهف

المثال الثاني: أصحاب الكهف، قال تعالى: (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا)، فضرب الله عليهم نوما طويلا، فأصبحوا رقودا كما قال عنهم (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ)، وقد استمر رقودهم كما قال تعالى: (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا). فهو رقود طويل امتد كل هذا الزمن، ثم بعثهم الله من نومهم، فأرسل إليهم نفوسهم التي أمسكها، ولم تمت.

(٣): المثال الثالث: وفاة عيسى

المثال الثالث: عيسى عليه السلام، قال تعالى: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا)، وقال عيسى كما يحكيه القرآن عنه: (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)، فهذا الموطنان اللذان ذكر فيهما توفي عيسى عليه السلام، ولم يذكر أنه مات.

وفي قوله تعالى: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)، فموته سيكون قبل يوم القيامة، وسيؤمن به بعض أهل الكتاب قبل موته.

فالله عز وجل قبض نفس عيسى عليه السلام، وهو المراد بقوله (متوفيك)، (توفيتني)، كما يقبض نفس النائم، وكما قبض نفوس أصحاب الكهف، وسيرسل الله نفسه في الدنيا، فيبعثه، كما يبعث النائم، وكما بعث أصحاب الكهف بعد نومهم.

هذا أولاً، والأمر الآخر في مثال عيسى، أن الله رفعه إليه بعد قبض نفسه، فعيسى عليه السلام في حالة كحالة النائم، أو كحالة رقود أهل الكهف.

فالله يقول (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)، أي: أحسبتَ أن قصتهم عجبا، فهناك أعجب منها، وهو عيسى عليه السلام.

والله سبحانه وتعالى كما بين لنا في كتابه قد أعطى عيسى القدرة على إحياء الموتى، وذكر ذلك مرتين، مرة قالها الله له: (وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)، ومرة قالها عيسى عن نفسه: (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ). فعيسى كان يحيي الموتى بعد توفيهم، فكان هذا مقابلا لتوفيه عليه السلام بقبض نفسه أمداً طويلا دون موت، وقد ذكرها الله في كتابه مرتين، مرة قالها الله له: (إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)، ومرة قالها عيسى عن نفسه: (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ)، فهذه بتلك.

❖ ❖

فهذه ثلاثة أمثلة للحالة الأولى، وهي: إمساك النفوس دون أن يقضي عليها الموت. وهذه الحالة لم تسند إلا إلى الله سبحانه وتعالى: (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ)، و(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ)، و(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ)، و(إِنِّي مُتَوَفِّيكَ)، و(فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي).

❖ ❖

ثانياً: الحالة الثانية: إمساك النفوس فيقضي عليها الموت

الحالة الثانية: إمساك النفوس، ويقضي عليها الموت. ففي هذه الحالة يخلق الله الموت في النفوس التي أمسكها، كما قال تعالى: (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا).

وهي الواردة في كثير من آيات الكتاب العزيز. وبالتأمل فيها

نجد أن (التوفي) أسند إلى الله، وأسند إلى ملك الموت، وإلى الملائكة، وإلى الموت نفسه.

(١): الله يتوفاكم:

إسناده إلى الله في قوله: (وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)، وقوله: (وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ)، وقوله: (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا). فالله هو الذي يخلق الحياة ويخلق الموت سبحانه وتعالى، ولذلك كما ذكرت سابقا فإن الإماتة لم تنسب في القرآن الكريم إلا إلى الله، فالمميت هو الذي يخلق الموت، وهذا لا يفعله أحد غير الله، بخلاف التوفي الذي يعني إمساك النفوس.

والآيات التي أسند فيها التوفي إلى الله سبحانه جاءت بصيغة الإخبار عن أمره وقضائه، فالله هو الذي خلقكم وهو الذي يتوفاكم بأمره وقضائه، ولهذا أسند إليه الفعل بـ(النون) في خطاب رسوله عليه الصلاة والسلام: (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)، في ثلاثة مواضع: سورة يونس، والرعد، وغافر، فهي نسبة أمر وقضاء. كما أن إسناد الفعل إليه لأنه هو الذي يقضي الموت على المتوفي، كما قال تعالى (فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ)، فهو الذي يقضي عليها الموت وليس أحد سواه، وكما قال: (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ).

(٢): ملك الموت يتوفاكم:

وإسناده إلى ملك الموت في قوله: (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ).

فالآية التي أسند التوفي فيها إلى ملك الموت، جاءت بصيغة الإخبار عما يكون، وجاء فيها قوله (الذي وكل بكم)، فهو إخبار للخلق عن أن ملك الموت هو الذي وكل بإمساك نفوسهم حين موتها. فهو المسؤول عن النفوس الميتة، فالإسناد هنا إسناد مسؤولية. فهو المسؤول عن هذا الأمر.

(٣): تتوفاهم الملائكة:

وإسناده إلى الملائكة، جاء في قوله: (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)، وقوله: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ)، وقوله: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، وقوله: (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)، وقوله: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). وجاء (رسلنا) في قوله: (حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا).

فالآيات التي أسند فيها التوفي إلى الملائكة، جاء في سياق

التنفيذ، فهم يباشرون إمساك النفوس، فالسياق في كلها يبين حالات باشرت الملائكة فيها تنفيذ هذه المهمة، ومخاطبتها مع من تتوفاهم. ودور الملائكة وملك الموت يكون في إمساك النفوس فحسب، والله هو من يقضي عليها الموت.

❖ ❖

ولو أردنا أن نبين ما سبق بمثال، فنقول – ولله المثل الأعلى -:
لو أن ملكا قال في خطاب له: اليوم قتلتُ عدو الشعب الأول، ثم جاء قائد الجيش فقال: لقد قتلتُ عدو الشعب الأول، ثم جاء مجموعة من الجنود فقالوا: لقد قتلنا عدو الشعب الأول. فلا يفهم أي تعارض بين هذه الإسنادات، فالملك هو الآمر ومن ثم تكون نسبة الفعل إليه مسوغة، والقائد هو المسؤول عن هذه المهمة، فساغ نسبة الفعل إليه، والجنود هم الذي نفذوا المهمة.

(٤): (يتوفاهن الموت):

قال تعالى: (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا)، فأسند التوفي إلى الموت.

قال الزمخشري: (فإن قلت: ما معنى (يتوفاهن الموت) - والتوفي والموت بمعنى واحد، كأنه قيل: حتى يميتهن الموت؟ قلت: يجوز أن يراد حتى يتوفاهن ملائكة الموت، كقوله: (الذين تتوفاهم الملائكة). أو حتى يأخذهن الموت ويستوفى أرواحهن).

قال الألوسي: (المراد بالتوفي في أصل معناه أي: الاستيفاء وهو

القبض، تقول: توفيت مالي على فلان واستوفيته إذا قبضته. وإسناده إلى الموت باعتبار تشبيهه بشخص يفعل ذلك، فهناك استعارة بالكناية والكلام على حذف مضاف، والمعنى: حتى يقبض أرواحهن الموت، ولا يجوز أن يراد من التوفي معناه المشهور؛ إذ يصير الكلام بمنزلة: حتى يميتهن الموت، ولا معنى له، إلا أن يقدر مضاف يسند إليه الفعل أي ملائكة الموت، أو يجعل الإسناد مجازا من إسناد ما للفاعل الحقيقي إلى أثر فعله).

قال ابن عاشور: (ومعنى يتوفاهن الموت يتقاضاهن. يقال: توفى فلان حقه من فلان واستوفاه حقه. والعرب تتخيل العمر مجزءا. فالأيام والزمان والموت يستخلصه من صاحبه منجما إلى أن تتوفاه... فجعل الله الموت هو المتقاضي لأعمار الناس على استعمالهم في التعبير، وإن كان الموت هو أثر آخر أنفاس المرء، فالتوفي في هذه الآية وارد على أصل معناه الحقيقي في اللغة.)

والإشكالية لدى المفسرين إنما نشأت بسبب تفسير: (التوفي) بالموت، ومن ثم تخلصوا من ذلك بتقدير الحذف: أي: يتوفاهن ملك الموت، وحين حملوا التوفي على الأخذ والاستيفاء اعتبروه من باب التشبيه أو المجاز: أي (يقبض الموت أرواحهن)، وقول ابن عاشور (يتقاضاهن).

غير أن المتدبر لآي القرآن الكريم يجد أن الموت تنسب إليه أفعال الفاعلين: حضر، جاء، أتى، أدرك، يلاقي: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)، و(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)، و(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)، و(ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ)، و(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ

مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)، كما نسب إليه هنا فعل التوفي (حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ). وقد بين القرآن الكريم لنا أن الموت شيء خلقه الله، (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)، ومن ثم فإن فيه من الخواص والصفات ما نجهلها، وبعض ذلك أخبرنا الله عنه، فنحن لا ندري ما كنه الموت، وما الذي يفعله بالكائن الحي حين موته. فقوله: (يتوفاهن الموتُ)، أي: يمسك نفوسَهن الموتُ، فقد تكون للموت خواص ذاتية تجعله يتولى قبض النفوس، كما يتولى ذلك الملائكة، فهو مخلوق من خلق الله. وقد ناسب المجيء بهذا اللفظ في هذه الآية، بعد قوله (فأمسكوهن في البيوت)، فهم يمسكوهن حتى يأتي الموت ويمسك نفوسهن، فكأنهم يمسكوهن للموت. والله أعلم.

وقد تحدثت عن الآية في المباحث السابقة، وذكرت أن الآية تبين أن الموت إذا حل بالجسم أمسك النفس وأخرجها من الجسم، فأخلاه منها، وإسناد التوفي إلى الملك باعتبار أن الملك يأتي ومعه الموت، فيدخل الموت في الجسم، فيمسك النفس، ثم يأخذها منه الملك، ومن ثم أسند التوفي إلى الموت، كما أسند إلى الملك.

□

المبحث الخامس: مراحل إعادة الخلق

يتبين من آيات الكتاب العزيز، أن مراحل إعادة الخلق ثلاث: (الأولى): إخراج الموتى من الأرض، (الثانية): إنشارهم [إنباتهم] بعد إخراجهم، (الثالثة): البعث، (الرابعة): خروجهم وانتشارهم. وسأتناولها في هذا المبحث.

وقبل ذلك سأتحدث عن البرزخ.

وعليه فأتناول هذا المبحث في ستة مطالب:

المطلب الأول: البرزخ.

المطلب الثاني: الرجع.

المطلب الثالث: الإخراج.

المطلب الرابع: الإنشار.

المطلب الخامس: البعث.

المطلب السادس: الخروج.

□

المطلب الأول: البرزخ

أولاً: ما البرزخ:

قال تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ).

ما البرزخ؟

قال الراغب في المفردات: (الحاجز والحدّ بين الشيئين)، وفي التعريفات للجرجاني: (الحائل بين الشيئين، ويعبر به عن عالم المثال، أعني الحاجز من الأجسام الكثيفة وعالم الأرواح المجردة، أعني الدنيا والآخرة).

والدلالة الدقيقة للبرزخ، هي: الحاجز بين شيئين متجانسين، ييسر الانتقال من أحدهما إلى الآخر.

قال تعالى: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)، وقال: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا).

فالبرزخ يشتمل على عنصرين دلاليين، الأول: الفصل بين شيئين متجانسين، فالبرزخ يفصل بين بحرين (وهما متجانسان، سواء مالحين كانا أم عذبا وملحا). إذن فالبرزخ لا يفصل أو يحجز بين شيئين، بل شيئان متجانسان، ولو لم يفصل بينهما برزخ لبغى

أحدهما على الآخر.

والعنصر الدلالي الآخر للبرزخ، أنه ييسر الانتقال من أحد الشيئين إلى الآخر، فالبرزخ بين البحرين ذو خواص مختلفة عن كلا البحرين، وخواصه مشتركة بينهما، فحين ينتقل تيار مائي من بحر إلى آخر فإنه يمر بالبرزخ، فيكتسب خواص البحر الآخر ويتخلى عن خواصه السابقة.

وإذا عدنا إلى مفهوم البرزخ بين الدنيا والآخرة، فإنه يفصل بين شيئين متجانسين، هما: الحياة الأولى للإنسان والحياة الثانية له. كما أن البرزخ يكسب الإنسان الخواص التي تهيؤه للانتقال إلى الآخرة. ومن ثم فنحن لا نستطيع أن نقول أن البرزخ (حياة)، بل هو فاصل بين حياتين، فلا نقول (حياة البرزخ)، بل نسميه باسمه: (البرزخ).

ولا يوجد دليل على أن الإنسان يحييه الله في قبره، فنصوص القرآن الكريم تتحدث عن الإحياء الثاني للإنسان يوم البعث والنشور، وليس عند موته. كما تحدثت آيات القرآن الكريم عن موتة واحدة للإنسان، (الموتة الأولى)، وقد بينتها آنفاً.

وكل الأدلة الواردة في السنة كحديث (تعاد روحه في جسده فيأتيانه ملكان فيسألانه...) فإنها لا تدل على أن الله يحيي الميت في قبره، بل تدل على أن الميت له حالة خاصة به، وهذه الحالة من عالم الغيب، نجهل كنهها، ولا ندرك أسرارها. فنحن إلى الآن لم نستطع إدراك حقيقة النوم، فالنائم تعتريه أحاسيس ومشاعر اللذة والألم

والخوف والفرح والحزن... إلخ، ويحلم ويرى، وهو في حالة وفاة. والميت في قبره له خواصه التي تناسب ذلك البرزخ.

قال ابن القيم في كتابه القيم (الروح): (أرواح الأحياء تتلاقى في النوم كما تتلاقى أرواح الأحياء والأموات، قال بعض السلف أن الأرواح تتلاقى في الهواء فتتعارف أو تتذاكر فيأتيها ملك الرؤيا بما هو لاقيها من خير أو شر، قال: وقد وكل الله بالرؤيا الصادقة ملكا علمه وألهمه معرفة كل نفس بعينها واسمها ومتقلبها في دينها ودنياها وطبعها ومعارفها لا يشتبه عليه منها شيء ولا يغلط فيها، فتأتيه نسخة من علم غيب الله من أم الكتاب بما هو مصيب لهذا الإنسان من خير وشر في دينه ودنياه، ويضرب له فيها الأمثال والأشكال على قدر عادته، فتارة يبشره بخير قدمه أو يقدمه وينذره من معصية ارتكبها أو هم بها ويحذره من مكروه انعقدت أسبابه ليعارض تلك الأسباب بأسباب تدفعها ولغير ذلك من الحكم والمصالح التي جعلها الله في الرؤيا نعمة منه ورحمة وإحسانا وتذكيرا وتعريفا، وجعل أحد طرق ذلك تلاقى الأرواح وتذاكرها وتعارفها وكم ممن كانت توبته وصلاحه وزهده واقباله على الآخرة عن منام رآه أو رئى له؟! وكم ممن استغنى وأصاب كنزا دفينا عن منام؟!). والأصل استخدام لفظ (النفس).

فنفوس النائمين تتلاقى وتتنقل في عالم الغيب، وقد تحدثت عن هذه القضية في بحثي: الغيب والشهادة في القرآن الكريم. وكذلك للموتى حالة خاصة، وقد قدمت بعض الأدلة عن نفوس الصالحين والشهداء حين موتهم، وما يحدث لها من نعيم. وكذلك

ما يحدث من عذاب لنفوس الأشقياء.

❖ ❖

فالخلاصة إذن أن البرزخ حاجز يفصل بين حياتين متجانستين للإنسان، ولكنهما مختلفتان، فالحياة الدنيا تختلف عن حياة الإنسان في الآخرة.

كما أن البرزخ يهيئ الإنسان للانتقال من الدنيا إلى الآخرة، ففيه إعادة (صياغة) للإنسان، حيث يبلى جسده، وتعود نفسه إلى ربها، فتظل ممسوكة عنده، حتى يرسلها إلى الجسد مرة أخرى. وبعد ذلك يعيد الله خلق الإنسان، كما سأبينه في المبحث الأخير.

وإذا كان البرزخ المائي يهيئ انتقال الماء من أحد البحرين إلى الآخر، فالانتقال فيه من اتجاهين. فإن البرزخ بين الدنيا والآخرة يهيئ الانتقال باتجاه واحد فقط، وهو الانتقال من الدنيا إلى الآخرة، دون العكس. بالرغم من إمكانية ذلك لو أراد الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ)، ولكن كلمة الله اقتضت ألا رجعة إلى الدنيا: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)، فقوله: كلمة هو قائلها، أي كلمة الله و(هو) الضمير يعود إلى الله، فالله هو قائل الكلمة، وكلمته: ألا رجعة إلى الدنيا، بل يظلون في البرزخ إلى يوم البعث.

❖ ❖

ونحن نثبت أن الإنسان الميت في قبره يتعذب أو يتنعم، فذلك ما

يقتضيه النظر في الأدلة الواردة في الباب، ولكن لا أخوض في تفاصيل الكيفية؛ إذ لا دليل على ذلك. فلا يمكننا القول أن النفس تعاد إلى الجسد، ولا أن الجزاء يقع على النفس وحدها، أو على الجسد وحده... ولا نقول أن البرزخ حياة.. فكل هذه الأقوال تعوزها الأدلة، وهي اجتهادات غير مسلمة لأصحابها.

□

ثانياً: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم:

قال تعالى: (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ).

قال القرطبي في تفسيره: (أي: ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء حتى تتعذر علينا الإعادة. وفي التنزيل: {قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى}، وفي الصحيح: (كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب). وثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرض أجسادهم، حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم).

وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير: (رد لقولهم: {ذلك رجع بعيد} فإن إحالتهم البعث ناشئة عن عدة شبه منها: أن تفرق أجزاء الأجساد في مناحي الأرض ومهاب الرياح لا تبقي أملا في إمكان جمعها إذ لا يحيط بها محيط وأنها لو علمت مواقعها لتعذر التقاطها وجمعها، ولو جمعت كيف تعود إلى صورها التي كانت مشكلة بها، وأنها لو عادت كيف تعود إليها، فاقتصر في إقلاع شبههم على إقلاع أصلها وهو عدم العلم بمواقع تلك الأجزاء وذراتها).

❖ ❖

وهنا مسألتان: إثبات الإعادة، وكيفية الإعادة،

المسألة الأولى: إثبات الإعادة:

المتتبع لردود القرآن الكريم على منكري البعث، يجد أنها تأخذ مسارين: مسار العلم، ومسار القدرة.

أما العلم فإن الله سبحانه وتعالى يبين أنه عليم بكل شيء، يعلم الإنسان منذ أن أنشأه، ويعلم أطواره في الدنيا، ويعلم أفعاله، ويعلم ما توسوس به نفسه، يعلم ما يبديه وما يخفيه، ثم يعلم مماته، ويعلم ما تنقص الأرض منه، فكل ذلك في كتاب حفيظ، يحفظ كل شيء. وعلى هذا دلت آية ق (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم..)، وقوله تعالى: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)... إلخ.

أما القدرة، فإن الله يبين للناس قدرته على الخلق أولاً، فما الذي يعييه أن يخلق ثانية، وهو يريهم آيات إعادة الخلق في النباتات، باستمرار. فما الذي يعجزه عن إعادة الخلق؟!

قال تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)، وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، وقال: (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)... إلخ.

❖ ❖

المسألة الثانية: كيفية الإعادة

هنا ثلاث آيات تبين كيفية الإعادة، الأولى قوله تعالى: (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ)، فأجسادهم لا تفنى في الأرض، ولا تنعدم كلية، بل تنقص الأرض منهم، أي: تنقص من تلك الأجساد، فمهما ذهبت أجسادهم، فإن الذي يبقى منه (عجب الذنب)، كما في الحديث، فهو البذرة التي يعاد منها الإنبات.

الثانية، الآيات التي تبين أن الإعادة لمثلهم، كقوله: (قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ)، وقوله: (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا)... وغير ذلك من الآيات، فهي تبين أن الإعادة تقع لأمثالهم.

الثالثة، الآيات التي تبين أن الخروج سيكون مثل الإنبات، فالله ينزل الماء إلى الأرض فيخرج من البذرة الميتة شجرة نضرة، وكذلك تكون الإعادة.

وسأبين فيما يلي أن الإعادة ليست خلقا جديدا، ثم أتحدث عن كيفية الإعادة في المطالب القادمة.

□

ثالثاً: إعادة الخلق ليس خلقا جديدا:

أوردت هذه المسألة في بحثي: (أفعال الخلق في القرآن الكريم)، وهذا نصها:

جاء التركيب الوصفي (خلق جديد) في سبعة مواضع، وكان استخدامه في مقامين:

المقام الأول: مقام القدرة، (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) في سورتي إبراهيم وفاطر. وهو يبين أن مشيئة الله مطلقة، وأنه لو شاء لأذهب البشر وأتى بخلق جديد، مغاير لهم، (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)، فليس يعجزه شيء، كما قال: (إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ). فـ(خلق جديد) أي: مغاير تماما للخلق الذي عليه الإنسان.

المقام الثاني: جاء على لسان الكافرين المستبعدين للبعث، حيث توهم الكافرون أن الإعادة خلق جديد، فقالوا: (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ). وقد ورد هذا اللفظ منهم في خمسة مواضع، وبين الله خطأهم، وبين اللبس الذي هم فيه، قال تعالى: (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)، وسأبين لاحقا دلالة (الخلق الأول).

وهناك خلاف طويل الذيل حول: هل الإعادة خلق جديد، أو جمع للأجزاء المتفرقة. وقد نقلها الألوسي في روح المعاني. والذي يتبين لي أن الإعادة ليست خلقا جديدا، ولا هي جمع للأجزاء المتفرقة، ولكنها إنشاء آخر للخلق الأول، والقرآن الكريم لم يسمّ

ذلك (خلقا جديدا) أبداً، بل سماه إعادة حيث ذكر، وسماه: (النشأة الأخرى). بل إن استخدام القرآن الكريم للتركيب (خلق جديد) يفهم أنه خلق آخر لا صلة له بالخلق الأول، قال تعالى: (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ)، فهو يتحدث عن قدرته سبحانه على الإتيان بخلق جديد آخر لا صلة له بالمخاطبين الذين لو شاء الله لأهلككم.

والإنشاء الآخر للخلق الأول، يكون بخلق أمثال الأجساد التي كانت لهم في الدنيا، ويستخدم القرآن الكريم للدلالة على هذا لفظ (خلق أمثالهم)، فالله يعيد خلق أمثال أجسادهم، كما قال تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)، وقال: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ).

وقوله: (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ).

يقول لهم: لم يعيني الخلق الأول، فكيف أنتم في لبس من خلق جديد!! فهو لم يسم الإعادة: خلقا جديدا.

وقد توهم الكافرون – كما ذكرت - أن الإعادة خلق جديد، والقرآن الكريم لا يذكر ذلك، بل يذكر الإعادة، أو النشأة الأخرى، ولم يرد (خلق جديد) إلا على ألسنة المكذبين بالبعث. وآية سورة ق، جرت على ما تردده ألسنتهم، فهو يقول: نحن لم يعينا الخلق الأول، والمشركون لا زالوا في لبس من خلق جديد، فالله قادر على الخلق الجديد، ولكنه لم يخبرنا أن الإعادة خلق جديد، بل أخبرنا أنها

إعادة، أو نشأة أخرى. وهذا وجه تنكير (خلق جديد)، فلم يقل: بل هم في لبس من الخلق الجديد، فلو عرف لكان ذلك بيانا بأن الإعادة هي خلق جديد، ولكنه جاء نكرة ليبين صورة الأمر عندهم، فهم لم يفتأوا يقولون: (أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ). وقد ذكر الرازي في تفسيره تعليلا بعيدا لتنكير (خلق جديد)، لا يتفق مع سياق الكلام، ولا مع استخدام القرآن الكريم للألفاظ، يمكن الرجوع إليه في تفسيره.

والآية جاءت في سياق بيان القدرة الإلهية على إعادة خلق الإنسان، والرد على المكذبين حيث قالوا: (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)، والآية في أول سورة ق، فبين الحق سبحانه وتعالى قدرته في تسوية السماء ودحو الأرض، وبين كيف يحيي الأرض بعد موتها بالماء، ثم قال: (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)، أي: هل أعجزنا الخلق الأول؟! وهم يقرون بذلك، يقرون أن الله الذي خلق السماوات والأرض وخلقهم، فنحن لم نعي بالخلق الأول، والحال أن المشركين ما زالوا في لبس من خلق جديد، فهو تفكير متأخر جدا، تأخر تفكيرهم حين يشكون في خلق جديد، والله هو من خلق أولا. ثم قال: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ)، فنحن خلقناه، ونحن سنعيده.

وقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا)... دليل على ما ذكرته، أن الإعادة إنشاء آخر للخلق الأول، فهي أيديهم وأرجلهم وأسماعهم... التي كانت معهم في الدنيا فسجلت كل شيء كسبته تلك الجوارح، ستكون شاهدة يوم

القيامة عليهم بكسبها.

ويدل عليه قوله تعالى: (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ)، فالله يعلم ما نقصت الأرض من أجسادهم، فسيعيدها مرة ثانية، كما قال: (فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ). وقد تحدثت عن الآية آنفاً.

❖ ❖

فالخلاصة أن البرزخ مرحلة تتسم بثلاث سمات:

الأولى: أنها حاجز بين الدنيا والآخرة.

الثانية: أنها وسيط لتيسير الانتقال من الدنيا إلى الآخرة.

الثالثة: أنها حافظ تحفظ كل ما كان في الدنيا.

□

المطلب الثاني: الرَّجْع

قدمت في الجزء الأول القول إن:

مطلق دلالة الرَّجْع: إعادة الشيء إلى ما كان منه البدء.

أما (الرّجْع) الدال على البعث: فهو إعادة خلق الشيء مما خلق منه أول مرة.

وقد جاء الفعل (رجع) لازما ومتعديا، ولم يستخدم الفعل اللازم للدلالة على رجع الآخرة، بل الفعل المتعدي هو الذي استخدم لهذا المعنى.

وسأبين استخدام القرآن الكريم لكليهما.

أولا: (رجع) اللازم. (رَجع يَرْجِع رُجوعا)

يكون بمعنى: العود مما كان منه البَدْء [كما في مفردات غريب القرآن]، وليس من الدقيق إطلاق دلالة الانصراف عليه، إنما هو العودة إلى نقطة البدء، وهذا ما يدل عليه استخدام اللفظ في اللغة العربية. وهو فعل لازم، تقول: رجع محمد إلى داره، فداره انطلق منها ثم عاد إليها، وكونه لازما يعني أنه فاعل الرجوع. قال تعالى: (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ)، وقوله: (فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ)، أي أرسله ثم رده إليك ثم أرسله، وقوله: (لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ)، وقوله (وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ)، وقوله: (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)، و(وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، و(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)، و(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا

يَرْجِعُونَ).

ولم يستخدم الفعل اللازم للدلالة على مرجع الناس إلى ربهم، وكل استخداماته إنما هي للدلالة على الرجوع في الدنيا، كالآيات السابقة، وغيرها. ولهذا لم يرد في القرآن الكريم أن اليوم الآخر هو يوم (الرجوع).

وجاء منه استخدام اسم الفاعل (راجع)، (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، (قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)، وفي هذه المواطن كلها حكاية على لسان المؤمنين الذي يقولون أو يظنون [بمعنى يستيقنون] أنهم إلى ربهم راجعون، كما تقول: أنا راجع إلى الدار، فهم يقولون: نحن راجعون إلى ربنا.

❖ ❖

ثانيا: (رجع) الفعل المتعدي

تقول (رجَع يَرْجِع رَجْعاً ومَرْجِعاً) متعديا، بمعنى: أرجعتُه إلى حيث كان البدء، فهو يدل على الإعادة، والإعادة أن ترد الشيء إلى حيث كان البدء. قال تعالى: (فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ)، أي: أعدناك، أو رددناك، أو أرجعناك، كقوله: (فإنْ رَجَعَكَ اللّهُ إِلَى طائفةٍ)، ومنه قوله: (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

وهذا الفعل هو المستخدم في القرآن الكريم للدلالة على رجع الناس في الآخرة، وله ثلاثة استخدامات:

(١): الاستخدام الأول: الرَّجْع (إنه على رجعه لقادر)

الاستخدام الأول [المصدر]: الرَّجْع (دلالته: إعادة خلق الشيء مما خلق منه أول مرة).

وقد جاء في قوله: (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)، أي: على إعادته من حيث خرج، والإنسان خرج من بين الصلب والترائب، فيعيده الله من ذلك مرة أخرى، وسيأتي الحديث عن الآية في (الإنشار). وكقوله: (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)، فهم يستعجبون من إعادة الإنشار.

وقوله تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)، أي: هو خلق من بين الصلب والترائب، والله قادر على رجعه من بين الصلب والترائب، كما أخرجه أول مرة. ومن ثم فقوله (يخرج من بين الصلب والترائب)، ليس وصفا للماء (ماء دافق)، وإنما هو جملة خبرية عن الإنسان، والتقدير: فلينظر الإنسان إلى خلقه من ماء دافق، فهو (أي الإنسان) يخرج من بين الصلب والترائب. وخروج الإنسان من بين الصلب والترائب هو ما يفسره حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام (كل ابن آدم يأكله التراب، إلا عَجْبَ الذَّنَبِ، منه خلق وفيه يركب)، فعجب الذنب هو الذي يخرج منه الإنسان، وهو الذي يقع بين الصلب والترائب.

ويؤيد هذا قوله تعالى عقبه (إنه على رجعه لقادر)، أي على إعادة إخراجه من بين الصلب والترائب، فالرجع: إعادة خلق الشيء مما خلق منه أول مرة. وهذا كما قال تعالى: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ

نُعِيدُهُ). فالضمير في (رجعه) يعود على الإنسان. وبهذا فالآيات تقدم لنا ثلاث حقائق، الأولى: خلق الإنسان من ماء دافق، والثانية: خروج الإنسان من بين الصلب والترائب، والثالثة: إعادة خلقه من بين الصلب والترائب. والله أعلم.

كما أن سياق سورة الطارق يؤيد هذا التفسير، فالله يقسم بالسماء والطارق: (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)، أي ما من نفس إلا وعليها حافظ يحفظها، فما الحافظ؟ أغلب المفسرين على أن الحافظ هم الملائكة الحفظة الذين يحفظونها بأمر الله، وقيل: حافظ يحصي أعمالها، وقيل: حافظ من الله يحفظها حتى يسلمها إلى المقادير. والآية تدل على الحفظ، ولكنها لم تبين ذلك، ولعل الآيات اللاحقة تبين أن الحافظ، هو شيء مخلوق يحفظ النفس حتى بعد موتها، فلا يفنى ولا يبلى، ولعله المقصود بعجب الذنب، فهو الشيء الذي يخرج منه الإنسان، ويقع بين الصلب والترائب، وعجب الذنب لا يبلى ولا يتأثر بأي مؤثرات خارجية، وقد أجريت عليه كثير من التجارب فظل محتفظا بخواصّه، فهو يظل حافظا لبرنامج خلق الإنسان وتطوره، إذ كل معلومات خلق الإنسان في أطواره المختلفة كامنة في عجب الذنب، فهو حافظ لها. والله أعلم.

❖ ❖

(٢): الاستخدام الثاني: رُجِع إلى (رجعت إلى ربي)

الاستخدام الثاني [المبني للمجهول]: رُجِع يُرْجَع [إلى]، ودلالته: إعادة المخلوقين إلى خالقهم، فمنه بدأوا وإليه يُرجَعون،

والله هو من يَرجعُهم إليه. فهذا الاستخدام لا يدل على ما دل عليه لفظ (الرجع)، بل يدل على مطلق دلالة (رجع).

ومنه قوله: (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى)، وقوله: (هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، وقوله: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)، و(وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ)،

هذا، حيث جاء الفعل في القرآن الكريم مقترنا بعودة الشيء إلى الله، فهو من هذا الباب، ومنه قوله: (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ).

❖ ❖

(٣): الاستخدام الثالث: المَرْجِع، والرُّجْعَى

الاستخدام الثالث: [المصدر]: المرْجِع، والرُّجْعَى

كقوله: (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ)، وقوله (فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ)، وقوله: (كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ)، وقوله: (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)، وقوله (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). وقد جاءت هذه الآيات غالبا معقبة بأن الله يحكم بين العباد فيما اختلفوا فيه، وبأن الله ينبئهم بما عملوا. فلفظ (المرجع) يخص البشرية، حيث يرجعون إلى ربهم ليسألهم عن الأمانة التي استودعوها، ويحكم بينهم جراء اختلافهم في الحياة الدنيا، وهو عليم بأعمالهم.

ومثل ذلك قوله تعالى: (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)، ولم ترد إلا في هذا الموضع، ودلالتها واضحة في الإنسان الذي استغنى عن ربه سيرد إليه، ما تدل

على أن الإنسان ينبغي أن يرد كل أموره إلى ربه، فلا يستغني عنه، ومنه بدأ!

وهذا بخلاف قوله: (ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)، فمرجع هنا من (رجع) اللازمة، أي: رجوعهم، فكأنهم بشقاوتهم وعصيانهم رجعوا إلى جهنم، التي هي محل الشقاء والعذاب، وليست محل النعيم. فالشقاوة التي فيهم ردتهم إلى جهنم، والله أعلم.

□

المطلب الثالث: الإخراج

لا بد من التفريق بين (الإخراج) و(الخروج)، فهما مرحلتان متعددتان.

فالإخراج، هو بدء خروج الموتى من الأرض (قبل إحيائهم)، أما (الخروج) فهو خروجهم من أجداثهم بعد البعث، فالخروج بعد الإحياء حيث ينتشرون في أرض المحشر.

سأتحدث هنا عن الإخراج.

جاء في ذلك مجموعة من الآيات، بعضها يبين كون إخراج الناس من الأرض، قال تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)، وقال: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)، وقال: (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ). ففي هذه المواطن يبين أن إخراج الناس سيكون من الأرض، فهي التي خلقوا منها، حيث أنبتهم الله نباتا، وسيُخرجون منها، حيث ينبتهم نباتا.

وبعض الآيات يبين هيئة إخراج الناس من الأرض، كما سيأتي إيضاحه في الإنشار، أنهم ينبتون، فيظهرون كما تظهر النباتات، بعد نزول الماء. قال تعالى: (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)، وقال: (وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)، وقال: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ). وفي كلها يأتي لفظ التشبيه: (كذلك) لبيان شبه الحالتين.

والملحظ أن جميع هذه الآيات استخدم فيها الفعل الرباعي ومصدره: (أخرج يُخرِج إخراجا) [نُخْرِجُكُمْ، وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا]، والمبني للمجهول منه: (يُخرَج) [تُخْرَجُونَ]. وعليه يحمل قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ)، وقوله: (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ)، وقوله (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)، فالإنسان الكافر يستبعد الإخراج، أي: إعادة إخراج الميت من الأرض..

وفي سورة ق: (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)، فاستخدم لفظ الخروج بالرغم من أن الآية تتحدث عن مرحلة الإنشار، وذلك اتساقا مع نظم السورة، وأيضا لم يستخدم لفظ (الخروج) بهذه الدلالة في القرآن الكريم إلا في سورة ق مرتين، هذه الآية وفي آخرها (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)، وهذا يراد به البعث، فاطرد استخدام اللفظ في الموضعين، مع اختلاف الدلالة.

□

المطلب الرابع: الإنشار

الإنشار: إعادة خلق الموتى، بإنباتهم بالماء.

دلالة النشر في اللغة [كما في اللسان وتاج العروس]: البسط بعد الطي (ومنه: نشرت الصحيفة)، والظهور بعد الخفاء (ومنه: نشرت الخبر، أو نشرت فضيلتك)، والتفرق (تقول العرب: جاءَ الجيشُ نَشَراً، أَي مُتَفَرِّقِين، ومنه الانتشار: التفرق)، وبدء النبات في الأرض بعد أن يصيبه مطر.

وبالنظر في هذه المعاني نجد أنها كلها مقصودة بالإنشار، فهي تبين: كيفية بدء خروجهم من الأرض، وهيئتهم عند خروجهم. وهي تتعلق بإعادة الخلق لا بالإحياء، فمرحلة الخلق أولاً.

فأما بدء خروجهم من الأرض، فيقول تعالى: (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)، ويقول: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ)، فهو يقول (وكذلك)، فالحالتان متشابهتان، الآية تبين أن الله يُنشر الأرض الميتة بعد أن ينزل عليها الماء، والنَّشْر هو بدء النبات في الأرض بعد أن يصيبه مطر، وكذلك الحال هنا، فالمعنى: فكما تكون حياة الأرض بالماء، فيبدأ نباتها بالخروج، فكذلك أول خروجكم سيكون بالماء، فتنبتون كما ينبت النبات بعد نزول الماء عليه. وهذه أول مراحل الخروج. فهي إعادة خلق، ثم تأتي مرحلة الإحياء.

وأما هيئتهم عند خروجهم، فقد وصف الله ذلك بـ(النشور)،

كما في الآية السابقة، وقال (وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)، والنشر هو التفريق والظهور والبسط، فالنشور أن يظهر الناس بعد خفاء في القبور، ويُبسطون على الأرض بعد أن طواهم الموت، وتكون هيئتهم كهيئة النباتات الكثيرة المنتشرة المتفرقة على الأرض، فهو وصف لهيئة الموتى أول ما يخرجون من الأرض، قال تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى). فهذا الإخراج يقابل الخلق الأول.

والقرآن الكريم لم يستخدم هذا الفعل [في الدلالة على إحياء الميت] إلا: (أنشر)، وليس (نشر)، قال تعالى: (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ)، وقال منكرا على من عبد آلهة أخرى بأنهم لا يملكون النشور: (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)، وقال مبينا إنكار المكذبون إنشارهم: (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ). وقد شبه هذه الحالة بحالة إنشار الأرض بعد موتها: (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ).

❖ ❖

والقرآن الكريم يبين لنا إن إنشار الناس يوم القيامة يشبه إنشار النبات في الدنيا حين ينزل عليه الماء: (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ).

يقول أ. د نظمي أبو العطا، عالم النبات في جامعة عين شمس:

(الماء ضروري لعملية الإنبات، وهو شرط أساسي له، فإذا غاب الماء العذب لم تنبت معظم النباتات الأرضية، وتظل البذور والحبوب

في التربة من دون إنبات إلى أن ينزل عليها الماء، فتبدأ عملية الإنبات العجيبة والمعجزة، حيث تتشرب الحبوب والبذور الماء، وفور دخول الماء إلى المكونات الداخلية للبذرة والحبة تبدأ عمليات كيماوية حيوية معجزة وعجيبة، فتطلق الإنزيمات الجنينية في الإفراز لتحول المواد الغذائية المدخرة (كربوهيدراتية، ودهنية، وبروتينية) من مواد ميتة معقدة التركيب لا يستطيع الجنين امتصاصها أو نفاذها عبر أغشيته، إلى مواد ميتة بسيطة التركيب يستطيع الجنين امتصاصها، وتنفذ من أغشية الجنين وفور دخولها إلى الجنين، تدب فيها الحياة بفضل الله ويبدأ الجنين في النمو وتتكشف أعضاءه من جذير (Radical) ورويشة (Plumule) ويتجه الجذير عادة إلى الأرض مع الجاذبية الأرضية وترتفع الرويشة لأعلى ضد الجاذبية وتظهر في الفلقات (Cotyiedons)، وينمو النبات وتتكون الأوراق الخضراء وتبدأ عملية البناء الضوئي بأن تثبت الأوراق ببلاستيداتها الخضراء ثاني أكسيد الكربون الجوي وتشطر الماء ويرتبط كربون ثاني أكسيد الكربون، بهيدروجين الماء والطاقة الضوئية، لتتكون المواد الكربوهيدارتية الأولى).

وهكذا ينشر الله الموتى من القبور، فقد جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بين النفختين أربعون» قال: أربعون يوما؟ قال: أبيت، قال: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: «ثم ينزل الله من السماء ماء فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، ليس من الإنسان شيء إلا يَبْلَى، إلا عظما واحدا وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومنه

يركب الخلق يوم القيامة». وعند مسلم: «كل ابن آدم يأكله التراب، إلا عَجْبَ الذَّنَبِ، منه خلق وفيه يركب». وعَجْب الذَّنَب، كما في المعاجم: (العظم في الأسفل بين الإِليَتَيْنِ الهابطُ من الصُّلْبِ، يقال لطرفه العُصْعُص). فهو يتحدث عن مرحلة الإنشار، فكما تكون البذرة في الأرض، ينزل عليها الماء فتنبت، فكذلك عجب الذنب يكون في الأرض، فينزل عليه الماء فينبت.

ويقول علماء الأحياء أن الجنين يبدأ خلقه من البويضة الملقحة: (الزيجوت) (Zygote) [وهي النطفة الأمشاج التي تحتوي على مكونات وراثية من الأبوين]، وتنغرس تلك البويضة في بطانة الرحم، وفي اليوم السادس عشر من عمر الجنين يظهر خيط دقيق يعرف باسم (الخيط البدائي: The Primary Streak)، ومنه يتكون جسم الجنين. وبعد إكمال تكوين أجهزة جسم الجنين يتراجع هذا الخيط البدائي بالتدريج إلى مؤخرة جسم الجنين، حتى يستقر في نهاية العمود الفقري في منطقة العصعص (عجْب الذنب)، فيبقى على هيئة جنين كامن (مثل جنين بذرة النبات). فمنه خلق، ومنه يُنشَر يوم القيامة.

وعجب الذنب هو المقصود في قوله تعالى: (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)، أي: هو خلق من بين الصلب والترائب، والله قادر على رجعه من بين الصلب والترائب، كما أخرجه أول مرة. وقد تحدثت عن الآية في (الرجع).

□

المطلب الخامس: البعث

البعث: إرسال النفوس إلى أجسادها بعد الصيحة

البعث – كما أشرت – هو المقابل للتوفي، فالتوفي هو إمساك النفوس من أجسادها، والبعث هو إرسال النفوس إلى أجسادها. وقد بين القرآن الكريم أن البعث له حالتان، فهو إما بعث بعد نوم، وإما بعث بعد موت.

والبعث يكون بعد الإنشار، فبعد أن تنبت أجساد الموتى، يرسل الله النفوس إلى أجسادها، وهذا هو البعث.

وسأتحدث أولا عن البعث بعد النوم. ثم أتحدث عن البعث بعد الموت.

أولا: البعث بعد النوم:

فأما البعث بعد النوم، فهو الذي يكون في الدنيا، وهو المذكور في قوله: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى)، فالله يبعث الناس في النهار بعد أن يتوفاهم في الليل، فالبعث هنا بعد توفٍ لا بعد موت.

ومنه قوله: (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، فسمى الحالة التي يبعث فيها النفوس بعد نومها: إرسال النفوس، والحالة التي تموت فيها النفوس: إمساك النفوس. وهذا ينطبق مع الدلالة اللغوية للبعث، وهو الإرسال، فالله بعث الرسل: أي

أرسلهم. وكذلك في الآية كما هو صريح النص (ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)، أي يبعثها إلى جسد المتوفي فيستيقظ، كما قال (ثم يبعثكم فيه)، أي يرسل نفوسكم إلى أجسادها.

وقوله (اللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)، ثم قوله (فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ) دالٌّ على أن حالة الموت هي إمساك للنفوس، فالله يمسكها حتى إذا نُفخ في الصور أرسلها. وقوله (ثم يبعثكم فيه)، أي يرسل نفوسكم فترجع إلى أجسادها، وذكر ضمير(يبعثكم)، انتظاما مع تذكيره في أول الآية (يتوفاكم).

ومنه بعث أهل الكهف بعد رقودهم، وقد أشرت إلى ذلك.

ثانيا: البعث بعد الموت في الدنيا

وقع البعث بعد الموت في الدنيا، بمعنى: إحياء الله الموتى، حيث بعث الله موتى بعد موتهم، وسمي ذلك بعثاً وإحياء، ووقع ذلك مع: الذي مر على قرية (فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ)، ومع الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف (فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ)، ومع السبعين من بني إسرائيل الذي كانوا مع موسى فقالوا لن نؤمن حتى نرى الله جهرة (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، ومع القتيل الذي أمر موسى قومه أن يذبحوا بقرة لمعرفة قاتله (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ). كما حدث مع غير البشر وهو طير إبراهيم حين أراه الله كيف يحيي الموتى.

ثالثا: البعث بعد الموت في الآخرة

والدلالة الدقيقة للبعث بعد الموت في الآخرة هي: **إرسال النفوس إلى الموتى بعد الصيحة.**

الإنشار – كما سبق – هو المرحلة الأولى من إعادة الخلق، وذلك بإنبات الموتى كما ينبت النبات بعد نزول الماء عليه. أما البعث فهو مرحلة الإحياء، حيث يرسل الله النفوس إلى الأجساد بعد نباتها، فيحيا الموتى بإذن ربهم. ولفظ (البعث) يحدد لنا حالة الموت، وطريقة إيقاظ الموتى، ووسيلة الأيقاظ، وحالة الناس بعد إيقاظهم.

١/ *(وإذا النفوس زوجت)*

البعث في الدار الآخرة هو: إرسال النفوس إلى الموتى، فتستيقظ من مرقدها، ويقظتها عودة الحياة إليها، كما أن يقظة الإنسان في الدنيا عودة الحياة إليه بعد توفيه بالنوم.

ولعل هذا هو تفسير قوله تعالى: (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)، أي قرنت كل نفس مع صاحبها، وقد فسر بعض الأئمة هذه الآية كذلك، فقالوا في تفسيرها: زوجت بالأبدان. وقد نقل ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه: (يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين، ومقدار ما بينهما أربعون عاما، فينبت منه كل خلق بَلَى من الإنسان أو طير أو دابة، ولو مر عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على الأرض قد نبتوا، ثم تُرسل الأرواح فتزوج الأجساد، فذلك قول الله تعالى: (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)). والأدق استخدام لفظ (النفوس) لا (الأرواح). كما بينت سابقاً.

٢/ البعث بعد الصيحة

قال تعالى وهو يقص علينا قصة أصحاب الكهف: (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ)، فبين أن بعثهم تم بعد رقودهم، وكان رقودهم بالضرب على الآذان، فهي خاصة صوتية، ثم بعثهم الله، والذي يبدو والله أعلم أن البعث له علاقة أيضا بالصوت، حيث يرسل الله النفوس إلى أصحابها، ونحن لا نعلم كيفية ذلك.

وإذا تدبرنا آيات البعث في الآخرة سنجد أيضا أن (إرسال النفوس إلى الموتى) سيكون بعد الصيحة (وهي النفخة الثانية). وقد اقترن لفظ البعث بذلك، قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)، أي: أنه تم النفخ في الصور، وهي الصيحة، فاستيقظ الموتى، وقالوا من بعثنا من مرقدنا، فاستخدم لفظ (مرقدنا)؛ لأنهم يشعرون بحالة تشبه حالة النائم حين يستيقظ من نومه، وهذه الحالة لا تكون إلا بعد أن يرسل الله النفس إلى صاحبها. وفي قوله (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ)، فجاء بلفظ (يسمعون)، مما يدل على أن لخاصة الصوت دوراً في بعث الموتى، والله أعلم بطبيعة ذلك.

كما اقترن النفخ بالصور بالبعث في قوله: (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)، ولم يذكر لفظ البرزخ في غير هذا الموضع، فهو برزخ

يحجز بين حياتين للإنسان، الحياة الأولى التي كانت في الدنيا، والحياة الثانية التي تكون في الآخرة، فهو ليس مجرد مرقد كمراقد النوم التي يعرفها الناس، ثم قال (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب..)، أي يبعثون وعندئذ يقومون لرب العالمين.

وقد بينت سابقا علاقة البعث بالنفخ في الصور، وبالصيحة: (صيحة الإحياء). فأكتفي بما قدمته في المبحث الثاني (حقيقة الموت والحياة).

٣/ القيام عقب البعث

ويعقب البعث قيام، فالإنسان يقوم من نومه بيقظته، والموتى بعد أن يبعثهم الله بعد الصيحة العظيمة، يقومون، قال تعالى: (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)، وهذا يفسر قوله تعالى: (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ). فالقيام يكون بعد البعث. ومن هنا سمي ذلك اليوم: يوم القيامة.

فالخلاصة أن لفظ البعث، يبين لنا أربعة أمور، الأولى: حالة الموت، فهو إمساك للنفوس الميتة. والثانية: طريقة إيقاظ الموتى (بإرسال النفوس إليهم). والثالثة: وسيلة الإيقاظ (النفخ في الصور). والرابعة: حالة الناس بعد الاستيقاظ (قيام ينظرون).

□

المطلب السادس: الخروج

(الخروج) هو: خروج الناس من أجداثهم بعد البعث، فالخروج بعد الإحياء حيث ينتشرون في أرض المحشر.

وجاء الحديث عن ذلك في مجموعة من الآيات، وكلها أتت من الفعل الثلاثي: (خرج يَخرُج خروجاً)، وجاءت في سياق بيان حالة الناس حين خروجهم من قبورهم.

وقد جاء في ذلك أربع آيات، وهي قوله تعالى في سورة ق: (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ)، وقوله في سورة القمر: (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ)، وقوله في سورة المعارج: (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)، وقوله في سورة الروم: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ).

وهذه الآيات تبين ما يلي:

أولاً: الخروج بعد البعث:

أولا: أن الخروج من القبور، يكون بعد البعث، والبعث بعد

الصيحة، كما في آية ق، فالآية تبين أنه بعد الصيحة (النفخ في الصور)، يسمعها الناس فيقومون لله، وقد جاء قوله (إنا نحن نحيي ونميت) في هذا الموطن؛ ليبين أن الناس قد أحياهم الله بالبعث، بإرسال النفوس إليهم.

وقد وردت في عدة آيات: أن القيام بعد دعوة الداعي، كما في آية ق، والروم، والقمر، وورد أيضا في سورة طه: (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)، وفي الإسراء: (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا). ويبدو أن هذه الدعوة والله أعلم هي الصيحة، بدليل آيات ق، حيث ذكر نداء المنادي، ثم قال (يسمعون الصيحة)، فسمى نداءه صيحة، وهي الدعوة الواردة في الآيات الأخرى، والله أعلم ما تلك الصيحة، وما طبيعتها، إلا أنها صيحة يترتب عليها إيقاظ الموتى وقيامهم لرب العالمين، كما قال (إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ)، فهي صيحة البعث، وهي النفخة الثانية، كما قدمت بيان ذلك.

وقد قال البقاعي في تفسيره في سورة القمر: (يدع الدع، أي: النفخ في الصور)، وقال الشنقيطي في قوله (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض) فقال هي (النفخة الثانية).

وقوله: (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ)، أي حين ينفخ في الصور فيحيي الله الموتى، فالإحياء ثانية هو الشيء (النكر)، أي: شيء كان ينكره الكافرون، ويستبعدون أن يحييهم الله بعد موتهم. فحين ينفخ في الصور ترسل النفوس إلى أجساد الموتى فيحييهم الله. وقال: (يَوْمَ

يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)، أي تستجيب أنفسكم لدعوته، فتذهب إلى أجسادها، فتحيون وتظنون إن لبثتم إلا قليلا في قبوركم، كما يظن النائم حين يستيقظ أنه ما لبث إلا قليلا. وقوله (فتستجيبون بحمده)، أي: (بأمره، كما فسرها ابن عباس).

❖ ❖

ثانياً: هيئة خروجهم (كأنهم جراد منتشر)

ثانياً: تبين الآيات الطريقة التي تعقب بعث الناس بعد نشورهم، وقد شبهت حالة خروجهم من الأرض بقوله: (كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ)، قال الزمخشري: (الجراد مَثَلٌ في الكثرة والتموج. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاءوا كالجراد)، وقال ابن جزي في التسهيل: (شبّههم بالجراد في خروجهم من الأرض، فكأنه استدلال على البعث كالاستدلال بخروج النبات).

ومن الواضح أن الدلالتين مقصودتان معا، حالة الخروج، وحالة الحركة، فالتشبيه بالجراد يبين كلا الأمرين، فقوله (يخرجون من الأجداث) يشير إلى حالة الخروج أولاً، ثم قوله (مهطعين إلى الداع) يشير إلى حالة الحركة.

تقدم لنا أبحاث الأحياء معلومات دقيقة عن الجراد، مما يمنحنا مزيدا من دقة الفهم للتشبيه في قوله (كأنهم جراد منتشر)،

والخلاصة كما يلي[11]:

(١): (هيئة خروج الجراد):

[طور البيضة والفقس]:

يضع الجراد أعدادا هائلة من البيض تحت الأرض، وعادة ما تختار الأنثى لبيضها مكانا تكون تربته مفككة ورطبة، فتحفر مرارا حتى تجد الحفرة المناسبة لبيضها، وتتراوح مدة بقاء البيض تحت التراب من ٩ أيام إلى ٧٣ يوما. وحين تفقس البيض تتشقق التربة المفككة أثناء خروج الحوريات منها، وتظهر في مجموعات صغيرة كثيفة متبعثرة، وتنسلخ الحوريات من جلدها عدة مرات حتى تصل إلى طور الحشرة الكاملة، ثم تتكون أجنحتها، وبعد يوم أو يومين تصبح الحشرة قادرة على الطيران القصير.

فحالة خروج الموتى من أجداثهم تشبه هذه الحالة، فهم يخرجون من تحت التراب، وتتشقق الأرض عنهم، قال تعالى: (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ)، حيث لا زالوا (منْشَرين): أي مبعثرين متفرقين في الأرض، فهم يخرجون كما تخرج يرقات الجراد في مجموعات صغيرة كثيفة متبعثرة، كما قال تعالى: (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ). وبعد الصيحة يبعثهم الله، فتبدأ الأرض تتشقق عنهم، كما تتشقق عن يرقات الجراد، ثم تكبر

---

[11] أفدت من المعلومات الواردة في بحث: الجراد الصحراوي، الذي أعدته شبكة المعرفة الريفية.

أجسادهم، في وقت سريع، ويكونون قادرين على الحركة السريعة.

ومن ثم فتشبيه الخروج يراد به: (١) الخروج من تحت التراب وتشقق الأرض عنهم. (٢) طريقة الخروج: مبعثرين. (٣) النمو السريع.

(٢): (هيئة تكاثر الجراد):

يقرر علماء الأحياء أن الجراد يتميز بسرعة التكاثر والانتشار، ويتلاءم بسرعة مع مختلف الظروف البيئية المحيطة، ويعدون ذلك أهم عوامل خطورته. حيث يبدأ بتكوين مجموعات كبيرة وأسراب تحوله إلى الحالة المهاجرة. فزوج واحد من الجراد الصحراوي يضع خلال ثلاثة أجيال نحو: ١٠٠ -١٥٠ ألف جرادة، وإذا كان السرب المتوسط الواحد يحتوي على عشرات الملايين من الجراد فإنه يمكن تقدير مدى الزيادة العددية للجراد في مدة قصيرة. كما أن كثافة السرب شديدة، فالسرب الطبقي للجراد (وهو الجراد المنتشر) يكون متراصا كثيفا، وفي السرب الواحد عشرات الملايين إلى مئات الملايين من الجراد.

وكذلك الموتى حين يخرجون من أجداثهم، منذ أن خلق الله أول الأحياء، فهناك مليارات هائلة من البشر تخرج في وقت واحد، كأنها جراد منتشر، أي: عدد كثير كثيف يملأ أرض المحشر. قال البقاعي في تفسيره: (كأنهم في كثرتهم، وتراكم بعضهم على بعض من كبيرهم وصغيرهم وضعيفهم وقويهم – جراد منتشر).

❖ ❖

وقوله تعالى: (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) يرسم بدقة هذه الصورة، فهو يصور هذه الحالة أول خروج الناس، فكثرتهم الهائلة على أرض المحشر كأنها فراش مبثوث، أو جراد منتشر. فالتشبيه بالفراش المبثوث يتعلق بصورة التكاثر والازدحام، كالجراد المنتشر، أي: المتكاثر. كما أن (الجراد المنتشر) يشير إلى تكاثر الأسراب، وكل سرب به ملايين الأعداد، فهي أسراب وراء أسراب، وهكذا يتزاحم الناس في أرض المحشر.

وتأمل قوله: (الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ). فالقارعة هي الصوت الذي يضرب الآذان بقوة، وهذا إشارة إلى الصيحة (النفخة الثانية). ثم بين أن الناس في ذلك اليوم يكونون كالفراش المبثوث، أي المنتشر المزدحم، والآية تبين أيضاً ضعف الناس وخفتهم في ذلك اليوم فبعد قوتهم وثقلهم في الدنيا إذا بهم ضعفاء كالفراش المبثوث، كما أن الجبال التي كانت صلبة قوية قد أصبحت رخوة ضعيفة كالعهن المنفوش. ثم بين أن الشيء الذي يمنح الناس قوة وثقلا في ذلك اليوم إنما هي أعمالهم الصالحة، وأما من خفت موازينه فهو فراش مبثوث يطير إلى جهنم.

❖ ❖

(٣): (هيئة حركة الجراد):

يتجمع الجراد في أسراب كبيرة، ثم تبدأ الطيران، والجراد حشرات نشطة سريعة الحركة، ولها قدرة كبيرة على قطع المسافات البعيدة، فالجرادة الواحدة قد تقطع مائة كيلومتر في اليوم الواحد؛ وذلك بما لديها من قدرة عضلية تمكنها من الرفرفة بالجناحين لمدة تتراوح ما بين ست وست عشرة ساعة. وأما عن سلوكه أثناء الطيران، فإن الجراد الذي في جوانب السرد يتجه في اتجاه منظم (إلى داخل وخارج جسم السرب)، أما الجراد الذي في وسط السرب فيكون طائرا في اتجاهات مختلفة، ويكون في مقدمة السرب طلائع توجه سير المجموعة، ولو شعرت الطلائع بتأخر مجموعة من السرب فإنها تبطئ حركتها حتى ينتظم السرب مرة أخرى.

فالناس يوم القيامة يسيرون سراعا، قال تعالى (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا)، وقال (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا)، فاستخدم لفظ (سِراعا)، وهو جمع: سريع، وفعله: سَرُع سرعة فهو سريع. واستخدامه يدل على تناهي السرعة فهو أقوى دلالة على السرعة من (أسرع فهو مسرع)، ذلك أن (سريع) صفة مشبهة، بينما (مسرع) اسم فاعل، ودلالة الصفة المشبهة أقوى كما هو معروف لدى أهل اللغة.

وقد شبهت هيئة سرعتهم بهيئة سرعة الجراد المنتشر، ففي سورة القمر: (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ)، مهطعين: مسرعين وهم مادّون أعناقهم إلى الداعي، يتبعونه ولا يحيدون عنه، وهذا كقوله: (فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)، أي: يمشون سراعا مادي أعناقهم،

والنَّسَلان: مِشية الذئب إذا أسرع ومد عنقه [كما في مقاييس اللغة]، ومنه قوله في طه: (يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ)، أي أنهم يتبعونه في سير منتظم إليه، فلا يكون منهم عوج، بالرغم من كثرتهم وازدحامهم وانتشارهم، وهذا يشبه حالة الجراد حين يكون في السرب، حيث ينتظم ويتبع الطلائع دون أن يخرج من السرب.

ومد العنق في السير دال على الخضوع، قال البقاعي في تفسير قوله {مهطعين إلى الداع}: (أي مسرعين خائفين مقبلين بأبصارهم عليه لا يقلعون عنه، مادين أعناقهم نحوه مصوبي رؤوسهم لا يلتفتون إلى سواه كما يفعل من ينظر في ذلك وخضوع وصمت واستكانة).

ومثل ذلك قوله في سورة المعارج (كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ)، قال أبو حيان في البحر المحيط: (النصب: ما نصب للإنسان، فهو يقصده مسرعا إليه من علم أو بناء أو صنم، وغلب في الأصنام حتى قيل الأنصاب. يوفضون: يسرعون. وقال أبو العالية: يستبقون إلى غايات. وقال ابن عباس وقتادة: يسعون، وقال الضحاك: ينطلقون، وقال الحسن: يبتدرون). وكلها بمعنى، والآية تفسرها آية القمر وطه، أي: كأنهم يتجهون اتجاها منتظما إلى غاية واحدة، كما يتجه سرب الجراد إلى غايته خلف الطلائع التي تقودها، وهو كقوله: (مهطعين إلى الداع)، و(يتبعون الداعي لا عوج له). كما أن الجراد أيضا تتوقف في حركتها على سرعة واتجاه الرياح، فكذلك الناس بالنسبة للداعي.

والداعي كما بينته هو الصيحة، وهذا يدل على أن الصيحة تنطلق من مكان سيعرفها الناس، فتبعثهم، ثم إنهم يتجهون إلى المكان الذي انطلقت منه، كما قال تعالى في ق: (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)، فهو قريب لهم، وسيتبعون جهة الصوت مهطعين، كأنهم إلى نصب يوفضون.

كما وصفت الآيات حالة الخضوع التي يكون عليها الناس في سيرهم (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)، وفي طه: (وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)، فهو مشهد مهيب، فبالرغم من هذه الكثرة الهائلة، والازدحام الرهيب، والفزع الشديد، إلا أن الأصوات كلها خاشعة فلا تسمع إلا همسا، والأبصار خاضعة منكسة.

ثم بعد ذلك تتعاقب المراحل من حشر وحساب... وحتى دخول الجنة أو النار.

❖ ❖

ويقول علماء الأحياء إن حركة أسراب الجراد تتأثر بدرجة الحرارة، فهي لا تطير إلا إذا ارتفعت درجة الحرارة، فهي تظل ساكنة على النباتات حتى ترتفع درجة الحرارة، فتطير، ولذلك فهي تسكن في الليل وتنتشر مع طلوع الشمس، ويكون السرب في أفضل حالاته حيث يظهر بشكل منتظم حين تكون درجة الحرارة عالية، تتجاوز ٢٥ درجة.

وأنا أتساءل هنا: هل لدرجة الحرارة علاقة بحالة الناس حين يكونون سراعا في ذلك اليوم، فالافتراض أن درجة الحرارة المرتفعة

ستزيد من سرعة الناس، كالجراد المنتشر، ولعل هذا يفسر الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: «تُدْنَى الشمسُ يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار مِيلٍ »، وفي البخاري: «إن الشمس تدنو يوم القيامة، حتى يبلغ العَرَق نصف الأذن»، فارتفاع حرارة الشمس مع ازدياد العرق، يهيئ الظروف الملائمة (حرارة ورطوبة) لخروج الناس سراعا. وفي صحيح البخاري جاء ذكر دنو الشمس بعد الجمع، (إن الله يجمع يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فَيُسْمِعُهُمُ الداعي وَيُنْفِذُهُمُ البصر، وتدنو الشمسُ منهم، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون). فهو يبين أن الناس بعد أن يجمعهم الله ويسمعون الصيحة، و(ينفذهم البصر)، قال القرطبي: (أي: يجمعون في مكان واحد بحيث لا يخفى منهم أحد، لو دعاهم داع لسمعوه ولو نظر إليهم ناظر لأدركهم)، فهو يصف هذا المشهد وفيه تدنو الشمس. والله أعلم.